عيون الأدب الأجنبي

ترجمة: محمد برادة

لوكليزيو الربيع و فصول أخرى

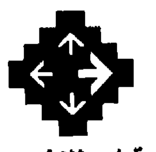


شرقيات

محي الدين اللباد

وُلد لوكليزيو في جزيرة موريس عام ١٩٤٠ وعاش طفولته بمدينة نيس، ظل منجذباً إلى كل ما هو «هجين» وخلاسي ومهمل، وإلى كلّ ما تعرض للتهميش والإبادة في الثقافات والحضارات الإنسانية. وهذا الاهتمام، قاده إلى الدفاع عن الحضارة الهندو-أمريكية وعن الحضارة المكسيكية القديمة. من هنا، نستطيع القول بأن السمة المشتركة في روايات لوكليزيو وقصصه، هي انفتاحه التام على جميع الفضاءات والثقافات بعيداً عن النظرة المحلية، المتقوقعة. إنه سائح عبر العالم لا يعترف بالحدود والحواجز، يلتقط ما يراه ويسمعه، ويتذكر ما عاشه في طفولته ومراهقته ثم يلملم من كل ذلك الشرط الإنساني المأساوي في ملامحه المتجددة من خلال علائق القسوة واللامبالاة وانسحاق الإنسان تحت وطأة الإسمنت وفضاءات المدن المفترسة. يرى لوكليزيو أن «العيون، هي وحدها بلا حدود» ؛ ومن ثم فإنه لا يريد أن ينغلق داخل «الفضاء

[التتمة على طوية الغلاف الأخير]



دار شرقيات للنشر و التوزيع



يضم هذا الكتاب الترجمة الكاملة
لمجموعة قصص:
Printemps et autres Saisons
تأليف
J. M. G. Le Clézio
الناشر
Gallimard, Paris
الطبعة العربية الأولى

دار شرقيات للنشر والتوزيع
٥ شارع محمد صدقي، من هدى شعراوي
رقم بريدي ١١١١١
باب اللوق – القاهرة. ت: ٣٩٠٢٩١٣
ص . ب: ٢٦٩١٩٨

الغلاف: محيي الدين اللباد

صدر هذا الكتاب
بالتعاون مع
البعثة الفرنسية
للأبحاث والتعاون
قسم الترجمة
القاهرة



رقم الإيداع ٧٢٤٤ /٩٥
الترقيم الدولي ISBN 977 - 5406 - 77 - 3

لوكليزيو

الربيع وفصول أخرى

ترجمه: محمد برادة

دار شرقيات للنشر والتوزيع



تقديم

لوكليزيو
كاتب متوحّد يجدُ حريّته في الكتابة

خلال الستينيات، قرأتُ أوّل رواية نشرها الكاتب الفرنسي جان ماري جوستاف لوكليزيو، وعمره ٢٣ سنة، بعنوان: المحضر Le procés - verbal التي استحق عليها جائزة «رونودو» الأدبية. انجذبتُ إلى آدم بولو، الشخصية الأساسية في الرواية، وهو يحكي عن حياته الهامشية وتزجية أوقات الفراغ في مدينة نيس، مديراً ظهره لطقوس الحياة البورجوازية وللمواضعات الاجتماعية التي تمصُّ حيوية الشباب وتدخلها في قوالب جامدة. كانت فرنسا، آنذاك، تعيش عهد جورج بومبيدو ورهاناته على «تحديث» البنيات والمؤسسات، بعد انسحاب دوكول وهبوب إعصار ربيع ١٩٦٨ لذلك وجدت أن «المحضر» التي كتبت في ١٩٦٣، كانت تشخص التصدعات التي اخترقت المجتمع الفرنسي منذ نهاية الخمسينيات لتجعل الحوار والتفاهم مستحيلاً بين حرّاس القيم التقليدية وبين الشباب المتطلع لـ «ثورة» مبهمة، لكنها تريد تسييدَ المخيّلة، وحرية التفكير، وشبقية الجسد...

وقد تحدّث النقاد، من خلال المقارنة، عن الإيحاءات المتقاربة التي يمكن أن تثيرها رواية «المحضر» لدى مَنْ قرأ «الغثيان» لسارتر و «الغريب» لكامو.. ولكن ما كان يميّز لوكليزيو، منذ بداياته وتأكّد في نصوصه التالية، هو عدم صدوره عن تصوّر فلسفي أو تنظير للرواية، على غرار ما كان سائداً عند كتّاب الرواية الجديدة بفرنسا منذ الخمسينيات. ومع المسافة الزمنية، يكون أكثر دقة القول بأن لوكليزيو وآخرين (ميشيل تورنيي، إيف بيرجي، دومنيك ڤيرنانديز، أنجلو زنالدي...) يشكّلون —بدون اتفاق مسبق— ما يشبه ردّة فعل على الرواية الفلسفية وعلى الرواية الجديدة، لأنهم استوحوا الخرافة وأعادوا الاعتبار للحكي، فامتزج الواقع بالخرافي، واحتلّت الحكاية مركز الصدارة لتقدّم متعةً وإمكانات متعدّدة للقراء والتأويل..

غير أنّني لم أتابع قراءة إنتاج لوكليزيو بانتظام، ما عدا بعض قصصه القصيرة ورواية «الصحراء» (١٩٨٥)، وفي سنة ١٩٨٩، قرأت مجموعته «الربيع وفصول أخرى» فأعجبت بها وبادرت إلى ترجمة إحدى قصصها «افتتان» على أمل أن يسمح الوقت بترجمتها كاملة وتقديمها إلى القارئ العربي، لأنها تكشف عن طريقة لوكليزيو المتميّزة في كتابة القصة، ولأنها أيضاً تتوفر على وحدة في الموضوع تكاد تجعل منها رواية متعددة المداخل. ولقد ظلّت شخصية «سابا»، بطلة قصة «ربيع» المنحدرة من قبيلة زايان بجبال الأطلس المتوسط

المغربية، تلاحقني وتنقلني إلى عالمها التخييلي الغني بالصور عبر رحلتها المستحيلة، بحثاً عن هويّة مفقودة ومهدّدة باستمرار...

أثناء ترجمتي (المتقطّعة) لهذه المجموعة، عاودت الاهتمام بإنتاج لوكليزيو الذي حرص على أن يعيش بعيداً عن الأضواء وعن وسائط الإعلام رغم أنه أصبح واسع الانتشار وأحرز جوائز هامّة، واختاره قراء مجلة «القراءة» (lire) في سنة ١٩٩٥ ، بوصفه أكبر كاتب معاصر للّغة الفرنسية.

ذلك أن لوكليزيو الذي وُلد في جزيرة موريس وعاش طفولته بمدينة نيس، ظلّ منجذباً إلى كل ما هو «هجين» وخلاسي ومهملٍ، وإلى كلّ ما تعرّض للتهميش والإبادة في الثقافات والحضارات الإنسانية. وهذا الاهتمام، قاده إلى الدفاع عن الحضارة الهندو -أمريكية وعن الحضارة المكسيكية القديمة، خاصة في كتابه التحليلي «الحلم المكسيكي أو الفكر الموقوف» (١٩٨٨). من هنا، نستطيع القول بأن السّمة المشتركة في روايات لوكليزيو وقصصه، هي انفتاحه التّام على جميع الفضاءات والثقافات بعيداً عن النظرة المحليّة، المتقوقعة. إنه سائح عبر العالم لا يعترف بالحدود والحواجز، يلتقط ما يراه ويسمعه، ويتذكر ما عاشه في طفولته ومراهقته ثم يلملم من كل ذلك الشّرط الإنساني المأساوي في ملامحه المتجدّدة من خلال علائق القسوة واللامبالاة وانسحاق الإنسان تحت وطأة الإسمنت وفضاءات المدن المفترسة. يرى لوكليزيو أن «العيون، هي وحدها بلا حدود» ؛ ومن ثمّ فإنه لا يريد أن ينغلق داخل «الفضاء الفرنسي»، بل تغدو الكتابة لديه، وسيلة للانطلاق والتحرّر من القيود والمواضعات، ووسيلة لاستعادة قوّة الحلم والرؤية الاشتمالية. ومثلما أنّه تعلّم قيادة الطيّارة ومارسها في التايلاند وبناما، فإنه يستنتج: «أن الكتابة والطّيران شيء واحد». هكذا تنتفي الحدود المصطنعة بين الواقعي والمتخيّل ويمتزج السرديّ بالوصفي، والشعري بالنثري، وتستعيد الطبيعة بعناصرها الأربعة، وبتلاوينها، وظيفة تنظيم الإيقاع وإضفاء الحياة على الأحاسيس المكتسبة خلال مسيرة المغامرة والاكتشاف. يكتب لوكليزيو باستمرار ولا يستطيع أن يستبعد المجدي عن اللاّ مجدي، لأن الكاتب، في نظره، له هذا الامتياز المتمثّل في تسجيل كل شيء ليتمكّن من أن يصنع منه، أحياناً، نصّاً يقف على قدمين. ليس هناك نظرة جاهزة ولا انتماء إلى منظومة وقيم جاهزة. يقول: «لا أستطيع أن أتقبل فكرة أن أكون منتمياً، كلّيّةً، لعالمٍ أو لآخر... أنا محتاج إلى اللاّتوازن، وإلى بابين».

لكن هذه المسافة التي يضعها لوكليزيو بينه وبين العالم، لا تعني أنه يعفي الكتابة من كلّ مسؤولية، وإنما هو يجعلها متّسعة وشاملة لأنها ترتاد ما يبدو مهملاً، ملتصقا باليوميّ وبالمعتاد من المشاعر وردود الفعل مثلما ترتاد ما يكشف الكينونة وهشاشتها، وآلام البحث

عن الذّات التي لا تكاد تَستقر عند هوية ثابتة. من هذا المنظور تصبح الكتابة، عند لوكليزيو، مجابهة مع العالم، أو كما يقول: «لا تعني الكتابة الوصول إلى النّرفانا (الفَناء المطلق) والانفصال عن الآخرين، بل الدخول في المعركة». لكنها «معركة» من نوع خاص لا تتوخى التغيير المباشر للاختلال والتّفاوت والشقاء، وإنما تنسج بالكلمات والأخيلة الفضاءات الجميلة، بيتاً شاسع الأركان، مشرَع النّوافذ، لا يملكه سوى القادرين على الحلم والاسترشاد بالحكمة المنحدرة من الثقافات القديمة التي احتفظت بالقدرة على الإيمان رغم ما تعرضت له من إبَادة... معركة لوكليزيو تبدأ من الحلم والطبيعة وتلقائية العواطف، بوصفها عناصر للمقاومَة وتشييد عالم ممكن يعطي لحرّيتنا معنىً. ذلك أن الحرية أساس هَذه المعركة: «أنا مقتنع بأنّنا أحرار ؛ والكتابة هي طريقة للتَعبير عن تلك الحريّة».

«الربيع وفصول أخرى»: الغياب والهوية المفقودة

أكثر من رابطة وعلامة تجمع بين القصص الخمس لهذه المجموعة، لتُضفي عليها نوعاً من القرابة والظّلال المشتركة بالرغم من تباين حكاياتها. وفي طليعة عناصر القرابة، وجود خمس فتيات –نساءَ بوصفهنّ شخصَيات أساسية في كل واحدة من تلك القصص. وهذا الحضور النسائي وما يَحمله من عبَق أنثوي يلّون بالشخصيات النسائية (ضمير المتكلم أو التّبعير القريب من وجهة نظر الشخصية الأساسية التي هي فتاة أو امرأة) ؛ ثم الصّوْغ الشّبقي (الإيروتيكي) للفضاءات وعناصرها المؤطّرة (البحر، الريح، الضوء، السباحة، المشيْ، الإبحار، التلامس...). والعنوان أيضاً يوحي بهذا الترابط «الربيع وفصول أخرى»، لكن النصوص لا تقتصر على الفصول الأربعة بل تضيف فَصلاً، لحظةً، يتوقف الزمن خِلالها. وعلى هذا النّحو، تأتي المجموعة بمثابة سيمفونية من خمس حركات، أربع منها تحيلُ على أزمنة وفصول، والخامسة، في قصة «الزمن لا يمرّ» تذكرنا بأن تلك التّقسيمات لا تعدو كونها مواضعات وتعلاّت، لأنّ علاقتنا بالزّمن أكثر تعقيداً وامتزاجاً بالوجدان المسْتعصي على المقايسةو التّحديد. كيف، إذن، نقرأ جميع تلك التفاصيل عن الأزمنة وتَجلّياتها، عن التبدُّلات المَشخّصة في الكلام والفضاء وسلوكات الفتيات –النساء الخمس، وهنّ ينتقلن من الطفولة والمراهقة إلى مجابهة العالم والانحراط في دنيا الكبار «الراشدين»؟

ونحن نقترب أكثر من هذه القصص، نلاحظ أن جميع «بطلاتها» ينْتَمينَ إلى مناخات اجتماعية هامشية، قياساً إلى مجتمع المؤسسات أو إلى مجتمع «المركز». ففَي القصة الأولى «ربيع»، تنحدر «سابا» من قبيلة بربرية بالأطلس المغربي وهي تعيش في نيس مع أمها بأحد الأحياء الفقيرة وتستعيد طفولتها الهنيّة بمدينة مهدية قبل أن تهاجر، هرباً من أسرتها، إلى

فرنسا... وفي قصة «افتتان»، نجد الفتاة الغجرية التي تعيش مع أمها بأحد البيوت الواطئة، وتطوف بالمقاهي والمراقص لتجمع ما تتعيّش به... وفي «الزمن لا يمرّ»، يطالعنا وجه زبيدة الجميل، الجريء، وهي تقود أحد المراهقين على مسالك القبلة الأولى... وفي القصة الرابعة «زينة» يهودية من بلد عربي، تعيش ممزّقة بين غرامها العذري لغزال، وانجذابها إلى الأضواء والمخدّرات مع الثري أورسوني المتاجر في كل شيء... وفي «موسم الأمطار» «تنتمي» «جابي» إلى أحد البلدان الأسيوية، وتعيش قصة حبّ وزواج ومأساة في أرض فرنسا.. كل واحدة منهن تحكي قصتها تفاصيل مختلفة، وتنتمي إلى تربة مغايرة، لكنهنّ جميعا مفصولات عن مسقط الرأس، عن الوطن الأم. كلهنّ يعشن في منفىً ما، يعانين من غياب. والقصص الخمس تتخلّق، تستمد نسغها، من لحظة استيقاظ الذاكرة وبداية انكشاف الوجه القاسي لعالم المنفى الذي كان، من قبل، يبدو مغرياً، جذّاباً. ومن ثمّ، فإن أزمنة القصص الخمس التي تتشخّص مختلفةً في تفاصيلها، سرعان ما تتوحّد متّجهةً نحو مصبّ زمني أساسا، هو زمن الهويّة المفتقدة، المفقودة، الغائبة. لكن التفاصيل في هذه القصص وتقنية السرد، هي على جانب كبير من الأهمية، لأنها رغم مكوّناتها «الواقعية»، تبدو لاواقعية بسبب ذلك الغياب الذي يكتنفها ويحملنا على التساؤل عن ذلك «الحضور» المشتهى الذي يخايل بطلات القصص ويجعلهن يسعين إلى تكثيف أزمنتهنّ في لحظة زمنيّة جوهرية.

من هذا المنظور، أجد أن التركيب الفني وطريقة الكتابة عند لوكليزيو، يخدعان، لأول وهلة، ببساطتهما. لكننا عندما نعاود النظر، تطالعنا ملامح أخرى مليئة بالإيحاءات الممتعة. وقد حللّت إحدى الباحثات في أطروحة جامعية، مكونات أدبيّة نصوص لوكليزيو في ترابطها بالصّوغ الشّبقي، وأوضحت من خلال تحليل سيميائي، أن لوكليزيو يبلور إستيتيقا انصهارية تعتمد على مزج التّيمات بموتيفات مستمدّة من الطبيعة، عبر صياغة ذات طابع ملتبس، يناغي باستمرار الجاذبية والفتن، ساعياً إلى تشرّب العالم وامتصاصه[1].

في «الربيع وفصول أخرى» تحظى الطبيعة بحضور قويّ في القصتين الأولى والخامسة، وتتوارى، جزئياً في بقية القصص ليعوّضها فضاء المدينة ذو الملامح المتجهّمة. الاّ أن ذاكرات «البطلات» تظلّ ممتلئة بصور ومشاهد الطفولة الموصولة بطبيعة مسقط الرأس. وهذا الحضور هو الذي يضبط الإيقاع، ويملأ ثغرات الغياب، ويبرر تلك النّفحات الشعرية، الشذرية، التي تتخلل كل قصّة، مادام الحكي يختار، عن قصد، الامتداد الأفقي الجاري وراء اندفاعات الذّاكرة. وهي بالأساس ذاكرة ذات خصوصية مهما التحفت بالطبيعة وتناغماتها. ومع ذلك،

---

١) يتعلق الأمر بأطروحة دكتوراه ناقشتها الباحثة Sophie Jollin هذه السنة وعنوانها:
Erotisme et Littérarite' dans L'oeuvre de Le Clézio (Thése de Doctorat: Universite' de Paris- Sorbonne. IV, 1995).

فإن لوكليزيو عندما يستحضر أحداثاً أو وقائع تاريخية، فإنه يفعل ذلك في اقتصاد شديد يربط التخييل بخلفية واقعية بدون أن ينزع عنه غلالته الحلمية وملامحه اللاّواقعية.

إنّ لوكليزيو وهو يبتدع حيوات وذاكرات نساء هذه المجموعة، يُذكّرني بما قاله أوكتافيو باز عن المبدع البرتغالي الكبير فرناندو بيسوا: «... الشاعر رجل مفرّغ يسعى، داخل قلقه، إلى أن يبدع عالماً لاكتشاف هويته الحقّ».

لعل قراءة هذه المجموعة أن تكون حافزا للقارئ على ممارسة تجربة اكتشاف الهوية التي لا تقبل الوثوقية النوّامة.

محمد برادة

١٩٩٥/٧/١٧

❖



ربيع

يحدث في نفسي شيء ما، حين تستطيل النهارات ويكبر الضوء وتتوارى الشمس، أكثر، صوب الغرب فوق الهضاب وكأنها ستقطع الأفق، في جولة كاملة. غبار الطلع منتشر في الهواء، وذبابات وأشياء كثيرة صغيرة تدوّم فيما يشبه الرعدة.

إنها المرة الأولى التي يخالجني فيها هذا الإحساس. يخيّل إليّ أن ذلك لم يحدث لي قط، قبل الآن. ومع ذلك، كنت مغتبطةً بمقدم الربيع ولو أنني لم أكن أرى الأشياء تتحرك. كان الأمر هكذا، قديماً في «نايتتنكال».

بعد ذلك، عندما جئنا إلى فرنسا، لم أكن بحاجة إلى أن أتوقف لأشاهد غبار الطلع والذبابات الصغيرة يرقصان، ولا بحاجة لأعدّ التماعات البحر. كنت قد كففت عن الاهتمام بالفصول.

ربما كان ذلك بسبب المكان الذي صرت أسكن فيه، تلك الدار القديمة الصامته على هضبة «بوميت» فوق سحاب المدينة الحليبيّ اللّون. كانت الدار تسمى «لاروزرى» غير أنه كان من الأفضل أن يسموها دار الأقنثة لأن تلك النباتات المخرّمة الأوراق قد اكتسحت الحديقة برمتها. على كل حال، هذا ما كان الكولونيل يقول.

كانت هناك سطوح مظلّلة ونوافذ عالية ذات مصاريع رمادية لؤلؤية، وسجّادات وأبواب زجاجية. لم أكن قد اهتممت بالرفاهية من قبل، لأنني كنت أعيش في تلك الدار المحميّة وكأنني أعيش داخل قصر. أتذكر، عند وصولنا إلى تلك المدينة، بعد رحيلنا عن «نايتتنكال»، أن الكولونيل قد رافقني إلى الأحياء القديمة الكائنة حول الميناء عند أسفل الدّار. كان عمري إحدى عشرة سنة، ولم يكن قد سبق لي رؤية مثل تلك الأحياء. كنت جدّ خائفة، أو بالأحرى لعلّه لم يكن الخوف، بل نوع من الرعب وإحساس بالنّفور من كل ما كنت أشاهده في تلك المدينة السفلية: الأزقة الضيّقة، القذرة، والغسيل المعلّق بين العمارات والواجهات المبقّعة، والأبواب التي تفتح على سلاليم سوداء تنبعث منها رائحة القبو الباردة. ثم الناس بكيفية خاصة، جميع هؤلاء الناس الذين كانوا يمشون بأعداد وفيرة، وذلك الحشد المتضامّ وتلك الوجوه وتلك النّظرات وضجيج الأصوات، وتلك الصرخات، وتلك الأيدي التي تلامسك

وتضربك. هؤلاء الناس كانوا قد جاؤوا من عالم آخر، وكانوا جدّ فقراء وكأنهم قد انبعثوا من عمق الأقباء الرّطبة التي تشبه المغارات، وقد تلطّخت وجوههم بالظّلّ.

كنتُ قد شَدَدْتُ بقوة على يد الكولونيل هيرشيل وأنا أقول له: «تعالَ، لننصرف، لنرحل عن هذا المكان!» . لكنه أمسك يدي بقوة أكبر وتابع السّير بين الأزقّة إلى أن اجتزنا المدينة القديمة بكاملها وخرجنا من جهة البحر. وفي يوم آخر، عندما ابتعدت عن شحّاذ كان يمدّ يده للناس عند باب الكنيسة، اغتاظ الكولونيل صائحاً: «ليس الفقراء مرضى!» . أتذكّر أنه قال ذلك كما أتذكر الخزي الذي شعرت به. دائماً ناديت الكولونيل هيرشيل بهذا الاسم دون أن أعرف لماذا. في بعض الأحيان، كنت أسميه كولونيل وهو الاسم الصغير الذي أطلقته عليه. وكان ذلك طريفاً، لأنه كان رجلاً قصير القامة ونحيفاً، بينما كانت هذه التسّمية جدّ مهيبة. كانت أمي (زوجته) تقول بأن ذلك نتيجة للناس الذين كانوا يزورونه، قديماً، وأنني كنت أردّد الاسم الذي أطلقوه عليه: كولونيل، مون كولونيل. كان اسم آمي الحقيقي هو إيمي(Aimeé)، وكنت آنذاك أقول بأنهما والداي الحقيقيان. كنت أعرف أمي إلاّ أنني كنت أشعر باللامبالاة تجاهها. لم أكن أتخيل أنني سأغادر كل شيء، ضيعة نايتتنكال بحقولها الشاسعة، والڤيلا العتيقة فوق الهضاب، والحدائق حيث تصدح الشحارير كلّ مساء... لآتي، تحديداً، إلى المكان الذي أرعبني كثيراً في أول مرة عندما تجوّلت بالمدينة القديمة رفقه الكولونيل هيرشيل. حدث ذلك فجأةً خلال الشتاء، عندما عادت أمي وأخذتني معها.

حدث ذلك، والآن كلُّ شيء مختلف. كأن نَظَري تغيّر. لَوْنُ السماء، البحر، أوراق شجر الكستناء، والنّخيل، وجوه الناس وإشاراتهم، ضجيج الكلمات... لم أعد أتعرف على شيء من ذلك. إثر هذا الانتقال، أصبحت طريحة الفراش. كان الشتاء، وكانت شقة أمي باردة ورطبةً، تكاد الشمس لا تدخلها. أصابني زكام تعقّد ليغدو التهاباً في الرئة. كنت أخطو باتجاه الموت. لم أتصور قط أن مثل ذلك يمكن أن يحدث لي، وأنني سأشعر بمثل ما شعرت به. أسقط، أنزلق ببطء نحو الأسفل. كل يوم تقلُّ حركتي. لم أعد آكل، لم يعد باستطاعتي أن أشرب. الكأس تلامس الشفتين، والحلق مشدود، والسائل يندلق من كل جوانب الفم ويغمر الصدر. داخل جسدي نار تتلظى عندما أتنفس. ما عاد بإمكان الهواء أن ينفذ.

كانت أمي تحاول أن تعالجني. كانت تظل إلى جانبي ليل نهار لعدة أسابيع كانت قد تخلّت عن عملها في ورشة للميكانيكا لتظلّ معي. هي، الشخص الذي كرهته أكثر من أيّ أحد آخر، كانت باستمرار إلى جانبي، ممسكة يدي، ماسحة جبهتي، مقدمة لي شاياً سخناً محليّ سرعان ما كنت أبصقه... وكل ذلك كانت تفعله بدون أن تتكلم، فقط كانت تنظر إليّ من غير أن تفارقني عيناها. ما كنت لأحتمل واحدةً من كلماتها، ولاشك أنها كانت تعرف ذلك. وعندما كنت أغفو، كانت هي أيضاً تنام على كرسيّها ورأسها مسندة إلى ذراعها؛ وبمجرد ما كنت أنظر إليها كانت تستيقظ.

ما كنتُ أحبه أكثر هو مشاهدة غروب الشمس فوق الهضاب التي تغدو مثل غيوم زرقاء. منزل أمي شقّة في الطّابق السادس، تحت السقوف بدون منظر، وبلا شمس تقريباً. هناك نافذتان صغيرتان واطئتان، مقفلتان بشبابيك خوفاً من تسلُّل الفئران. أتذكر ما أحسسته عندما دخلت إلى تلك الشقة أول مرة. لم أدخلها عبوراً مثلما نفعل عندما نزور امرأةً فقيرة، وإنما دخلتها لأعيش فيها ولأبقى داخلها شهوراً وأعواماً. يأس لم أتخيّله من قبل، حفرة سوداء، وكنت أسقط إلى الخلف بدون أملٍ في أن أستطيع الصعود من جديد.

كان فصل الشتاء في أوْجه، والسماء تُمطر والليل يُخيم باكراً. وكان الليل كأنما يتصاعد من جميع المنافذ وأبواب المنازل، ليكتسح أزقة المدينة العتيقة. عندما غادرت، حاملة حقيبة وكيس البحر النفيس المكتوب فوقه اسمي، قبّلتني مدام آمي وقالت «عليك أن تعودي بمجرد ما يتوفّر لك الوقت ؛ فغرفتك ستظلّ مهيأة دائما لاستقبالك». غرفتي الموجودة في شقّة الڤيلاّ القديمة، بالورق الوردي على الجدران، وغطاء السرير من السّاتان والستائر البيضاء والمكتب الصغير وفوقه كل كتبي وأوراقي. لم آخذ معي شيئاً يذكر، فقط كتابين أو ثلاثة كنت أحبها، وساعتي الصغيرة وفرشاة الأسنان وبعض الملابس. ولم تعد لي لعب ولا دمىً. لا أهمية لذلك. كنت أعلم أن ذلك ليس صحيحاً، فقد كنت راحلة لكي لا أعود أبداً. بقيا على عتبة المنزل لينظرا إليّ وأنا أغادر. كان لأمي وجه صارم ومنغلق، وقد وضعت نظارات سوداء. كانت نحيلة مسودّة البشرة. لم أكن أفهم ما قالته للسيد هيرشيل وزوجته حتّى يتركاني أرحل.

مع ذلك، فقد رجعت قليلاً إلى الفيلا القديمة خلال الأسابيع الأولى، كما طلبا مني ذلك. ولكنني لم أكن أريد البقاء. شيء ما تغيّر في نفسي. كنت أذهب إلى الغرفة الوردية وكنت أبقى جالسة على حافة السرير بدون أن ألمس أي شيء، وبدون أن أزيح السّتائر وكأنني غريبة عن البيت. وهما كانا يتركانني وحدي في الغرفة ظانّين أنني سأستعيد عاداتي وألعب أو أقرأ أو أتمدّد على السرير. لكنني بقيت متجمدة وخرجت من الغرفة ونظرتي قاسية. فيما بعد، ولأمد طويل لم أرد حتى أن أدخل إلى تلك الغرفة. لم تعد غرفتي. لم أعد أنا هي أنا. كنت أحضر لرؤية السيد هيرشيل وزوجته لبضعة دقائق فقط، بعد ظهر يوم السبت ثم كنت أعود إلى شقة أمي.

أُحب ساعةَ تغدو النهاراتُ طويلةً وتبدو مستمرة شهوراً وأعواماً. أفتح عينيّ في الصباح. فيرتفع النهار. هناك الضوء موجوداً في الغرفة الكبيرة ويصل إلى المضجع. أمي جدُّ فقيرة. إنها لا تملك مورداً للعيش سوى أجرتها كعاملة ميكانيكية. إنها تعمل في ورشة تدعى أطلس. إنها تركّب عروات على البناطيل وتخيط فتحاتها ذات الإغلاق السّحّاب. أبي فارقها قديماً. اختفى. ذهب يوماً ،لم يعد قط. لقد مات، بمكان ما في فرنسا، وهو يعمل بأحد الأوراش. وأمي لم تكلمني عنه أبداً. سمعت ذلك ذات يوم، عندما كانت مدام هيرشيل تحكيه لأحد الأشخاص؛

أوْ لعلّني اخترعتُ ذلك، لم أعد أعرف.

لم أكن قد بلغت سنةً واحدة عندما رحل. وعندئذ رحلت أمي بدورها. ومدام هيرشيل هي التي التقطتني. ركبتْ أمي الباخرة وقطعت البحر وهي وحيدة تماماً. ذهبت إلى حدّ باريس وألمانيا. إنّها هزيلة وضئيلة وأحياناً تكون ما تزال محتفظة بهيئة طفل. إنها تستطيع أن تنجز أشياء جد صعبة. عندما توفي والدي، لم تحتفظ بشيء منه، لا بأوراق ولا بصور. احتفظت فقط باسمه: زايان. إنه اسم جميل له وقع حسن. لقد تخلّصت من كل ما كان له علاقة به. ولم يأت أحد قط لزيارتها، ولا أحد كتب إليها، فأمي وحيدة تماماً. لقد تخاصمت مع مجموع عائلتها. وعن أشقاء وشقيقات زوجها لا تتكلم قط، بطبيعةالحال ؛وهم لايهتمون بها. ربما لم يكن أحد منهم مسروراً من زواجها. كنت أظنّ باستمرار أن أهل عائلة أبي لم يؤيدوا زواجه. وفي تلك الفترة كانت أمي الشخص الذي أكرهه أكثر من أي أحد آخر في العالم.

تخلّصت أمي من كل ما كان يملكه أبي، من كل ما كان يُشبهه. ولم أكن أعرف حتّى لأيّ شيء كان يشبه. هل كان طويل القامة، أم قصيراً، هل كان هزيلاً أم قوي البنية؟ هل كان جد أسمر مثلها، وكيف كان لون عينيه؟ أبداً لم أسألها عن شيء، لكنّ أمي كان لها شعر أسود وعينان كستنائيتان، وكنت أظن دائما بأن شعري أسمر محمر، وعينيّ صفراوان خضروان بسبب والدي. لقد قالت لي صديقة في المدرسة بأن البنات يشبهن دائما آباءهن. ومنذ ذاك كنت أتطلع إلى نفسي في المرآة محاولةً أن أراه من خلال انعكاسي. كنت أقطّب حاجبيّ وألصق بالماء شعري على مؤخرة رأسي لأشبه الرجل. حينما جئت لأسكن هذا المنزل المبقّع، الكائن بزقاق «لالوج»، استطعت أن أدرك كل هذا أفضل من قبل. في المساء كان البرد قارساً، وكانت أمي تتدثر بغطاء رمادي، مثل هنديّ، ثم تجلس على السرير داخل المضجع، وتنهمك في الخياطة واضعة نظارتها الغليظة ذات الإطار البلاستيكي لتقاوم قصر بصرها. كان المشهد يبدو كما لو أن هناك شبحاً جالساً بالقرب منها على السرير، شبح أبي. وكانت تستمع إلى الراديو بالكتمان ثم تطفئه. كنت أسمع نفسها المنتظم، وأظن أنها لم تكن أبداً تنام قبلي.

في بداية انتقالي عند أمي، كان هناك «جيّاني» الذي كان يتردّد على الشقّة. وجيّاني هو عشيقها. إنه إيطالي، طويل وقويّ، أصلع مع بقايا من شعرات شقراء مشبوكة ووجه هادئ طبعته التجاعيد. يداه ورجلاه ضخمة وكتفاه عريضتان، إلاّ أنه وديع وله عينان بلون أخضر كثير الشّحوب كنت أستلذّه. كان يعمل فوق إحدى البواخر، ولم يكن يأتي باستمرار، فقط يومين أو ثلاثة في كل شهر.

لم أكن أريد التحدّثَ إليه. عندما كان يجيء، كنت أغادر الشقّة أو عندما كنت أعود من المدرسة وأسمع صوته من خلل الباب، كنت أحسُّ برائحته واصلة إلى السلّم، فكنت أنزل من جديد وأجلس على درج الأردواز فوق العتبة، منتظرةً أن ينصرف. لم أكن أطيق أن يكون

عشيقاً لأمي، مع ذلك كان يترك هدايا لي، غالباً ما تكون شكولاته، وجريدة أكيم (Akim) وأقراط للأذن وقطع صابون معطر. لكنني لم أكن ألمس تلك الهدايا. كنت أتركها حيث وضعها، فكانت أمّي تتكفّل بإخفائها.

كَوْني لا أعرف لمن يشبه أبي، كان يولدّ عندي حالة معينة، مثل ثُقب في الذاكرة، مثل فراغ. في الليسيه، جميع التلميذات يعرفن كيف هو أبوهنّ، حتّي اللائي مات أبوهن، مثل كورين داريو التي هي صديقتي. ذات مرّة، أرتني صورةً باليةً ومهشّمة الزوايا كانت تمثل رجلاً جدّ شاب، له نظارات وشارب صغير. وكان يخاصر امرأةً شابة وهما يضحكان وقد ظهرا سعيدين في الصورة. كان اسمه هنري ومات مريضاً منذ أمدٍ طويل عندما كانت كورين ماتزال رضيعاً. أما أنا فلا أعرف حتى اسم أبي ولا لَقَبه. ليس لي سوى الاسم الذى تركه لي، اسم زيّان. أحياناً، أظن أنني سأتمكن من التذكُّر، ثم يتلاشى كل شيء. لا أعرف ما إذا كان ذلك مهمّاً حقيقة. لعلّه لم يوجد قط.

ما يُحدث في نفسي أثراً هو التفكير في أن هناك أُناساً يختفون هكذا، حتى ولو لم يتعلّق الأمر تحديداً بأبيك. ربما بسبب ذلك تخوّفت دائماً من أن يذهب الناس ولا يعودون أبداً. ربما أحلم بأن يعود أبي، ليس إلى هنا بفرنسا، بل إلى نايتتنكال بالمغرب، فلا يبقى شيء ناقصاً. لم أقل هذا لأيّ أحد، ولا أفكر فيه حقيقةً. فقط في المساء يراودني هذا الشعور مثل ظلّ. عندما كانت أمي تذهب، قديماً، إلى مهديّة وتتأخّر، وعندما كان المساء يحلّ، كنت أسمع حيحات الشحارير في الحديقة وأستشعر قلقاً فظيعاً يتنامى بداخلي. كنت أدور في أركان البيت وأخرج إلي الحديقة محاولةً أن ألمح الطريق عند نهاية الحقل، لأجد السيارة الخضراء. كنت دائما على وشك البكاء. وكان الكولونيل يسخر منّي، غير أنني أظن بأنه كان يحسّ، في نهاية المطاف، بمثل ما كنت أحس به. ومنذ تلك الفترة، لم أعد أحتمل سماع صيحات الشحارير في المساء.

عندما جاءت أمي وأخذتني معها، أتذكر أنني كنت قد هيّأت كل شيء، فكنت مستعدة لأن أضرب، ولأنْ أعض، وكانت بداخلي قساوة لا مثيل لها مع شراسة بالغة. لم أكن أريد أن تتحدث هي عن أبي. لم أكن أريد أن تتلفظ باسمه، ولا بأي شيء يوهمني بأنه قد وجد.

أظن أنها قد شعرتْ بذلك، وأنها قد خمّنت تلك الكراهية ولذلك لم تقل لي شيئا. وأظن أنها في تلك اللحظة، قد تخلّصت من كل الأوراق والصّور حتى لا يبقى شيء منظور. وحينما خرجت من مرضي، أبصرتُ ذلك الضوء في الخارج، لأن الشمس الآن تتوارى تماماً في الغرب بعيداً وراء الخط البنفسجيء للهضاب، وكانت لديّ رغبة بأن أختفي مثل أبي.

كانت هذه هي المرة الأولى التي أرغب بقوة أن يحدث لي ذلك. كان ذلك في داخلي ويكاد يؤلمني، وكأنه نوع من الطعنة التي نتلقاها وتترك أثراً على البطن، أو في الظّهر، فلا نقدر أن نمتنع عن التفكير فيها. كل شيء كان جميلاً في الخارج. كنت أخرج باكراً في الصباح بمجرد انبلاج الشمس أو حتى قبل ذلك بقليل. وكنت أجتاز الأزقة المعتمة جرياً إلى أن أصل البابَ عند الأسوار. وفجأة كنت على شاطئ البحر.

كانت هناك السماء، شاسعة، جدّ صافية ومضيئة، لا واقعية، تلامس البحر الذي ما يزال قاتماً. كان الهواء بارداً منذ الليل، وأطيار البحر بدأت رحلتها من الشرق إلى الغرب متّجهة نحو مصبّ النّهر. بسبب الطيور والسماء، كانت تتملكني الرغبة في الاختفاء. كنت أذهب إلى نهاية السدّ وأنا أقفز على مكسّرات الموج، وأظل أنتظر أن تعلو الشمس فوق البحر لتجعل الأمواج تتلألأ. كانت الأطيار تحوّم. جائعةً كانت. فكنت أحياناً، أحمل معي خبزاً يابساً أو بقايا لحم وقشارات. كانت النّوارس تأكل أي شيء. كانت تصرخ وتتنازع على الأكل. عيونه قاسية، مثل السماء واضحة وباترة بدون شفقة مزيّفة.

كنتُ أفكر في أُمي وفي الطريقة التي تَركتْني بها، وكنت أفكر في المال الذي أعطاه لها السيد هيرشيل وزوجته لكي يحتفظا بي. لقد باعتني. هذه هي الحقيقة، لقد باعتني أمي وكأنني أمة.

هذا الأمر لم أعرفه، وأمّي هي التي أخبرتْني به. طوال فصل الشتاء، عندما كنت أدخل إلى شقة زقاق اللّوج، المعتمة الرطبة، وأنا في حالة من الضيق تجعلني أبكي وأقول لها بأنها لا شيء وبأنها ليست أمي وبأن آمي هي والدتي. عندئذ حدثتني عن المال الذي أعطياه، مال كثير حتى ترحل وتتركني عندهما. حين أخبرتني بذلك لم أردْ أن أصدّقها أوّل الأمر، لكنها كرّرته عدة مرّات وأخبرتني بقيمة المبلغ وبأن أمي حملت الأوراق المالية جديدة ماتزال، في رزم صغيرة ووضعتها أمامها على مائدة غرفة الأكل، كانت أمي تعيد إشارة عدّ الأوراق المالية وتدسّها في حقيبتها. لقد رحلت وتركتني، في نايتتنكّال، داخل صندوق من الورق المقوّى، لأنها لم تكن تملك مهداً. كانت تحكي لي ذلك وتبكي في صمت. كان عمرها ستّ عشر سنة. كان الناس يأتون لزيارتي. كان هناك أشخاص لا أعرفهم. كانوا يظلون واقفين عند عتبة الباب، وكانوا يقولون أشياء لأمي ثم ينصرفون. حتى جياني جاء ذات يوم وحمل معه زهوراً. لكنه لم يجرؤ على الدخول. كان الأمر سيّان مادمت في طريقي إلى الموت.

لقد تعرفتُ على امرأة جدّ جميلة، كانت تسكن في شقّة من غرفة واحدة بالطابق الأول. ذات مرّة، مررت أمام بابها ولمحتها. كان لها وجه رائع، منتظم القسمات، وشعر مصبوغ بالحنّة. جاءت لتجلس على مقعد إلى جانب سريري. كانت تظل هناك أثناء خروج أمي للشّغل أو عندما كانت تذهب لقضاء بعض الحاجات. كنت أرى طيفها عكس الضوء. كانت صامتة حتى كأنها بَكْماء. لم تكن تتكلّم الفرنسية إلاّ بضع كلمات. كانت من

تونس؛ وكان لها فستان طويل أبيض ومنديل أبيض يُغطي شعرها. لم يكن عمرها واضحاً. أحياناً كانت تبدو جدّ شاحبة، متعبة، وأحياناً تبدو طريّة فتية، بوجنتين ملساوين وعينين لامعتين. كان اسمها سميرة. وبعد ذلك عرفت أنها كانت تسمّى سمّانة. وهي صغيرة أُطلق عليها أبوها هذا اللّقب لأنها كانت سمينة ومدوّرة مثل السُّمَانَى. أنا أيضاً سميتها سمانة.

أظن أنني استأنفتُ العيش من أجلها. كانت تحضر كل صباح وتجلس على المقعد عند مدخل المضجع وتنظر إليّ. لم تكن تقول شيئاً. كانت هناك فقط. في أول الأمر، لم أكن أريد أن تبقى معي، فكنت أصرخ «انصرفي!» لكنها كانت تظلُّ ثابتة في مكانها. ورغم ضوء النهار وراءها، كنت أستطيع أن أرى عينيها تلمعان وسيعتين وسوداوين، عينان وديعتان تشبهان عيني طفل. وعندما كانت تظل ما يكفي من الوقت، كانت تنصرف. كانت تترك قليلاً من الحساء الساخن في كوب فوق طاولة صغيرة أمام فراشي، وبمجرد ما تنصرف كنت أشرب الحساء، فكان حلقي يرتخي وأحسُّ السائل السخن يسري في جسدي. ثم إن الليل كان يهبط فكنت أنام.

ذات يوم وقفتُ. تمشّيت داخل الشقة. كان قد مرّ عليّ أمدٌ طويل وأنا ممدّدة، فأخذ رأسي يدور. كان ذلك غريباً. خطوت إلى أن بلغت النافذة المسيّجة. وأنا أسند وجنتي على المربّع البارد للنافذة، رأيت قطعةً من السماء.

مع السماء، أعرف كيف أتسلّى. ألعب لعبة الاختفاء. أختار متى سأعود. بعد عشر أو عشرين سنة. كل شيء تغير. لا أحد يتذكرني بعد. يمكن أن أمشي في الطرقات بدون أن أتعرف على شيء .. يمكنني أن أشاهد كل شيء بعين قاسية وباردة مثل النّوارس. والسماء هي التي تسعفني على أن أفعل ذلك. إنها تستطيع أن تصيّرني قاسية كضوء الصباح. وفي المساء أو بعد الظهر، يختلف الأمر. السُّحب ناعمة وهناك الضباب الذي يظلّلّ الكون. في الليل، هناك الخوف، والحنان، ودفء الغرف، ورائحة الأنفاس تحت أغطية السرير. لكنني في الصباح أستطيع الخروج لأكون إنسانة أخرى. هكذا ذهبت بعيداً بعيداً، إلى الجهة الأخرى للبحر إلى أن وصلت إلى مهدية ثم رجعت. لقد حلّقت مثل نورس واجتزت كل العراقيل وتعاركت مع كل الآخرين. وتعلّق الضوء بجلدي مثل غبار الميكا.

عندما حكَتْ لي أمي تلك الحكاية عَنْ نقود مدام هيرشيل، لم أستطع، أول الأمر، أن أُصدّقها. فيما بعد، مرضت وبقيت محبوسة داخل الشقة الصغيرة الباردة، الرطبة، بدون أن أخرج. وقد أراد السيد هيرشيل وزوجته أن يرياني، لكنني رفضت وصرخت فيهما: انصرفا ولا تعودا أبداً! بقيا عند عتبة الباب بدون أن يجسرا على الدخول ثم ذهبا. بعد ذلك، شفيت وجاء الربيع. أبداً لم أنتظر فصل الربيع بمثل ذلك التلهّف. الآن هو هنا وأنا صرت حرة. سأختفي. سأرحل عشر سنوات أو عشرين سنة، أي المدّة التي تلزم ليكونوا قد ماتوا جميعهم. كلهم: أمي، الكولونيل هيرشيل، أمي، مورغان، كرين... ولا تبقى سوى السماء، والضوء المتفجّر،

والبحر.

نسيتُ أن أتكلّم عن كرين وعن الحديقة الصغيرة العمومية المستندة إلى البحر. أُحبُّ كثيراً تلك الحديقة ؛ يكاد لا يوجد بها أحد، فقط بعض الشيوخ الذين يقرأون الجريدة تحت الشمس، وآخرين يثرثرون. إلى هذا المكان جئت لأجلس أول مرة مع كرين. كنت قابلته في نفس الوقت الذي قابلت فيه مورغان عند نهاية فصل الشتاء. لم يكن هناك بعد ضوء الصباح الجميل، القاسي.

لم أكن أعرف من هو كرين ولا أين يعيش. لم أكن أعرف عنه أي شيء. جلسنا هنا، في حمى سياج نبات للتزيين لأن الريح كانت باردة. وكان هناك دائماً نفس الشيوخ ونفس الحمامات ؛ ربما كان هناك أطفال لأن اليوم كان يوم الأربعاء. لا أتذكر جيداً. تحدثنا تحدثنا. في البدء، أخافني ذلك الرجل الطويل ذو التجاعيد على الوجه وعيناه خضراوان وشعره تتخلله خيوط بيضاء. كانت فتيات اللّيسيه تنادينه هكذا، كرين، لأنه كان يرتدي باستمرار اللّون الأخضر في الجاكتة والبنطلون. كانت ماري لويز تناديه بلقبه، لقب غريب: جوزيف. كان يأتي، أحياناً، لينتظر ماري لويز عند خروجها من الليسيه وهو راكب درّاجته النارية ماركة «تيرو».

وذات يوم، لم تكن هي موجودة فأركبني وراءه، وانطلقنا بسرعة مفرطة على الطريق السيّار، ثم عاد إلى المدينة وتوقّفنا لنتحدث في الحديقة الصغيرة قرب البحر. تحدّثنا طوال ساعات ثم شعرنا بالجوع فذهبنا لنأكل بمقهى فندق كبير، وهذا بدوره أربكني بتلك القاعة المعتمة ولمعان الكؤوس البالغة البياض، والأسمطة والصحون المحفوفة بخيط ذهبيّ، والورود في المزهريات. كانت هناك موسيقى ناعمة ورائحة بخور أو رائحة الغبار، وأناس يتكلمون اللغة الإنجليزية. تحدثنا طويلاً، لم أعد أذكر موضوع حديثنا. كان يقول لي بأنّه صحفي حرّ متخصّص بالربورتاج، وبأنّه سيذهب عمّا قريب إلى إفريقيا. أكلت سلطةً وأكل جوزيف سمكاً. بلّلت شفتيّ في كأس خمره الحامض، اللاذع قليلاً. وبعد الظهر، كان هناك ضوء ذهبي يتسرب عبر النوافذ. لم نكن نسمع ضجيج السيارات، فقط ضغطة كلاكسون مكتومة من حين لآخر. لم تكن الحياة توجد في ذلك المكان كانت الحياة قد بقيت في الخارج. بعد كلّ ما حدث، قصة الأوراق المالية وكل ما حكيته، أظنّ أنني مرضت كثيراً. ضاع مني رأسي وكنت أظل نائمة فوق فراشي بدون قوة. لم أعد أتحرك ولم أكن أريد أن آكل. كنت فقط أشرب قليلاً من الماء البارد، وكان حلقي ينغلق. ما كانت أمي لتفهم شيئاً. كانت تحضّر الطعام كل يوم في الثانية بعد الظهر، عند عودتها من الورشة. كانت تقدم الطعام في صحنين ثم تجلس كما لو كنت سألتحق بها لآكل. ومن خلل أهدابي كنت أنظر إلى طيفها الواهي في الضوء المعاكس وإلى البخار المتصاعد من طبق سميد الكسكس. كان أمراً غريباً لأنني كففت عن تمييز الروائح، كانت أمي تطبخ الأطباق التي أحبها: اليخنة والطماطم

و«الدّوازِ»(★). لكن الرائحة التي كانت تَصلني كانت مُستَعصية على التمّييز. أحياناً تتحول إلى رائحة براز كريهة، فكان يتحتّم عليّ أن أسدّ أنفي وفمي بيديّ. لم تكن أمّي تقول: «هل تأتين لتناول الغَذاء؟»، كانت تنتظر لحظة ثم تأكل بأقصى سرعة وتذهب لترمي ما تبقّى في الصحن الآخر، بدون أن تنبس ببنت شفة. كنت أظن أنني مقبلة على الموت عما قريب، وكان الأمر عندي سيّان.

مع كرين، بعد الظهر هذا، كانت أول مرّة أتغيّب فيها عن الدروس. أذكر أنني طلبتُ كُراسة وظرفاً وكتبت بنفسي كلمة اعتذار للمدرسة. سألت كرين: «لماذا جئت بي إلى هنا ماذا تريد؟» قال: «لماذا تضعين هذا السؤال؟ أنا لا أريد شيئا» تجولنا في الشارع على الأقدام لأن البرد كان يمنعني من ركوب الدراجة النارية. وفي لحظة معينة كنت متعبة فالتصقت به، وأسندت رأسي إلى جاكتته فوضع ذراعه حول كتفيّ. بقينا فترة من الزمن جامدين وكأننا ننظر إلى البحر. كان كرينَ جدّ طويل، أبداً لم يسبق لي أن كنت بجانب أحد في مثل طوله. وفي لحظة ما، مرّ أشخاص بالقرب منّا ونظروا إليّ بطريقة غريبة. كانت لهم عيون فاحصة، شريرة. أحدهم قال شيئاً وميزت ما قاله. كان يقول: «هل تظن أنها عربيّة؟» ثم أخذوا يضحكون. أما جوزيف فلم يسمع شيئا. قلت له: «لننصرف بسرعة!». كنت أحس بما يشبه الحرقة وكان قلبي ينبض بقوّة، ولا أدري ما إذا كان ذلك بسبب الخوف أو الغضب. كانت لديّ الرغبة في أن أقول: «أنا من زايّان!».

ابتعدت عن كرين ومشينا في اتجاه معاكس. عُدنا إلى الحديقة الصغيرة لنجلس على مقعد بعيد عن عيون الناس. أردت أن أدخّن سيجارة أمريكية فكان الدّخان يتناثر في الهواء. كان الوقت متأخراً ولم يعد هناك لا شيوخ ولا حمائم. كنت متعجلة لأعود إلى المدينة القديمة، إلى زقاق «لالوج» وأصعد سلّم الأردواز إلى أن أصل إلى الشقة. كتب لي اسمه وعنوانه ورقم تليفونه. كنت أظن أنني لن أراه مرة ثانية.

❖

لما بدأ الربيع، ساعتئذ فكرتُ في نايتتنكال. كنتُ على وشك أن أبلغ العاشرة من عمري هناك في مهدية عند مصبّ نهر سبو. ونايتتنكال كان هو اسم ضيعة السيد هيرشيل وزوجته. لم أعد أتذكر لماذا كانت تحمل هذه التسّمية. كانت أمي تقول بأن ذلك بسبب عندليب كان يغني في المساء، فوق شجرة بالقرب من المنزل الذي كان الكولونيل يَشيدهَ. إلاّ أنها تحدثت أيضا عن امراة كانت تحمل هذا الاسم قديماً أثناء الحرب. في نايتتنكال، لم يكن

(★) الدواز: كلمة معربية كل ما نأكله مع الخبز. (استعملها الكاتب هكذا: douez)

الضوء والسماء يَكُفّان قط عن الوجود. كانت هناك حقول القمح ممتدّة إلى شاطئ النهر، وعلى الجانب الآخر غابة بلّوط الفلّين التي تصل إلى الهضاب الأولى. أحياناً عندما يكون الجوّ صحواً، كنّا نرى الجبال العالية التي تلمع في البعيد. ومن جهة البحر، كانت تلال الرمل الأصفر مزروعةً بالنباتات الشائكة.

أرى ذلك كما لو أنه في حلم، كما لو أنه لم يكن حقيقياً وكما ولو أنّ واحدة أُخرى عاشته بدلاً عنّي. كان هو الربيع الأول الذي كنت حرّة فيه. في نهاية فصل الشتاء، سحبتني أمي من المدرسة لأنني كنت جدّ مريضة. كان عندي سعال ديكي مزّق صدري طوال أسابيع. كنت أسعل وأتقيأ. وكانت عيناي مليئتين بالدّم. لذلك، في البداية عندما مرضت بشقّة أمي الصغيرة في زقاق اللّوج، ظننت أن الأمر سيتكرر مثلما حدث معي من قبل، وأنّني هذه المرة سأموت مادامت أمي غير موجودة لتهتمّ بي.

تلك السنة كانت عام ١٩٥٦، أتذكّرها بسبب ما حدث: القنابل التي كانت تنفجر في الأسواق بالرباط ومكناس والدار البيضاء. الجميع كانوا يقولون بأن حرباً ستنشب. كانت الحقول، حول نايتتنكال، تمتد إلى ما لا نهاية ؛ والتّلال أيضاً كانت بدون حدّ، وكانت بداية للبحر. أجري بلا توقّف عبر القمح والذرة البيضاء إلى أن أصل الطريق المؤدية للبئر، ثم أصعد من جديد إلى الهضبة هناك حيث كنت أرى المدينة والأسوار، ومن ورائها اللطخة المعتمة لأشجار البلوط الواصلة إلى الجبال. كانت الشمس تحرق الوجهَ واليدين، وكان يخيّل إليّ بأنني لم أحسّ أبداً مثل هذه الحرقة للشمس. بعيدة عن فصول مدرسة الراهبات المغبرّة، المغلقة، بعيدة عن طنين المعلّمات الرّتيب وعن صرخات الأولاد الحادّة.

صديقي كان هو حسن، ابن رئيس عمّال الكولونيل هيرشيل. كان يصغرني بسنة، إلاّ أنه كان حيوياً وخفيف الحركة. كان رأسه حليقاً إلاّ من خصلة شعر تتدلّى على القفا. لم يكن يتكلم سوى الأمازيغية، لغة الشلوح. مع حسن، كنت أنطلق جرياً عبر الحقول. كنت أريد أن يستسلم، أن يقول شيئا «قفي!» أو «باركا!» في لغته. لكنه وهو يلهث، كان يتوقف وينظر إليّ بعينيه الكئيبتين اللاّمعتين مثل حجرتين، بدون أن ينبس ببنت شفة.

ذاك هو ما كنت أتمنّى استعادته، الآن، ذاك الانطباع بالصلابة والسعادة، ورائحة الأرض اليابسة والنباتات، طعم العنب النحّاسي والصّخب الباتر لأوراق الذّرة التي كانت تتصادم عبر الريح. تلك السنة تسرّبت إلى أعماقي مثل شمس، ربما لأنها كانت آخر سنة أمضيها في نايتتنكال.

كانت هناك ضوضاء الحرب التي تتعاظم. وذات يوم، حضر صديق للكولونيل هيرشيل إلى الضّيعة. كان اسمه بويسون. كانت أمي قد هيأت له وجبةً من الدّجاج بالزّبيب. وقد حضر مع كلبين كبيرين من فصيلة عسبور، أخافا كلبتنا «لاسي». كان الرجل يأكل ويتكلّم بصوت مرتفع، وكان يشرح أن العرب لهم آلة لإضرام النار بتوقيت زمني في مزروعات القمح، وذلك

باستعمالهم مشبكاً للغسيل. وبينما كان يحكي ذلك، كنت أتوقف عن الأكل وأظل معلقة بكلماته. حينئذ كانت آمي تبعدني عن المائدة: «اذهبي لتلعبي في الحديقة، فهذه أشياء لا تصلح لك» . كنت أجري عبر الحقول وقلبي يخفق، لأبحث عن مشابك الغسيل في كل مكان، داخل الأخاديد، عند زوايا السور، بالقرب من دوالي العنب، وحتى في ناحية ناعورة الماء.

كانت الشمس تضطرم، وكنت أحسُّ الحرارة في ظهري من خلل فستان الكتّان. كانت الكلبة لاسي تجري معي وتلهث. وكانت الشمس تجعل قلبي يخفق بشدّة كأنما يرجّع ضوضاء الحرب. كانت تلك الشمس شمس محرقي الحصائد.

❖

خرجت من الشقة. كانت أول مرة، منذ أمد طويل، ألتقي فيها بالأزقة، فأحسست بالدوار. اضطررت إلى أن أستند إلى الجدران. ساعتئذ قابلت مورغان ودخلت، لأول مرة، إلى مقهى العميان الكائن بالساحة. وربما أنا التي بادرت بمخاطبتها، لم أعد أتذكر جيداً. كانت هناك الشمس، والهواء خفيف وناعم، وكان هناك أناس في الشوارع: فتيات بتنورات قصيرة، ورجال مستعجلون، تائهون، عسكريون، خادمات، أولاد تخلفوا عن الذهاب إلى المدرسة، أشخاص شاحبون، إيطاليون ذوو نظرات ساذجة، شيوخ يتكلمون لهجة نيس، عمال قبايليون جزائريون ما يزالون مدثرين بالصوف، غجريون يعيدون سبك المقصات، مقششو الكراسي، سوّاح هولنديون وأمريكيون ومن جنوب أمريكا، راهبات باللباس المدني مهربون، شرطيون ومجهولون. جميعهم يذهبون ويجيئون في الأزقة التي ما تزال مغمورة بالظل، وأنا أنقاد لحركتهم بدون أن أعرف إلى أين كنت أتجه، مترنحة، مبهورة، أمشي وسطهم، لقد كنت حيّة. أحسست بذلك فجأة. أحسست بجسدي، بيديّ، بوجهي، وكنت أحس ببرد الأقباء، بالروائح، وأسمع الضجيج والأصوات. كان الأمر كما لو أنها المرة الأولى.

كنت أتذكر، فجأة، أشياء جدّ قديمة، موغلة في البعد كما لو أنها لم تكن سوى بخار يطفو داخلي، حاملاً معه ضياء السنين. صوت مكتوم وخفيف كان يغني داخلي، في أذني. كنت جدّ صغيرة فوضعوني في صندوق للخضر من الورق المقوى، مغلفة بأزار، على الرصيف، وكان الناس يمرون ويذهبون دون أن يروني. ولابدّ أن امرأة كانت إلى جانبي، طيف مختبئ في معطف مهترئ، وكانت تمدّ يدها مستجدية المارة. والناس يذهبون، يذهبون. ووحده الصوت كان يدندن بالقرب مني، ولم تكن دندنته كلمات بل ما قبل الكلمات، مجرد موسيقى كانت تحوطني وتدفئني، موسيقى تحميني من عيون الشارع.

وكان ذلك يأتي ويذهب، ثم كان يعود، تأرجح، هدهدة. حولي، في الساحة، كان كل شيء مرتجاً، متوتراً. كانت السماء ملساء وزرقاء. ومنذ أمد طويل لم أبصرها، وأردت أن أمشي حتى أصل البحر. وعلى حافة الشاطئ، سرت صوب الشمس. كانت الريح تهبّ هبّات باردة، محمّلة بالملح. وكان البحر يطوي أمواجاً وأنا أنصت إلى ضوضاء التدفق. كان ذلك يبدأ خلفي ثم كان يصعد سريعاً بمحاذاة الشاطئ ويتجاوزني ليغلق قوسه. ثم إن البحر كان ينسحب مكشّطاً الحصى الأملس. كانت النّوارس ترقص داخل أهداب الزّبد وتحلّق قليلاً كلما أطال البحر موجه ؛ أو أنها كانت تقعد داخل الريح، فوق رأسي، وقد أمالت رؤوسها، فكنت أرى لمعان عيونها الحادّة. أظن أنني مشيت الصباح كلّه ثم رجعت إلى المدينة القديمة عبر الأزقة التي لم أعد أعرفها. كنت أضطرب من الجوع والتّعب، ولكن ذلك كان رائعاً، كان سحرياً.

عندما قابلتُ مورغان، كنت على وشك أن أقع على الأرض. أخذتّني من ذراعي واقتادتّني إلى الساحة، وأجلستني بداخل المقهى. كانت تسميه مقهى العميان لأنها كانت تقول بأن هناك كراسي في كل مكان، وأن الناس الذين يدخلون كانوا يرتطمون بالمقاعد الفارغة. كانت عيونهم مغشّية بضوء الشمس وكانوا يدخلون إلى المقهى المعتم متلمّسين طريقهم كأنهم خلّوا السّبيل.

قالتْ لي مورغان: «ترتعشين؟ يجب أن تأكلي. ليس لديْك نقود؟».

أشارت إلى النادل وطلبت ما يؤكل، شريحة لحم، بطاطا مقلية، جبن. كانت تدخّن سجائر أمريكية بعصبيّة ، وأصابعها الطويلة تتحرك كلّ الوقت. أتذكر وجهها. كان لها بروفيل غريب، شيء أشوري، عينان في شكل لوزتين لامعتين مع سواد غميق، وشعر متوسط الطّول مجعّد وأحمر، حاجبان مقوسان، جلد كامد وشاحب، وعنق جدّ طويل حيث نرى الشّرايين تنبض. رأيت كل ذلك دفعة واحدة، وذلك لا يمكن أن أنساه. ما أحدث في نفسي تأثيراً هو كونها تكلّمت معي على الفور وكأنها كانت تعرفني منذ الأزل، وكأنما افترقنا أمس وهي ضربتْ لي موعداً هنا، في مقهى العميان كما هو معتاد بيننا. ولا أظن أنها قالت لي عن اسمها ساعتئذ، ولا شك أنني علمته فيما بعد وكذلك اسم زوجها ساشا، ومينه ابنة ساشا التي لم أرها قط.

«كلي يا عزيزتي، هل تريدين أن تشربي نبيذاً؟ تعلمين أنه ما كان ذلك بإمكاني، لا أستطيع أنَ أحتمل، كانوا سيمشون على جسدك، ولربّما داسوك بدون أن يروك. كنت أفكر في شيء آخر، ورأيتك بدون أن أراك، ثم بعد أن إبتعدت قليلاً قلت في نفسي: اللعنة ، ستقع على الأرض! إنها ستقع فعلاً على الأرض! وجريت وأمسكتك في الوقت المناسب. الناس قساة، لا يرون شيئاً. هناك رجل رأيت في عينيه أنه رآك ثم حوّل بصره بعيداً وتابع طريقه... كلي

بسرعة، ستتحسّنُ حالتك، سترين أن كل شيء سيسير على ما يُرام الآن.»

كانت تتكلم عن نفسها ونيابة عنّي. ولم أعُدْ أعرف ما إذا كان بي جوع أمْ لا. كنتُ آكل وأنظر إليها. وكنت أبتسم قليلاً. كانت تشرب قهوتها الملتهبة وتحرك خصل شعرها الأحمر. كانت تحمل أساوير نحاسية جميلة في معصميها، لها لونُ النّار.

أعطتني سُواراً منها، في الحال، لا أدري لماذا. كانت هكذا تريد أن تُهْديَ كلَّ ما تملك. فيما بعد، تلاقينا تقريباً كلَّ يوم بمقهى العميان. كان الشهر شهْرَ أبريلَ، وكان ما يزال هناك ريح الشتاء الباردة والسحب العابرة للسماء، إلاّ أن النهّارات كانت طويلة، كانت تمتد، والشمس تغرب، أكثر فأكثر، نحو الغرب، فوق الهضاب الخبّازية اللّون، وكانت السّماء تزداد اتساعاً والظلال تصير أطول.

أحياناً، مع مورغان، كنا ننطلق على غير هدى عبر الهضاب ؛ أو كنّا نجلس على شاطئ السباحة لنشاهد البحر. كانَت دائماً تنتظرني أمام النافورة الصغيرة بالساحة القديمة، ثم نذهب إلى المقهى. كانت تقول: «هل تعلمين؟ لقد حلمت كأنني مقبلة على الموت. حلمت أنّ كل ما عشته سيتوقف وأنه لن يبقى شيء. كان ذلك مرعباً. هذا يخلق فراغاً أمامي، وكان لديّ انطباع بأنني كنت سأسقط. ثم إنك جئت، رأيتك، كما أنت، بحقيبتك القديمة «الخالدة» فوق ظهرك، شعرك المجعّد، وحذائك الذي يشبه حذاء طفل صغير، مثلما كنت عندما رأيتك أوّل مرّة حينما كان يبدو عليك أنك خائفة قليلاً وأنك تتشبثين بالجدران، وهذا ما أوقفني وألجمني،، لا يمكن أن تعرفي إلى أي حدّ، لعلك تظنين أنني مخبولة، ومع ذلك ما أقوله صحيح، إنه...»

دائما عندما تراني مورغان تبدأ نفس الحكاية كأنّنا لم نفترق، إنها تدخّن أكثر من اللّزوم. جدّ شاحبة، ولها حاجبان أسْوَدان يكوّنان ظلاً على عينيها اللاّمعتين. تتوفر على كنّاش من الأوراق البيضاء المخصّصة للرسم. زوجها ساشا رسّام وتقول بأنها لم تجرؤ على أن تريه ما ترسمه. تقول بأنه يكون معها وكأنها دائماً طفلة صغيرة. تقول بأنها تخافه وأنها تكرهه. لكنها لا تستطيع أن ترحل. إنه مسنّ ومريض وقد عاشا سويةً عشر سنوات وفي السنة الماضية طلب منها أن تتزوّجه، حاولت مورغان عدّة مرّات فراقه، غير أن ساشا حاول الانتحار. ابتلع الزجاج مهروساً، أو شرب جافيل أوْ ما يشْبه ذلك، فكَان من اللاّزم أخذُه إلى المستشفي. وهي تحكي كل هذا بطريقة متباعدة قليلاً، كما لو أنّ الأمر لا يتعلق بها، وكما لو أنها قرأتْ ذلك في صحيفة. تقول مورغان بأنها لم ترَ أبداً وجهاً يشبه وجهي. تتوفر على أنواع من الطباشير فاحم السّواد، داخل علبة صغيرة من المعدن، وحينما أكون معها في الخارج تحاول أن ترسمني. تقول بأنه في استطاعة ساشا أن يرسم لي بُورتريهاً أو تمثالاً. لكنه الآن شاخ ويشرب أكثر من اللاّزم.

لحسن الحظ، يوجد ابن مدام تريشي. إنه يسكن في الجانب الآخر من الزقاق فوق مخبزة والديه. عمره سبع عشرة سنة إلاّ أنه يبدو أصغر من ذلك بكثير. عندما جئت لأسكن هنا، بدأ يبعث إليّ رسائل. لم يكن يضعها في صندوق الرسائل، بل كان يتركها أمام الباب عندما يعرف أنني كنت على وشك الخروج. وعلى ظرف الرسالة يضع اسمي: الآنسة زيّان. وهو اسمه لوسيان، وقد انقطع عن الذهاب إلى الليسيه، ويشتغل في المخبزة. جلده جدّ أبيض كما لو أنه مرشوش بالطّحين.

أحبُّ كثيراً جدّته. إنها عجوز إيطالية، لها شعر مصبوغ بالأسود ومحفوف بعصابات. ترتدي ثياباً سوداء مع ياقة من الدانتيلا ووزرة صغيرة. تبدو، بشعرها المعصوب ووجهها البيضوي، كأنها جاءت من قرن آخر أو كأنها خرجت من لوحة. إنها دائماً وديعة ومبتسمة. في البدء، عندما جئت لأسكن بحيّ اللّوج، كنت أذهبَ لأشتري الخبز من عندها، أثناء عودتي من المدرسة. وكانت تقول لي: «سينيورينا.» وعندما كنت مريضة كانت تسأل عن أحوالي: «كيف هي السنيورينا؟»

كان لوسيان يبعث إليّ رسائله كل يوم، وكنت أجد ذلك غريباً. لم يكن يجرؤ على مخاطبتي. كان يكتب أشياء غير مألوفة، قصائد مقفاة، ويقول عني كأنني وفدت من كوكب آخر، وبأنني من بلاد بعيدة، وأنه يريد أن يتعلم ما كنت أعرفه عن عالم آخر... وكان يضع علامات استفهام في كل مكان. كان من الصعب عليّ أنْ أفهم رسائله. أحياناً، عندما كنت أدخل إلى المخبزة كنت ألمحه في قاع الدّكان مرتدياً بنطلوناً قصيراً وقميصاً بدون أكمام، بسبب حرارة الفرن.

ذات يوم، كلّمني وأعارني دراجته النارية التي كانت ماركتها «بيبي بُوجو» وهي أقدم ماركة آنئذ، وموديلها له كارتيرات مدوّرة أعاد صبغها باللون البرتقالي. قال لي: « إذا أردت يمكن أن أعطيها لك.» لم يكن سبق لي أن ركبت دراجة نارية. أوضح لي كيف نستعمل قبضه اليد لتغيير السرعة.

أتذكر المرة الأولي التى خرجت فيها بـ «بيبي بُوجو»، طفْت حول المدينة القديمة ثم انطلقت على الرصيف بمحاذاة البحر. كان يوماً من أيام الشتاء، رماديا وبارداً. ولم يكن هناك سوى النّوراس التي تجري فوق الحصى. انطلقت بكلّ سرعة وسط السيارات الواقفة. كان ذلك بديعاً لم أستشعر مثل ذلك الإحساس من قبل. كنت حرّة وأستطيع أن أتّجه إلى حيث أريد إلى أقصى المدينة. إلى الهضاب وإلى أن أبلغ الأحياء المجهولة. الريح الباردة تدمع عينيّ. وكنت ألامس السيارات الثابتة وأنزل من على الرصيف لأجتاز الساحات، وأتسلق الأزقة الصغيرة بين القمامات. كنت أستطيع أن أقطع في بضع لحظات ما كان سيتطلّب أياما كاملة على الأقدام؛ كنت أذهب إلى محطّة القطار وإلى الميناء وأصل حتّى إلى المطار. لم أكن أعرف هذه

المدينة. وكانت هناك فضاءات كبيرة معتمة وشوارع مستقيمة وجدران عمارات بيضاء كبيرة. وكانت هناك أحياء للهنود الصينيين، وأسواق تقام على عجل، وأزقة مشبوهة، متاجر فخمة مضاءة بأنوار في لون البلاتين.

لم أكن أفكر في أي شيء من هذا وأنا منطلقة فوق الدراجة النارية. كان هناك فقط ارتجاج المحرّك بين معصميّ والأرض التي تنزلق تحت أقدامي، والريح الباردة القاطعة للأنفاس.

طوال شهر أبريل أعارني لوسيان دراجة «بيبي بوجو» كل صباح. كان يعمل بالمخبزة، وعندما أخرج صباحاً، يظهر مغموراً بالطحين، فيفكّ الآلة المضادة للسرقة ويضعها حول المقود، ويقول لي: «انتبهي مع ذلك» وعندما أمتطي صهوة الـ «بيبي بوجو» تلمع عيناي. هذا ما يقوله لوسيان. قال لي بأنه لأجل ذلك يعيرني الدّراجة النارية حتى يرى عيني تبرقان. ما من أحد قال لي كلاماً لطيفاً مثل هذا.

حدثت أشياء كثيرة هذا الربيع، جيّدة وسيّئة. لكنني أظن أنه لم يكن هناك ما هو أفضل من تلك الجولات علي ظهر بيبي بوجو، عبر المدينة في الصباح الباكر، عندما يكون الهواء مايزال بارداً وأوقظ حتى الحمام. كان ذلك حسناً، حقاً كان ذلك رائعاً. تكوّن لديّ انطباع بأنني بدأت أعيش من جديد وأنه كان باستطاعتي أن أحافظ على حياتي، وبأن هناك شيئاً يخصني هنا. لاأعرف كيف أعبّر عن ذلك، فعندما كنا قريبين من الحافة، أتذكر، كنت أبحلق في الفراغ عبر النافذة في الطابق السادس، وكنت أظن أنني أستطيع أن أسقط، أسقط بدون نهاية وإلى الأبد. لم يكن الأمر يتعلق فقط بالدراجة النارية، بل أيضاً بصوت لوسيان وبعينيه المفرطتي العذوبة وبشرته البالغة البياض والمرأة العجوز الإيطالية في المخبرة بفستانها الأسود وعصائبها. عندئذ أشعر بالخجل ممّا فعلته بحفيدها، لأنه بعد ذلك لم تعد الأمور كما كانت، وخيّل إليّ أنني كسّرت شيئاً، فلم يعد قطّ إلى بعث رسائله العجيبة.

بعد ظهر أحد الأيام، عندما كانت أمي بورشتها أطلس، قابلت لوسيان في الشارع وطلبت منه إذا كان يريد أن يرى المكان الذي أسكنه. تبعني إلى أعلى السلم، وصعد ورائي، فأخذت المفتاح المعلق حول عنقي وفتحت الباب. كان البيت صامتاً ربّما لأن الجميع كانوا اقدْ خرجوا.حتى طائر النّغر الذي تملكه سيدة الطابق الثالث لم يكن يتلفظ بشيء. وداخل الشقة الصغيرة كانت العتمة أقل من المعتاد، وكان الضوء يمرّ من خلل المصاريع ويلقي ببقع بيضاء على القسم الأعلى من الجدران.

بقي لوسيان واقفاً في الغرفة بدون أن يقول شيئاً. لم يكن حتّى ينظر إلى ما حوله. كانت الحرارة مرتفعة في الشقة بسبب الشمس التي كانت تلهب السقف. وكانت هناك بقع من العرق تحت ذراعيّ، وقميصي القصير يلتصق بظهري. كان لديّ انطباع بأن رائحتي كريهة وفي نفس الوقت كنت أحب تلك الرائحة لأنها كانت تجعل قلبي ينبض بسرعة أكثر

وبإيقاع أقوى مثلما يحدث عندما نجري. وربما كان ذلك بسبب الدّرج.

جلسنا داخل المضجع على حافة الكَنبَة. كنا نتكلم أو أننا لم نكن نتكلم، لم أعد أذكر، فلا أهمية لذلك. لم يكن لديّ ما أقوله. لوسيان أيضاً كانت تفوح منه رائحة العِرِق، ووجهه الطفولي يلمع وسط العتمة. أراد أن يقبلني، لكنني أنا لم تكن لديّ رغبة، فصددته. وفي الوقت نفسه، ومن دون أن أفهم لماذا كنت أفعل ذلك، خلعت قميصي وبقيت جالسة أمامه بدون أن أتحرك. كان ينظر إلى جلدي ونهديّ، وكنت أسمع ضجيج تنفسه وضربات قلبي. «اسمع». أخذت يده ووضعتها على صدري لكي يحسّ بالضربات. أخذ يلاطفني ورغم الحرارة كنت أحس زغب ذراعيّ ينتصب. كانت له يدان جدّ ناعمتين، وأذكر أنني قلت له بأن ذلك يعود إلى الطحين. لكنه لم يكن يضحك. كان متوتراً وعندما التصق بي، أحسست أنه كان يرتعد. وظهر لي ذلك غريباً، وأنا أيضاً كنت إلى ذلك الحين خائفة ثم كففت دفعة واحدة، عن الشعور بالخوف. كنت أرى ما أنا بصدد فعله وكان ذلك سيّان. كنت أرغب في أن أذهب إلى النهاية، في أن أصير امرأة. لم أكن أريد أن أتظاهر بفعل الأشياء.

كان أمراً غريباً، في الواقع، ربما لأن ركوبي على الدراجة النارية هو ما جعلني أفهم ذلك، وأنا أخترق بسرعة الأزقة التي كنت من قبل أسير فيها ببطء، تاركة ورائي العديد من الناس والمنازل والأسماء والأرقام. سألته: «هل سبق أن ضاجعت؟» نظر إلي لوسيان كأنه لم يكن يعرف ما يقول، ربما ظن أنني كنت أسخر منه. قال «لا» برأسه بدون أن يتكلم. كان وجهه يلمع من العرق وكان يرتعش وهو يستند على الذراعين. ساعدته على خلع قميصه وسرواله؛ وتحته كان يرتدي لباس البحر.

تذكرت أنه كان يذهب إلى المسبح مع أصدقائه بعد ظهر كل يوم. كان له جلد أملس ومفرط البياض مثل وجهه، وكان شعره وزغبه مجعدين بسبب العرق. انحنى فوقي ووضع شفتيه على صدري وعلى عنقي. كان يحاول أن يجردني من ثيابي إلاّ أنه لم ينجح في ذلك، وعندئذ وقفت ونزعت سروالي وسليبي. الآن ما عاد قلبي يخفق بشدة مطلقاً. كنت مرتاحة بعد تخلّصي من كل تلك الملابس وأحسست أن جلدي يتطرّى وينشف. كان لديّ انطباع بأن لوسيان مطلي بالطحين مثل سمكة ستقلى. ثم تمدّد فوقي وحاول أن يضاجعني ولكنه لم يتمكن مطلقاً من إنجاز ذلك. كان يرتعد أكثر فأكثر وتنفسه اختنق وجسده يتصببّ عرقاً. في لحظة ما، لم أعد أطيق فدفعته وهو تعلّق بي كأنني قطعة خشب، وبقي متلصقاً بنهديّ وبطني، وكانت كل عضلاته متوترة مثل أوتار. وحتى أتخلص منه، تحتم علي أن أنزلق من تحته وتركت نفسي أسقط من السرير ثم فككت تشبيكة ذراعيه وانتصبت واقفة. بقي بعرض الكنبة وجسده المفرط البياض ملقىً على البطن ورأسه مدفون في ثنايا الغطاء. كان يتنفس بقوة فظننت أنه كان يبكي. غير أنني عندما ارتديت ملابسي وجلست قريباً على الكنبة، انتصب واقفاً دفعة واحدة. كان على محيّاه تعبير غريب، حزين وغاضب في نفس الآن.

وكانت عيناه تلمعان بنوع من الخبث.

لا أعرف ما قاله، ولا ما قلتُه، ولا حتّى إذا كنا قد قلنا شيئاً. يخيل إليّ أنه تكلم عن البنات بصفة عامة أو عن فتاة أخرى. صحيح أنني لم أعد أتذكر، ارتدى ثيابه على عجل، وكان حاذقا في ذلك، فأنا أذكر أنّه ارتدى سرواله ولباس البحر في نفس الوقت. وقد أضحكني قليلاً عند قيامه بتلك الحركة. وفي العتمة كان جسده نحيلاً ورقيقاً مثل جسم فتاة، ما عدا عضوه الجنسي فقد كان صغيراً ومتقلّصاً وسط خصلة الشعر السوداء التي غطّاها بسرعة وقد علاه الخجل. أما أنا فقد ظننت أنني لَم أكن مثل الجميع، لأنني لم أكن أخجل من شيء. ظننت أنه ربما بسبب ذلك لم تنجح مضاجعتنا إذ أنّني لم أكن أتصرف كما ينبغي أن تتصرف البنات.

حينما ذهب مصفقاً الباب وراءه مكتفياً بالقول: «إذن إلى اللقاء»، بدأت أحس من جديد بالفراغ والبرد لأنه لم يكلف نفسه حتى عناء النظر إليّ ولم يطلب مني متى نجدّد اللقاء. سمعته ينزل بسرعة السلّم القديم الذي كان يرتعد، وسمعت ضوضاء خطواته في الشارع ثم اختلط ذلك بأنواع الضجيج الأخرى. بعد الظهر، كان حيُّ اللّوح صامتاً. كانت هناك حمامات تخطو داخل المزراب وأظافرها تخدش الزّنك. تمّددت على الكنبة داخل المضجع بدون أنْ أرتدي ثيابي، وشاهدت الضوء يلمع فوق جسدي. كانت حرارة الشمس تصعد فوق السقف، وكانت هناك فرقعة في القرميد. لم أعد أذكر في أي شيء كنت أفكر لحظتئذٍ وبأي شيء كنت أحلم. كنت أطفو ما بين النّوم واليقظة وكان ذلك ممتعاً. كنت أفكر، ربما، في أنها كانت المرة الأولى، وأن شيئاً ما، قد حدث ؛ وفي نفس الوقت لم يكن هناك شيء. كنت أنتظر. كان هناك ما يشبه الحمّى في أعماق ذاتي، موجة ساخنة تذهب وتجيء، داخل ساقيّ وفي أحشائي، داخل نهديّ إلى أنْ تصل إلى وجهي. كنت أمرّر يديّ على جسدي وأرسم الأشكال والتّجويفات. كنت أنتظر وأيضا لم أكن أنتظر شيئاً. من الصعب أن أعبّر عن هذا الإحساس بكيفية أخرى. من السهل فهم ذلك، أم أن الأمر بالعكس؟

❖

في الليل، لا أستطيع النوم. مستحيل. هناك تلك الكهرباء بداخلي، وفي كل مكانٍ، في الهواء، شرارات في الظلمة، تحت غطاء السرير، وكأنها كرات تدور من حولي. هناك بروق فوق السماط، وفي السماء وعلى السقف. عيناي مفتّحتان وأنا أنتظر. لا أعرف ما أنتظره. أنصت إلى الساعات يدقُّها جرس الكاتدرائية. أسمع تنفّس أمي. إنها داخل المضجع تنام على الكنبة– السرير. ذاك اليوم، لم تقل شيئاً ؛ لكنني فهمت أنها كانت تعرف ما حدث بيني وبين لوسيان تريشي. أناس قالوا لها، كما أخبروها بأنني كنت أركب الدّراجة النارية وأنطلق بأقصى

سرعة عبر الأزقّة. لم تقل شيئاً. إلا أن لها هيئة غريبة ونظرة قاسية. فهمتُ، من الطريقة التي أخذت بها الكنبة -السرير، ومن تغييرها الغطاء وقلبها للحّاف، أنها كانت تعرف كل شيء. على كل حال، لم تكن تستطيع أن تقول شيئا. لو قالت شيئاً، ما كنت لأتحمل، كنت رحلت، على أنها لم تكن في وضع مريح يسمح لها بأن تقول شيئاً، وهي في علاقة مع البحار الإيطالي الذي يزورها بالشقة.

منذ أمد طويل وأنا أفكر في الإقدام على هذا، وسأفعله: في يوم ما، سأغلق الباب بالمفتاح وأعلقه على المسمار الموجود فوق الباب ثم أرحل وأسير عبر شوارع المدينة. أركب القطار ؛ ربما إلى أن أصل إلى مرسيليا أو إسبانيا، ثم أركب الباخرة وأعود إلى بلادي، على الشاطيء الآخر من البحر، إلى مهدية وإلى نايتتنكال. أرى من جديد غابة البلّوط -الفلّين، والتّلال ومصبّ النّهر والأسوار. ماذا تبقّى الآن من نايتتنكال؟ عندما رحل الكولونيل هيرشيل، بسبب الحرائق والقنابل، ترك كلّ شيء وكأنما كان عليه أن يعود: الأثاث، والأدوات، مساحات الزراعة الزجاجية، كل شيء بقي هناك أمرته الحكومة الأمريكية بأن يرحل بسبب وجود القاعدة الأمريكية والاعتداءات. لكنه لم يكن يظن أن رحيله سيكون للأبد. الآن، مرّ الوقت، ولا شك أن أكواخ العمال قد تهدّمت ودار الأجور الكبيرة لم تعد لها أبواب ولا نوافذ. أتذكر أن أحدهم، ذات يوم، قال لمدام هيرشيل بأن الناس حملت كل شيء، كل ما كانت تقوى على حمله، وكل ما كان مصنوعاً من خشب أو حديد. حتّى المدفآت، حتى مزارب وأقواس واقية الكفل المخصّصة للخيل.

لأجل ذلك لم أعد أستطيع النوم. أنا اثنان. هناك واحدة هنا، في شقّة اللّوج، ممدّدة على السرير الذي يطوى، تسبح وسط البروق والشرّارات، وواحدة أخرى بقيت هناك، في نايتتنكال، قرب البحر مع السماء الصافية، مختبئة وسط أجمات التّلال، تستمع إلى نشيد الجراد وموسيقى الأمواج.

وفي فصل الربيع، تكون هناك حفلات الزواج. لعلها واحدة من أقدم ذكرياتي في تلك السنة التي عادت فيها أمي إلى مهدية. كانت قد جاءت لتراني في نايتتنكال. كانت في أول شبابها وما تزال تبدو كطفلة. كانت تضحك وتدندن بالأغاني كل الوقت، وكانت تكلمني بلغتها التي لم أكن أفهمها. لم أعد أتذكر وجهها، إلاّ أنني لم أنس طريقة لبسها. كان فستاناً طويلاً فاتح اللون وعلى رأسها شال أبيض ينسدل على الكتفين ولم يكن يترك للرؤية سوى عينيها. كانت تخفي فمها عندما تأكل أو عندما تضحك. وكانت تريني كيف نرقص وأقدامنا عارية على بلاط المطبخ عند أسفل السلّم. ربما كانت تعمل عند أمي أو أنها كانت تسكن بالمدينة، لم أعد أتذكر، لكنها كانت تمضي وقتها معي، وكانت تأخذني للنزهة وترقّصني وقدماي عاريتان وهي تطرق الأرض بسرعة متزايدة. كل هذا لم أنسه، وحتى الآن ما أزال أتذكرها في تلك الفترة ولا أستطيع أن أمنع نفسي من أن تحبها، ومع ذلك فأنا أكرهها.

أتذكر عرس جميلة. كانت أمي قد هيّأتني، فألبستني ومشّطتني لكي أذهب إلى عرس

ابنة عمها، جميلة. وهذا الاسم هو ما بقي مُستقراً في أعماقي. كانت أمي قد جدلتْ شعري ضفائر، مضيفة الصوف إلى الشَّعر، ووضعت لي الأحمر على الخدين. كانت أول مَرّة أرى فيها وجهي في المرآة، ولم أتعرف على ذاتي. ثم أخذتني وسرنا في الطريق إلى مهدية. وهناك ركبنا الحافلة متجهتين إلى مدينة القنيطرة. وجدت نفسي بمدينة كبيرة لم أكن أعرفها، ذات شوارع مشجرة وعمارات عالية، وبها أيضاً تلك البيوت الصغيرة البيضاء، الفقيرة، التي توجد في كل واحدة منها ساحة داخلية. كان هناك دجاج ومَاعز ؛ وفي كلّ الأرجاء هناك أطفال ونساء محجّبات بالقرب من نافورات الماء. كان هناك ضجيج للأصوات والموسيقى الغريبة، تخرج من البيوت، كانت هناك أجهزة الإذاعة التي تردّد، جميعا، نفس الأغنية من شارع لآخر.

ذهبنا، أول الأمر، إلى بيت المخطوبة. ولم يكن العرس سيجري بتلك الدار لأنها لا تتسع للاحتفال. وكانت أمُّ جميلة قد اكترتْ منزلاً آخر يقع في الطرف الآخر من الزقاق، لإقامة الحفْل. بقينا بمنزل العروسة إلى المساء، فيما كانت هي تحضّر نفسها. كان بيتهم نظيفاً، بسيطاً وجميلاً تحت الضوء الأبيض، مع ساحة من الطين لا توجد بها سوى جرة للماء. بقيت جالسة في فناء الدّار، ومن حين لآخر كنت أهب لأُطلّ عبر باب الغرفة الصغيرة حيث كانت العروسة تحضّر نفسها .كانت جالسةً على مخدّة والنساء من حولها يمشّطن شعرها ويزيّنَّ وجهها. وإلى جانبها، كان هناك، داخل صندوق، حلْي يلمع وسط العتمة. وكانت أمي مع النساء تتكلم وتضحك. وكنّا نسمع، من بعيد، ضجيج الموسيقى وصياح الأطفال.

عند حلول المساء ذهبت العروس وأُمّها إلى الدّار الأخرى، وسرتُ صحبةَ أُمي وجماعة النساء خلفهما. كانت العتمة قد غمرت الزّقاق ولم تكن مواقد النار قد أُشعلت بعد في البيوت. كنت أستشعر انطباعاً قوياً لم أنسه أبداً، وكان يشبه الخوف، وفي الآن نفسه كانت لديّ رغبة جارفة في أن أرى ما سيحدث. كان قلبي يخفق بشدة، وبرد الليل ينزل، وضبابة تكتنف النجوم اللاّمعة.

في الدار الأخرى، كانت الحفلة قد بدأت ؛ والساحة المتّسعة الأطراف امتلأتْ جوانبها بالمدعّوين. وفي فناء الدار كانت مواقد الجمر تحمرُّ والنساء يهوّين الفحم بمنافيخ وروائح غريبة تتصاعد وتختلط بالدخان. لم يكن قد سبق لي استنشاق مثل تلك الروائح: الكمّون، والإبزار، والزّنجبيل، والكزبرة. كان دخان الفلفل الحارّ المشوي يتسرّب إلى الحلق ويعوق الكَلام. كنت أتبع أُمّي وأتشبّث بفستانها لأنني كنت خائفة من كل شيء. كنت مندهشة، مذهولة.

بأحد أطراف الفناء، كان الرجال جالسين متدثرين في معاطفهم الصوفية، يدخّنون السجائر ووميض الجمرات يضيء وجوههم. أشارت أمي إلى أحدهم وهو تقول لي: «انظري،

هذا هو خطيب جميلة.»

كان الأطفال يجرون في الساحة حفاة، والبنات يضحكن ويرشقنهم بأحجار صغيرة أو بنويات. ظللت جالسة على الأرض إلى جانب أمي، فيما كانت تهيئ الطعام أمام موقد الجمر. كانت قد وضعت قطعاً من اللحم في طنجرة بدون غطاء، مبعجة ومسودة، لم يسبق لي أبداً أن رأيت مثلها. كنت أسمع الزيت يطقطق وأشم رائحة الثوم والبصل. كنت جالسة لصق الموقد بسبب برد الليل، ولأن ضوء الفحم الأحمر كان يطمئنني. بعض الأولاد كانوا يأتون ليجلسوا بجانبي ويكلمونني بلغتهم البربرية (تشلحيت). كان هناك بنات يلمسن شعري وفستاني الذي يشبه فستان فتاة فرنسية صغيرة، وكن ينظرن بفضول إلى حذائي المبرنق، اللامع. كن يضحكن ويسخرن قليلاً ثم ينصرفن إلى مكان آخر.

أتذكر وجهاً لم أنسه أبداً. وقد ظننت، أمداً طويلاً بأنه وجهها هي جميلة التي تزوجت تلك الليلة. أدركت، فيما بعد، بأن ذلك لم يكن ممكناً. فعند بداية الحفلة، كان يتحتم على الخطيبة أن تظل مختبئة بإحدى الغرف، مع أمها وقريباتها، واضعة على وجهها حجاب الزواج. تلك الفتاة الفتية جاءت إلى جانبي وجهها المضاء بالمواقد ظل محفوراً في ذاكرتي. كانت جد يافعة حتى لكأنها خرجت للتو من الطفولة. كانت عيناها طويلتين، محاطتين بخيط رفيع من الكحل، تلمعان بلون أسود عميق في الليل، وقوس حاجبيها المتقن يضفي على وجهها تعبيراً عن الحزن، غريباً وسط ضوضاء الاهتياج الفرحان للاحتفال. جلست الفتاة الصغيرة أمام الموقد واستدارت نحوي، ونظرت إلي بعينيها العميقتين اللتين كانتا تسائلانني. لم أكن أعرف ما كانت ترغب فيه، إلا أنها كانت تسأل عن شيء، شيء ما، فقط بعينيها، ولحد الآن، وأنا أتذكر ذلك، أحس باضطراب ويشرع قلبي في الخفقان. أتذكر أيضاً أنه كان لها شيء عجيب بين عينيها، على جلد الجبين وشم في شكل نجمة أو شكل حشرة. كانت تنظر إلي بدون أن تقول شيئا. بعد ذلك، ذهبت لتلتحق بالنساء في الطرف الآخر من الساحة.

كان هناك صراخ وموسيقى. كان الهواء بارداً، وكنت أتزاحم مع الأولاد الآخرين أمام نار الموقد ؛ وكانت رائحة الفحم تختلط برائحة الأكل. كنت أحس بانتشاء، وربما لأنني أكلت أكثر مما يجب من حلويات «المعجون» المشتملة على قليل من الحشيش. ومع بنات من عمري مشيت إلى أن بلغنا الطرف الآخر من الساحة حيث كانت النساء يحضرن عجين اللوز. شربت الشاي القوي، الملتهب، في كأس صغيرة. وعلى جدار الدار، كان هناك الجوقة وعازفو الرباب وآخرون يدقون على طبول صغيرة من الطين النضج. بالقرب من ذلك، كانت النساء يحطن بالشيخات: الراقصات السمينات المكسوات بالحلي وبقطع الذهب، واللائي كن يضعن ريش النعام الأسود وسط شعرهن. وفي مركز دائرة النساء، كانت راقصة، على ركبتيها، تؤرجح نصفها الأعلى وتكنس الأرض بجمة شعرها الأسود الطويلة. كان الدخان حريفاً وكانت هناك التماعات من الضوء والأنوار الحمراء والظلال. كنت خائفة، وكنت منتشية. كنت

أرقص مع البنات الأخريات وقد نزعت حذائي المبرّق، أرقص وأنا أطرق بقوة الأرض الصلبة تحت قدميّ.

كانت أصوات النساء تنفجر، فجأة، فيما يشبه صرخة حادّة غريبة كأنها نحيب، والطبول تدقّ تدقّ بأعماق صدري. كنت أرقص وأنا أدور حول نفسي بدون توقّف، ضاربة بباطن قدميّ وعقبهما، وكلّ من حولي يدور معي، وعيون البنات تلمع وعقودهن تتصادم، وكنت أرى عاج أسنانهنّ يلمع وسط وجوههنّ المعتمة.

جلست على الأرض. كان بي دوار. حلويات المعجون سبّبت لي الغثيان. وفجأة، رجعت متجهةً إليّ الفتاة ذات العينين المكحلتين والعلامة الغريبة المرسومة فوق جبينها. أمسكت يدي وقرّبت من شفتي كأس شاي مر، قويّ. لم تقل شيئاً ؛ وعلى كل حال، كان الضجيج والموسيقى مرتفعين، وكان الامتياج في الساحة على أشدّه، فلم يكن بوسعي أن أسمع صوتها. ظلّت جالسةً بجانبي أمداً طويلاً وهي تنظر إلى الحفلة. وأحياناً، كنت أحسّ نظرتها مصوّبةً إليّ، وعيناها الداكنتان، اللامعتان، تتفحّصانني. ثم إنّ وجهها كان يشرق فتضحك، وكنت أضحك معها دون أن أعرف لماذا. في منتصف الليل نام الأولاد تباعاً، تمدّدوا على الأرض مباشرة ورءوسهم مسندة إلى أذرعهم.

مع صديقتي تلك، طفت في الساحة من موقد إلى موقد. النساء مستمرّات في الطبخ، وكان هناك ضوء الجمرات الخافت والدّخان يستثير الحلق. ودائماً، بدون توقّف، الموسيقى وقرع الطبول وصوت النساء اللائي كنّ يغنين،، ينتحبن. أحسست بدوار، فاقتادتني صديقتي من يدي، عبر الساحة، إلى باب صغيرة تفضي إلى أرض خلاء. أمسكتني فيما كنت أتقيأ. كنت جدّ تعبة فظننت أنني سأبكي، رافقتني إلى الدار الكبيرة وأوجدت لي زاوية بين الأولاد النائمين. تمدّدت على الأرض فخيّل إليّ كأنني على رمث ينساب بمحاذاة نهر لا ينتهي. في الخارج، عبر الباب المفتوحة، كنت ألمح السماء والنجوم. بقيت الفتاة الصغيرة أمداً طويلاً ملتصقةً بي لتدفئني. كنت أحس بتنفّسها هادئاً وبذارعها حول كتفيّ. ما من أحد قطّ، ضمّني مثل تلك الضمّة.

أتذكر تلك الليلة الطويلة. أحياناً، كان بعض النساء يجئن ويتكلمن بصوت مرتفع ويضحكن، ولم أكن أفهم ما كنّ يردنه. بعضهنّ لهنّ مصابيح جيب، فكنّ يسلّطنها على النائمين بحثاً عن أولادهن. كنّ يتلمّسن الأجساد الغافية ويمررن أيديهن على الرؤوس وعبر الشّعر. كنّ يتلفّظن أسماءً بصوت حادّ: علي، سميرة، سليمة.. لم يكن بوسعي أن أنام. كانت عيناي ملتهبتين والحلق جافاً. وكنت أسمع كلّ الضوضاء والموسيقى التي لا تكفّ بل تتعاظم، وقرع الطبول الصغيرة الطينية، وصوت المغنّية الثاقب، وأقدام الراقصات اللائي يطرقن الأرض طرقاً. كنت أنصت إلى تنفّس الفتاة الصغيرة الهادئ. كانت تنام وجسدها مستند إليّ. كان الليل طويلاً، بدون نهاية. وكنت أظنّ بأن النهار قد لا يعود أبداً.

الهواء خفيف. الحرية، الجري عبر الأزقّة. راكبة فوق «البيبي بوجو» أذهب إلى أبعد ما يمكن لأحسّ الريح، أسوق الدراجة النارية فوق الرصيف بين السيارات الواقفة، وعلى شاطئ البحر، متّجهة نحو الشمس. كل شيء ممكن. هذا ما كنت أريده، فيما أظن، أن أفعل كل ما هو ممكن. في الآن نفسه، كنت خائفة، كنت على حافة الفراغ كأنني في حلم. هناك امتداد الظل ويمكن أن نسقط، يمكن أن نضيع.

الريح، الشمس، البحر. أحس الحياة في بطني، داخل صدري وبين يديّ. مثلما يحدث في حالة تنمّل. هناك شيء تغير فلم أعد ما كنته لأن التغيّر لمس حتى حدود شعري. أمر خطير، ومن الرعب أن أقول ذلك. لا يجب أبداً أن ننظر إلى أنفسنا في المرايا، ولا حتى في زجاج الدكاكين، ولا حتى عبر هياكل السيارات. توجد مرآة ارتدادية عند القبضة اليسرى لـ «بيبي بوجو». ولوسيان هو الذي وضعها، وكان فخوراً بذلك. ولكثرة ما أدرت كسّرتها فتدلّت بكيفية بائسة على المقود. لا أريد أن أرى انعكاسي ولا نظرة الآخرين. لا أريد أن أرى سوى السماء، حتى ولو كانت رمادية.

النهارات طويلة، طويلة. في الصباح أخرج في نفس الوقت الذي تخرج فيه أمي، حاملة جرابي إلى اللّيسية. في المساء، أعود أحياناً قبلها. لا أصعد مباشرة إلى الشقّة، بل أظل جعلى العَتبة تحسّباً من أن يكون جياني مع أمي.

الساعات طويلة مثل الشهور، مثل سنوات. عنما أعود، مساء أكون منتشية من كل ما رأيت: الريح، ضوء الشمس، نظرة النّاس. لا آكل ؛ والشمس تأكل وجهي. وضعت نظارة سوداء، إطارها من البلاستيك يحاكي قشرة السمك، اشتريتها من متجر «الكلّ بخمس فرنكات». أحتفظ دائماً بالمعطف الكستنائي ذي الأكمام المفرطة الطّول. هو ذات المعطف الذي كنت أرتديه عندما وصلت بالباخرة. وعندما أعطتني إيّاه آمي، كان واسعاً مثل قميص الحمّام، فثنت أكمامه. كانت تقول لي: «أنتِ تشبهين بهلوانياً!» أنا كنت أُحبُّ المعطف ولم أكن أريد أن أفارقه. كنت أنام به على جسر باخرة «الكومندان كيري» متدثرة بأعطافه وكأنني تحت غطاء. لم أكن أريد أن أذهب إلى القمرية مع أمي والكولونيل. وكانت الباخرة تسري ببطء وسط الظّلام على صفحة البحر اللامرئي. كان الفصل صيفاً والطقس ناعماً والريح دافئة. كنت أفتح العينين فأرى السماء المرصّعة بالنجوم التي تخفيها، من حين لآخر، نفثات ملتفّة من الدخان. كنت ممتدة على آخر جسر بالقرب من المدافن الكبيرة.

لم أنس تلك الليلة. كانت تبدو شاسعة وبدون نهاية هي الأخرى، مثل الليلة التي ذهبت فيها إلى عرس جميلة. لكنها كانت ليلة أخرى وعالماً آخر. كنت ذاهبة ولم أكن أعرف إلى أين. ربما كنت أظن بأنني ذاهبة إلى عطلة. كان المناخ يشبه مناخ العطلة، وكان هناك ناس كثيرون على الباخرة، والركّاب يتنقّلون من جسر إلى آخر، والأولاد يجرون، والأطفال يتباكون. ومعظم الناس لم يكن لهم مرقد فكانوا ينامون مباشرة على الجسر متدثرين

ببطّانيات. البعض الآخر وجدوا كراسي طويلة ووضعوا حولهم كلّ متاعهم،الحقائب وصناديق الكرتون. وكان ارتجاج الآلات يتغير بحسب اهتزازات الباخرة. ومن جانب زوارق الإنقاذ، كان هناك شباب أسمع، أحياناً، ضحكاتهم ونغمات من قيثاراتهم. أظنّ أنّني فهمت بأنني راحلة للأبد.

كانت أمي قد رجعت قبل المعتاد وجلست تنتظرني على عتبة المنزل. عندما وصلت، لم تقل شيئاً لكنها كانت تبدو كما في أيامها السيّئة، وشفتاها مضغوطتان. وعندما دخلنا، قالت: «أين كنت؟» كان لها صوت أصمّ، غريب. ظننت أنها ستصربني وقفت أمام الباب، وكنت متأهّبة للرّحيل. لم أرد أن أبتدع عذراً. قلت لها: «لم أذهب إلى اللّيسية». منذ أسابيع كثيرة انقطعت عن اللّيسيه، وأنا التي كنت أكتب كلمات التغيّب عن المَدرسة. وعلى كل حال، فهي لا تعرف الكتابة. طالعت في أحد القواميس المرض الذي يمكن أن أصاب به. الروماتيزم: وجدت روماتيزم المفاصل. بهذا المرض يمكن أن أتغيّب متى شئت. ومع ذلك حضرت دروس الآنسة بيتروورث لأنها غريبة الشأن ببقع النّمش على جسدها، ثم إنني أحبّ الإنجليزية فهي لغة الكولونيل. أحبّ الاستماع إلى راديو طنجة صوت أمريكا، أو الذهاب لمشاهدة أفلام أمريكية. والدروس الأخرى، الكيمياء، الرياضيات، الفرنسية، التاريخ، والجغرافيا بالأخص، وأكتب كلمات الاعتذار على ورق صقيل، رمادي، اشتريته من كالوري لافييت. لم أكن أريد أن يعرفوا بأن أمي لا تعرف الكتابة. اشتريت أظرفةً جميلة مبطنة بورق السّاتان. وأكتب بأفضل ما أستطيع. أبتدع أسلوباً:

«عزيزي البروفسور،

ابنتي ستجنّنني.

إن تلك الأزمات المستمرة تؤلمني، ربّما ، أكثر منها، والأطباء عجزوا عن مداواتها. لكنها إذا لم تكن معكم بالجسد، فاعلموا أن ابنتي حاضرة دوماً بفكرها. إنها تعيد قراءة الكتب وتحكي الدرس كما لو أنها كانت موجودة في الفصل. إنها متلهّفة على أن تستعيد عافيتها، فأرجو ألاّ تؤاخذوها!».

أبتدع الأسماء: سبأ، هنريت، لوسيان. وأبتدع العناون ورقم الهاتف. أبتدع أمّي. إنها لم تعد تحمل اسم مريم، بل اسم جميلة، أو إلسا، أو سارة، أو هيلين. إنها تشتغل بمكتب كبير من الزّجاج مثلما هو الحال في الأبناك، أو بعمارة من الإسمنت الرمادي أرضها مغطاة بموكيت لونه أزرق غامق. وهناك رخام ومرايا ونباتات خضراء تتسلّق الجدران إلى السقف.

وأبتدع حياتها وأسفارها وعشّاقها. أبي انفصل عنها، وهو يعيش في الطرف الآخر من العالم، إنه بحّار ليس مثل جياني، بل هو قبطان الأسطول التجاري بإحدى السّفن الكبيرة التي تمتدّ رحلاتها إلى يوكوهاما، وإلى هاواي.

وأبتدع أمراضاً أخرى. إصابة نادرة لِقَاع العين بسبب إشعاع قوي فوق البنفسجي «ابنتي سارة، سبأ، مهدّدة بفقدان البصر، لَكُم أن تتخيلوا هلعي! منذ الغد سآخذها عند البروفسور لوروا بمدينة ليون، فلعلهُ الوحيد الذي يستطيع أن ينقذها، لا يمكن أن أُصدّق أنها ستضطر إلى التخلّي عن الدراسة إلى الأبد. هل من حقّنا أن نخفي عنها الحقيقة؟ لوَ كشفت لها خطورة حالتها، فقد تفقد ثقتها بي وبكم... إلى اللقاء عما قريب، فيما آمل بفضل الله».

في هذه الفترة بالذّات، اشتريتُ نظارتي السوداء من البزّار. لم تطلب مني أمي شيئاً. ربما لم تكن تعرف لا قليلاً ولا كثيراً من هذا. وفي اليوم التالي لم تذهب إلى مصنع أطلس. كان لوسيان ينتظرني بالقرب من المخبزة إلى جانب دراجة البيبي بوجو. كان الطقس جميلاً وكانت هناك صرخات السمامات الحادّة. «ارتدي ثيابك»، أردت أن أضع على كتفي المعطف البني القديم، لكن أُمي استشاطت غضباً. «لا تضعي هذا الوسخ» ؛ ورمت المعطف أرضاً. لبست سترةً نظيفة ومشيت في الشارع متخلفة عنها قليلاً. لم أكن أعرف إلى أين كانت تقودني.

مشينا إلى أن وصلنا ذلك الشارع الطويل في وسط المدينة حيث تسكُنُ الدكتورة هاڤن. إنها امرأة في الخمسين، سمينة بعض الشيء، شعرها مصبوغ باللّون الأصفر. إنها إختصاصية في أمراض النساء. لم أكن أعرف ما معنى ذلك ؛ ولم أكن أفهم لماذا جاءت بي أمي إلى تلك العيادة. بقيت أمي في المكتب، والمرأة السمينة مدّدتني فوق محفّة مكسوّة بالورق. جعلتني أفتح فخذيّ ثم نظرت إلى فرجي، وكانت تضع قفازاً من الكاوتشوك وتحمل آلة باردة. كان قلبي ينبض بقوة، وكنت خائفة وشاعرة بالعار. بعد ذلك، نزعت قفازها وبقيت أنتظر، بدون حركة، فوق المحفّة. قالت: «انتهينا، يمكنك أن ترتدين ملابسك» وجّهت لي أسئلة بصوت غريب، محرج بعض الشيء. سألتني عمّا إذا كانت لي علاقات بالرجال. لم أعد أحسّ بالخوف، كنت غاضبة، فقلت نعم، عرفت عدّة رجال. نظرت إليّ ثم قالت ببساطة: «لكن، ليس هناك مايدلُّ على ذلك». عندئذ أدركت لماذا جاءت بي أمي إلى هناك عند تلك المرأة. أحسست بقوة أكبر بالغضب وبالسّعر. كان قلبي يضرب بسرعة واالدم يضرم وجهي. كنت أريد أن أنصرف، ففتحت الباب ونزلت درج العمارة بسرعة متناهية وجريت في الشارع بدون أن أنتظر أمي.

لم أكنْ أُريد العودة إلى بيت أمي في اللّوجْ. ولم أكن أعرف إلى أين أذهب. كان الدوّار يمسك بتلابيبي. تلفنت من أحد المخادع العمومية إلى المصحّة التي توجد بها آمي. وكانت الحافلات تمر وهي تضغط على الكلاكسون، دون أن أعرف السبب، وكأنها حيوانات تصرخ ثم تنصرف. كانت السماء مثقلة، رصاصية. وفي هذه اللحظة، كنت جدّ متعبة. نبر صوت آمي في السماعة بعيداً، ضعيفاً. لم أكن أميز ما كانت تقوله. أقفلت السماعة ومشيت باتجاه التّل إلى أنْ بلغت ڤيلا الأقْنثة. في الطابق الأول، كانت مصاريع النوافذ مغلقة، ولم يكن الكولونيل موجوداً ؛ لعلّه في طريقه إلى المصحّة أو أنه ذهب لشراء ما يأكله.

جلست على العتبة ونظرت إلى الطريق وأنا أنتظر عودته. أتذكّر، كان ذلك قبل أن نغادر نايتنكال وقبل حلول الصيف. كان الكولونيل قد ضرب لي موعداً عند باب المدرسة، وكان قد جاء ليأخذني في سيارته الجميلة الخضراء من طراز هيلمان. اقتادني إلى أ ن بلغنا التلال، فوق النّهر، ليطلعني على الزراعة المغطّاة التي اشتراها هناك. وقفنا أمام طريق من التّراب يصعد على قمّة أحد التلال. ووسط غابة من البلّوط القويّ، كان هناك منزل قديم مهدّم والزراعة المغطّاة التي اقتادني الكولونيل لزيارتها. كان يمشي وسط ورود الأنتريوم وكأنه جنرال يستعرض جنوده. وعلى السيقان المستقيمة لتلك النباتات كانت تظهر أكمام الأوراق في لون المرجان.

بقيتُ في الخلف حينما كان هو يفتش الزراعة المغطاة صحبة عليّ البستاني. كان يلمس الأرض ويفحص نظام تركيب الماء. وكان قد اخترع جهازاً كاملاً لكي تكون الورود في مناخ يشبه مناخها بإفريقيا الاستوائية. كان الماء يتساقط قطرة قطرة على صفائح من الحديد ملوّنة بالأسود ومحماة بأشعة الشمس، ويتبخّر داخل البلاستيك. كان الجوّ جدّ حارّ، وكانت هناك رائحة التّربة العضوية ورائحة العفن.

كان الكولونيل جدّ مستثار، فأخذ يديّ واقتادني إلى الأعلى حيث كانت هناك حظيرة بالقرب من منزل عليّ. وداخل الحظيرة كانت مئات الصّناديق جاهزة مع أوراق حريريّة للفّ ورود الأنتريوم. بل إن آمي كانت قد رسمت رقعاً صغيرة عليها عندليب وقد كتب فوقها بحروف حمراء علامة المصنع: نايتنكال.

كان الكولونيل يتكلم بحيوية وقد استعاد وجهه شبابه، فيما عيناه كانتا تلمعان. لقد نسي همومه، وقروضه، ونسي الحرب. كان يتكلّم عن سوق الورود الكبيرة في باريس. وورود الأنتريوم ستصل بعد ليلة تقضيها في طائرة الشّحن، وفي الغد تكون أكمامها الرّائعة منتشرةً في مجموع دكاكين العاصمة. وكان يفكر أيضاً في إنجلترا، وهولندا، وألمانيا. «ستكونين سفيرتي» . كان يقول ذلك متفكّهاً، لكني ربما كنت أصدق ما يقول. وفي الشهر الموالي، رحلنا عن نايتنكال إلى الأبد. والشيء الوحيد الذي حمله الكولونيل هو سيّارة هيلمان الخضراء. لقد بذل كلّ جهده حتى تسافر السيّارة معه على نفس الباخرة. لقد وضعوها داخل شبكة كبيرة تشبه تلك التي تشحن فيها الأبقار، وحملها صاري السفينة إلى ما فوق الجسر ثم أنزلها إلى عمق قاع السفينة. ورغم الرحيل، كنت مفتتنةً برؤية سيّارة الكولونيل تدخل إلى جوف الباخرة.

في نهاية الأمر، ذهبت إلى العيادة. كانت آمي تقتسم غرفة صغيرة مع امرأة إيطالية عجوز. جدّ ناعمة. كانت آمي شاحبة وشعرها مقصوص جدّ قصير، وكان شكل جمجمتها يتراءى للبصر. كانت قد نحفت لدرجة أنها كانت تشبه قامة فتاة صغيرة. كنت لم أرها منذ عدّة شهور، وهذا أثرّ فيّ. كانت تتكلّم بصوت ضعيف، يكاد لا يبين. وعلى الطاولة ، كان

هناك باقة ورد حملها الكولونيل. كان الكولونيل منحنياً على سرير زوجته ويمسك بيدها كأنّما يودعها. كانَ متردّداً، كل شيء يمكن أن يتكسر داخله في كل لحظة. وكانت آمي تنظر إليّ بعينيها المحمومتين، وربما كانت تنتظر أن أتحدث عن نفسي، وعن حياتي. أو لعلّها كانت تريد فقط أن تسمع نبرة صوتي. حاولت أنْ أتكلّم عن نايتنتكال وعن كل تلك الأشياء. عن البيت وعن حقول القمح وعن التلال والبحر. وكان الكولونيل وآمي ينظران إليّ. كنت أعلم أنهما سينساقان وأنّهما سينسيان الحاضر. وكان يحزُّ في نفسي أن أخدعهما بمثل تلك السهولة. كانا عجوزين وفي منتهى اللّطف والمسالمة. وكنت معهما هناك في تلك الغرفة وأنا أعيش حياة أخرى، إذ كنت أتوه عبر الأزقة إلى أن يحلّ اللّيل، وأتجوّل رفقة رجل متزوّج، وأكتب بنفسي رسائل اعتذار عن تغيّبي إلى المدرسة مخترعة اسماً لأمي. حقاً لم يكن قد بقي شيء من البنت الصغيرة التي كنتها ولا من حياتي القديمة. كان الأمر كما لو أنني أصبحت، فجأة، يتيمة. وعندما سألتني مورغانَ أين يوجد والداي قلت لها: «أمي ماتت، وأبي رحل قبل ولادتي ولم أعرفه قطّ». فقالت لي: «إذا شئت، يمكنني أن أتبناك.» وقد أضحكها ذلك لأنها كانت جدّ شابّة، لكن لعلها فكّرت حقيقة في الأمر، وربّما كنت أحبُّ فعلاً أن تتبنّاني.

بعد ذلك، تظاهرتُ بأن لديّ موعداً هامّاً يتعلق بدروسي أو بأي شيء آخر. فقال الكولونيل «سأرافقك» فقلت لا، أفضل أن أعود بالحافلة، وأن من الأفضل أنْ يظلّ إلى جانب زوجته. ظلّ واقفاً وهو متردّد وذراعاه متباعدتان. قبّلت آمي والكولونيل وخرجت وأنا أجري. لم أكن أريد أن يغيّر رأيه ليرافقني إلى المدينة في سيارته الخضراء. لم أعد أطيق ذلك اللّون.

في الخارج، كانت هناك سحابة المساء أمام الشمس ؛ وكان الجوّ بارداً والريح تستثير الغبار. كان شيئاً حسناً أن أكون وحدي وأن أمشي وحيدة بدون أن يكون عليّ أن أزور أحداً. في اللّيل، أنصت إلى دقّات قلبي. أنتظر وعيناي مفتّحتان بدون أن أعرف ماذا أنتظر. كما لو كان هناك شيء مختبئ وهو على وشك أن يظهر. قديماً، كان كل شيء بسيطاً وسهلاً. كنت أنا هي «سابا»، وكان هذا هو الاسم الذي أطلق عليّ عند ولادتي، وكانت عائلتي هي السيد والسيدة هيرشيل. كنت أذهب إلى مدرسة «مهدية»، وكان هناك أبناء لجنود أمريكيين وفرنسيين وعرب. وكنا نتكلّم بأيّ لغة شئنا. لم يكن ذلك يهمّني كثيراً. ما كنت أحبّه هو تلك الدّار الكبيرة ذات القرميد الذي يحفُّ الأبواب والنوافذ وسط حقول الذّرة البيضاء والكروم، والحديقة الشاسعة المزروعة بالطماطم واللوبياء والخرشوف، ومن ورائها تماماً تبدأ الهضاب التي ينغرز فيها الشّوك ويتعالى هدير البحر.

هذا هو ما كنت أنتظره كل ليلة، هنا، داخل شقّة اللّوج. أنتظر أن يعود كل شيء إلى الوراء، إلى تلك السنوات الماضيات، إلى السماء الزرقاء الصافية والحقول، والبقعة الدكناء لغابة البلّوط والفلّين، وإلى خط الجبال عند الأفق. أن أعود إلى هواء الصباح حيث كانت تتراقص الذبابات الصغيرة، وإلى مصبّ النهر حيث تتطاير اليعاسيب والسمامات، وإلى حقول

النّبات اليابس تحوّم فوقه الزّنابير والنّخلات. وفي المساء، الطيور التي كانت تمرّ على امتداد الشاطئ والنوارس ،تحليقات الكروانات التي كانت تنبثق من مكامنها عندما كنت أجري عبر الحقول بصحبة «لاسي».

في هذه الغرفة بدون نافذة، أرى ضوء النهار الخافت الذي يهلّ ويملأ الحيّز الذي تنام فيه أمي. لقد تعبت من الانتظار. عما قريب سيرنّ المنبّه وستستيقظ أمي لإعداد القهوة. وسيتحتّم عليّ أن أستيقظ بدوري وسأخرج وأبدأ يوماً جديداً. وهذا هو ما يخيفني ومع ذلك أتمنىّ أن يكون كل ذلك قد تمّ، وأن يأتي ما يجب أنْ يأتي.

في نايتتنكال، عندما كان النهار يطلع كنت أخرج قبل الجميع. وكانتْ لاسي معي، وهي قد جاءت عندنا ذات يوم بدون أن نعرف من أين أتت. كانتْ كلبة سلوقية ترتدي فستاناً باجاً غير ملطخ، وأمي عثرت لها على هذا اللّقب (سلوقية) بسبب الأفلام التي شاهدناها في المركز الثقافي الأمريكي. في أول الأمر لم تكن لاسي تترك أحداً يقترب منها وعندما كنا نعطيها الأكل، كانت تنتظر أن نبتعد حتى تقترب من الصحن. كانت تأكل وأذناها مرتدّتان إلى الوراء بدون أن تكفّ عن مراقبتنا. وذات يوم، من غير أن أفهم لماذا، بقيتْ في مكانها عندما اقتربت منها. ربّت على رأسها بلطف وعلى امتداد أنفها فاستسلمتْ لي. قبّلتها وهمست لها باسمها في أذنها: «لاسيَ، لا سي...» وصرنا أفضل صديقتين في هذا العالم.

هذا هو ما أفكر فيه وأنا ممدّدة على السرير داخل شقّة اللّوح، مع دقّات قلبي وضوضاء الفجر في الأزقة والضوء الرمادي الذي يتسرب من نافذة الغرفة التي تنام فيها أمي. يخيّل إليّ أنه نفس اليوم الذي عشته، قديماً، في نايتتنكال. عما قليل سأخرج، سأصطاد البرد عبر حقول القمح. وسأوقظ السّمان والكروانات وستكون الكلبة ملتصقةً بي من الوراء وأذناها منتصبتان وعيناها لامعتان. إني أراها وأحس أنفاسها على ساقيّ العاريتين وأسمع الغمغمة اللاهثة لتنفّسها. وعند تجويفة من الأرض سأرتمي على التراب اللّين، الدافئ مثل الرّمل، وستكون لاسيَ معي، وسأحس الحياة في جسدها، وستعضعض يديّ.

عندما قرر الكولونيل هيرشيل أن يغادر مهدية بعد مذابح مدينة خنيفرة، في نهاية الصيف، لم يقل شيئاً. ذات يوم، أخذ لاسي إلى هيلمان آمب الخضراء. «ماذا سيفعل؟» سألت أمي، ولا شك أن صوتي كان غريباً لأنني خمنت ما كان ينويه. «لماذا الكولونيل يأخذ لاسي؟». لم تكن أمي تكذب أبداً. كانت مرهقة ؛ وكانت تبقى جالسة في الكرسي الذي يطوى أمام الباب وأظن أنها، لأول مرة، كذبت عليّ. تكلمتْ عن البيطري وعن التلقيح وعن أناس سيتبنّون لاسي، لم أعد أذكر. «ليس ما تقولينه صحيحاً، إنها ستموت! سيشكّونها حقْناً ليقتلوها! إنها ستموت، ستموت!» وانطلقت جارية عبر الحقول، عبر الهضاب. ذهبت بعيداً حتى بلغت النهر. كان الصّيادون يعودون حاملين قصباتهم ويجرّون المراكب على الشاطئ. وكان آخرون يقطعون النهر داخل زوارق ذات أشرعة مائلة وهم يتبعون أمواج المدّ والجزر.

طوال النهار، ركضتُ وسط الهضاب وعلى طول البحر وأمام الڤيلات الفارغة. ما أزال أتذكر ذلك اليوم. كانت السماء جدّ جميلة وجدّ صافية، والبحر في زرقة عميقة وعليه طبقات من الزبد تلمع. لم أكن أبكي. كنت أركض لكي لا أبكي. لم أكن أريد أن أحسّ بالفراغ. فيما بعد، لم أتحدث قط مع أحد عن لاسي. لم أكن أريد، بالأخص، أن يتحدثوا عنها. كانت لاسي قد خرجت من حياتي وإلى الأبد.

كان الليل، في شقة اللوج، مع ذلك جميلاً لأنه كانت توجد كل تلك الأصوات. تنفّس أمي في المخدع، الناس الذين كانوا يسيرون في الأزقة، وأنا أتمرّن لأتعرف على الخطوات: خطوات مستعجلة لأناس يعودون متأخرين من العمل، خطوات هاربة للعجائز، خطوات متسكّعة يجرّها المشرّدون والسكارى. وعندما لم يكن هناك حقاً ضجيج، كنت أسمع النحيب البعيد الصادر عن ينبوع السبيل في الساحة العمومية. أحياناً هناك، جهاز راديو يشتغل في الليل فكان له ضجيج من الموسيقى الإسبانية ثم سرعان ما يتوقف. وكانت هناك دقّات الساعات البطيئة الصادرةعن جرس الكنيسة، وفي الشتاء تكون الريح التي تهبّ في الميازيب، والمطر الذي ينزلق على السقف مثل ضوضاء البحر. كان شيئاً حسناً أن أجلس مفتحة العينين وأنصت إلى الضجيج، لأن ذلك كان ينقلني إلى الطرف الآخر من البحر، وإلى مهدية. كانت الذكريات تتمسّك بالليل، وكان ذلك قديماً، كان بالأمس، سيّان. عندما جاء السيد والسيدة هيرشيل ليسكنا بـ«لاروزري» ذلك الطابق في تلك الدار القديمة التي زال ملاطها قليلاً والواقعة على الهضبة، كان كل شيء صامتاً وفارغاً. لم تكن هناك ذكريات. وكانت الحياة قد توقّفت في اللحظة التي صعدا فيها إلى جسر باخرة «الكومندان كيرى» ليشاهدا ابتعاد المدينة البيضاء على شاطيء البحر.

في الليل، ينتابني شعور بأنْ لا شيء يمكنه أن يتغيّر، وبأن الزمان يتوقف ويطفو وسط الصمت. هنا، في شقة اللوج، أنا حقاً وحيدة ولا أحد يستطيع أن يقول لي ما يتحتّم عليّ أن أفعله. اسمي، وعمري، وأسرتي، ومدرستي الثانوية، وأصدقائي، كل ذلك أبتكره وأحسّني حرة في أن أصنع به ما أريد.

أتذكر تلك المرّة التي رحلتُ فيها خلال اللّيل. كان هو ذلك الصيف الذي تقرر خلاله كل شيء ؛ الصيف الذي كانت فيه الحصائد تحترق والمدن تشتغل والجنود يجوبون الشوارع والأزقة. أتذكر، لأن الهواء كان ما يزال طرياً في الليل والسماء ممتلئة نجوماً. كنت أريد أن أترصد النيازك، وكنت أريد أن أنصت إلى الجراد وهو يغني. كانت قشعريرة كهربائية تغمر كل جسدي ولم يكن بوسْعي أن أنام. كنت أسمع هبوب الريح بين أشجار الأثل. وصرير محرك الهواء عند نهاية الحقول، كنت أسمع أزيز الحشرات المستمر وهو يحدث صخباً ينتفخ ثم يتلاشى مثل موج البحر. وفي الأبعد، في مكان ما، بين الأشجار، كانت البومة

تصفّر بتواتر منتظم، مثل شخص ينادي.

كانت غرفتي جدّ كبيرة في نايتنكال. كانت هي غرفة الأكل من قبل. فعندما بلغت العاشرة، لم أعدْ أريد النّوم في نفس غرفة آمي وعندئذ وضعت سريري في تلك الغرفة. كان هناك بابان • نافذتان عاليتان، ومن خلل ألواح المصاريع كنت أبصر ضوء اللّيل. أبداً لم أرَ ضوءاً مثل ذاك، أبيض، لامعاً، كان يعلق شرارات على الجدران وعلى السقف. وكنت أظن أن تلك الشرارات هي ما كنت أستنشقه وهي التي كانت تتسرب إلى داخلي وتجعلني أرتعد. كان قلبي ينبض بسرعة وبقوّة، فوضعت كنزةً فوق قميص النوم وفتحت المصاريع وخرجت وسط الليل حافية القدمين. كان قلبي ينبض كأنني كنت مقبلةً على مواجهة أخطار.

مشيت وسط الحقول إلى أن بلغتُ النّهر. وفي لحظة ما، شعرت بالخوف لأنّ ظلاً كان يتجه نحوي. كانت الكلبة لاسي. لعلها فهمت لأنها لم تنبح. تبعتني وهي تنطنط منحرفة قليلاً عن الطريق كما كانت تفعل ؛ فأحسست بالاطمئنان معها.

مشيتُ عبر حقول الذرة البيضاء. أتذكر ضوضاء الصفائح وسط الريح، ولَوْنَ القمر الذي كان جميلاً ومستديراً. كانت أمي تقول إن القمر يكون كذلك عندما يكون هناك أطفال سيولدون. كان متلألئاً، لامعاً، حسناً، مع الريح الباردة التي تهبُّ على الأرض الباردة، والضوضاء الحادّة الصادرة عن الحشرات وخرير مياه النهر الذي يتّسع عند التّلال. كانت سيقان الذرة البيضاء أطول مني. وكنت أتقدم بدون أن أتبيّن طريقي، تقودني فقط، غريزتي. كان قلبي ينبض داخل صدري، داخل صدْغيَّ، وكنت أحس نوعاً من الدّوار. أبداً لم أفهم إلى أي حدّ هو جميل أن يكون الإنسان وحده وسط الحقول، وأن أسلك ممرّات كنت أبتكرها، وأن أختفي تحت الذّرة البيضاء. كانت هناك رائحة النباتات الحرّيفة، وكنت أُحسّ تحت قدمي مدَرَات الأرض الصّلبة والأوراق تقطع شفتيّ. وعندما كنت أرفع بصري، كنت أرى قمر الأطفال الّذين كانوا يولدون.

أفضَى بي المشيُ إلى التّلال، هناك حيث ترى مصب النهر، وعلى الجانب الآخر، بعيداً بعيداً، تلوح أضواء مهدية. كنت أسمع هدير البحر المنتظم. وعلى اليمين، الشّاخصات الإذاعية عند المصبّ، وبعيداً عن المدينة الغيمة الكبيرة البيضاء فوق القاعدة الأمريكية.

ما أزال أرى كل ذلك، الآن، داخل غرفة شقّة اللّوج، كما لو أنه حدث بالأمس، كما لو أن سنّي هي دائماً العاشرة. أحس برْدَ الليل، والضباب وحفنات الرّمل التي كانت الريح تقذف بها وجهي. كنت حرّة وكنت أختبئ في تجويفة التلال ومعي الكلبة المتمدّدة لصقي، وأنا أشم رائحة الأرض. كان العالم جدّ صامت وكانت النجوم تتلألأ ثم تختفي وسط الضبابة. وكان البدر المكتمل ينحدر من ورائي ويضيء غابة بلّوط الفلّين.

قبل الفجر، رجعتُ إلى نايتتنكال. كان عليّ أن أسير على امتداد التلال، وأن أخترق حقول الذرة البيضاء ومزارع اللوبياء والطماطم. كانت عجلة الساقية ماتزال متوقفة. وكان المحرك الهوائي يدور وسط الريح محدثاً ضوضاءه. وفي أكواخ الفلاحين كانت النار تلمع منذ زمن. في لحظة، وأنا أجري على الممرّ، سلخت إبهام رجلي عند اصطدامي بحجرة، وسرعان ما كوّن الدم والغبار خثارة حول ظفري. لم أعد أحسّ حتى بالألم. كان الدّيوك المبحوحو الصوت بين مزرعة وأخرى. وكان الكولونيل يردد دائماً سيأخذ غدّراته ويقتل هؤلاء الدّيوك الواحد بعد الآخر.

أنصت إلى الضجيج الصادر عن تنفّس أمي. هي أيضاً رحلت من بيتها، ذات ليلة، ولم تعد قط. ربما كانوا يريدون تزويجها قسراً، أو أنها انقادت إلى رجل عابر. غادرت قرية زايان، في الجبال، ومشت إلى أن بلغت البحر. كان أبوها محارباً، ابناً لموحا أو حمّو(★) العظيم الذي حارب الفرنسيين في مدينة خنيفرة. وعندما غادرت أمي الجبل كان لها نفس عمري، وكانت، منذ زمن، تحمل بذرتي في رحمها. سافرت وحيدة عبر جميع تلك المدن التي لم تكن تعرفها، واشتغلت في الفنادق وفي الأسواق. أما ذلك الشخص الذي كان هو أبي، فقد ركب الباخرة ورحل ليشتغل على الجانب الآخر من البحر، في فرنسا أو ربّما في ألمانيا. لكنه أبداً لم يعد. لعلّه مات بسقوطه من فوق إسقالة أو بسبب مرض. إنه لم يترك شيئاً وراءه، حتى صورته لم يتركها.

قالت لي أمي ذات يوم بأنها تلقّت رسالة مكتوبة بالفرنسية، وأن صاحب المطعم الذي كانت تشتغل فيه قرأها لها. وتقول الرسالة بأن أبي مات في مرسيليا. وبعد ذلك حضر أعمامي وعماتي الزيانيين من الجبل ليأخذوا أمي، لأنهم كانوا يريدون أن يجدوا لها زوجاً آخر، وأن يحتفظوا بي عندهم. وافقت أمي على ما قالوه، وذات ليلة هربت واختبأت داخل فندق إلى أن تعب إخوانها وأخواتها من البحث عنها وعادوا إلى الجبل. عندئذ، قررت أن ترحل أيضاً. وضعتني في علبة من الكارتون وسافرت مستعملة الشاحنة والحافلة الكبيرة. في الأسواق. كانت تجلس على الأرض والعلبة إلى جانبها، وكانت تنتظر أن يطعموها. وذات يوم، وصلت إلى نايتتنكال فوضعت الكارتونة على بلاط المطبخ وأخذت الأوراق النقدية من الكولونيل ثم رحلت.

كل ما سردته هو حكايتي، لكنني أستطيع، الآن، أن أفكر فيه وكأنه قد حدث حقّاً لشخص آخر، يمكنني أن أفكر في أبي المجهول الذي مات في مرسيليا في الوقت الذي كنت بدأت أعيش في خنيفرة. ويمكن أن أتصور أمي التي لم يكن عمرها سوى ستّ عشرة وكانت جدّ هشّة، لها عيون الظبية وشعر مضفور في جدائل، ومع ذلك كانت بالغة الجرأة والقوّة. ذات

(★) موحا أو حمو الزياني عيّنه السلطان الحسن الأول قائداً على قبائل زايان سنة ١٨٨٢. وفي سنة ١٩١٣، نظم موحا أو حمو صفوف زايان لصد الاحتلال الفرنسي عن خنيفرة وتادلة. وقد أنزل خسائر فادحة بقوات الجنرال ليوطي سنة ١٩١٤، ثم استشهد على صهوة جواده.

يوم، حدثني الكولونيل عنها، فهو عندما التقاها لأول مرة كانت تحمل تلك الطفلة الصغيرة جداً على وركها. وكان هناك شيء يربك نظرتها، شيء مثل الدموع. إنه ما يزال يراها دائماً تلك المرأة الشابة ذات الوجه الطفولي والمشية المتوحشة الواثقة، والطفلة الرضيع التي كانت تمسكها ملتصقة بها وهي تمصّ حليبها. الكولونيل الذي كان واسع الثراء، بالغ القوّة، والذي قاد الجنود خلال الحرب، يجد نفسه خاضعاً لشقاء وشباب أمي اللذين جعلاه خجولاً وبدون ثقل. ما أثار انفعاله، هو الجندي في الجيش الأمريكي، ذلك السرّ المعتم، الحريف، المنبعث من عيون تلك المرأة، سرّ شبيه ببلاد زايان، بجبال وغابات البلّوط القوي، وذلك الضوء القاسي في عينيها، وفظاظة الطفولة الموقوفة.

إنها تتنفّس ببطء، إلى جانبي، في المخدع. أفكر فيما فعلته بي. أفكر أنها كانت تتوه على الطرقات البيضاء المغبرة، أمام ظلها، فيما كنت مضغوطة على وركها داخل ثنايا فستانها، أمصّ حليب صدرها. أفكر أنها تركتني في منزل آل هيرشيل، نائمة في علبة الكارتون، وأن آمي قد حملتني ووضعتني بعناية فوق السرير الأبيض الذي أعدته بالقرب من سريرها، داخل الغرفة. أفكر في الأوراق المالية الملفوفة والمربوطة بخيط مطّاط التي خبأتها في أجزاء من فستانها المضغوط بحزام، بين نهديها. أفكر في الطريق الفارغة أمامها، ولم يكن أحد ينتظرها ولا أحد يحبها. أفكر في الباخرة التي ركبتها لتذهب إلى مرسيليا، وفي الجسر الأدنى الممتلئ بالمهاجرين، وفي السفر عبر تلك البلاد المجهولة حيث لم يكن أحد يتكلم لغتها، وحيث لم يكن أحد يشبهها. أفكر في الأمكنة التي عاشت فيها بمرسيليا وألمانيا وهامبورغ، وفي العمل، وفي الماء الذي يشقّق الأيدي وفي الأوراش حيث تخترق العيون. وربما كانت قد لفّت الأوراق النقدية بخيط مطّاط وخبأتها في غرفتها، داخل كارتون للأحذية مثلما لا تزال تفعل الآن؟ أفكر فيما فعلته بي، عندما تجرأت على أن تأخذني إلى الطبيبة هافين، وتوجب عليّ أن أتمدّد فوق تلك المحفّة وأتحمل اليدين المغلفتين بالقفاز لتلك المرأة وهيأتها الغريبة عندما كانت تطرح أسئلتها القذرة، وعندما قالت: «لا يظهر عليها شيء من ذلك.» أحسّ ثقلاً على صدري. أتمنى لو أني أصير إلى ماكنت عليه من قبل في نايتتنكال، مع الكلبة لاسي، وأن أجري في الليل البارد وأن أسمع خشخشة الحشرات. لقد كنت حرة مثل البحر، مثل الريح. وكنت أظنّ أن لاشيء يمكنه أن يصيبني. كنت أظنّ أنني لن أكبر قط وأنني لن أكون أبداً امرأة بنهدين، ولها كل تلك المشدّات وحاملات النّهود وأحمر الشفايف وتلك الرموش المزيّفة وبودرة الوجنات. كنت أريد أن أحتفظ بجسدي أملس، صلباً، وأن أستطيع الجري والقفز والسباحة، وأن أختبئ وأختفي. كنت أريد أن يكون لي دائماً وجه مثل وجوه الأطفال، ذو جبين يشبه حجرة ملساء، وعينان ليس لهما فراغ ولا تبدوان كأنهما تنظران من خلال ثقوب قناع. إنها غريبة العيون. هي مثل نوافذ، وعندما تنظر من خلالها فذلك معناه أنها فارغة. العيون التي أحبها هي الملساء، الصارمة، تكون شبيهة بالقطرات.

أتذكر الآن، وهذا يحرقني، يؤلمني في أعماقي، كما لو أنّ شيئاً يريد أن يتغيّر، وكما لو أن أحداً يريد أن يظهر. عندما جئت لأعيش هنا، في اللّوج، مع أمي، كان الشتاء في بدايته منذ ستة أشهر تقريباً، ويبدو وكأنما الفترة تساوي ستة أعوام. ذات ليلة، بدأت أشعر بمغص في بطني. كنت أتألم لدرجة أنني كنت ألوي الساقين وأعضّ يدي حتى لا أتأوه؛ وبالأخص لم أكن أريد أن تسمعني أمي فتأتي. لم أكن أفهم ما كان يحدث في داخلي. شيء ما كان يتغير فيّ، وكان الدم يسيل ويغمر فخديّ ويلطخ غطاء السرير. ما من أحد قال لي شيئاً أبداً. لم تكن آمي تتحدث عن أشياء النساء، كانت تقول بأن هناك أشياء يتحتم على الأطفال ألاّ يعرفوها، هناك كلمات عليهم ألاّ يتلفظوا بها. ورغم الألم وقفت لأذهب إلى المرحاض. كنت أريد أن أغتسل وأن أنظف غطاء السرير وقميصي. استيقظت أمي ورأت الدّم. خجلت. «اذهبي فأنا مريضة» كان صوتي ضعيفاً. ساعدتني أمي على الإغتسال وحملت لي ملابس داخلية وقميصاً نظيفاً. كنت في منتهي التّعب والمرض، فجلست علي سريري داخل المخدع وركبتاي مستندتان إلي ذقني. أغلت أمي الماء لإعداد الشاي ورمت أوراق النّعناع المرّ. شربت الشاي ساخناً فهدأ وجعي قليلاً. «الآن، تعرفينَ ما معنى امرأة.» كانت أمي تحدثني بهدوء، وكانت تلاطف شعري، وكنت أحس يدها الدافئة على قفاي. أبداً لم تكلّمني بمثل هذه الطريقة. كانت تحدثني عن القمر الذي يضبط النساء وعن الدم الذي يسيل لكي يكون كلُّ شيء جديداً في أجسادهنّ، ولكي يتمكّن الأطفال من أن يولدوا وينموا. كان كلاهما يخيفني، أتذكّر الان، كانَ يخيفني وفي نفس الوقت كان يذهلني. كان هناك شيء آخر بأعماقي، وكنت قد صرت شخصاً آخر. فكرت لو أنني بقيت عند السيدة هيرشيل لما حدث لي شيء من هذا. كنت أنصت إلي تلك الحكايات عن القمر والدّم وإلي حكايات الأطفال الذين يكبرون داخل البَطْن. لم أكن أريد أن أبكي ولا أن أتأوّه، فكنت أضغط جبهتي على ركبتيّ. القمر، كان هو قمر مهدية عندما كان يصعد بكل جماله إلى السماء المخمليّة فيما التّلال وسنابل الذرة البيضاء تتلألأ. لم يكن القمر بحاجة إلى دم النّساء.

بعد ذلك، مرضتُ وحدثتْ قصة الأوراق النقدية الجديدة الموضوعة على طاولة المطبخ وعلبة الكارتون التي وضعت فيها فوق البلاط. لم أعد أحتمل كل ذلك، ولا ذلك الشيء الذي كان يريد أن ينمو بأعماقي ويريدني أن أتغير.

عندما أهلّ الربيع، كانت حقاً هي المرّة الأولى التي أحس به، لأنني كنتُ قد تغيرتُ؛ كنت إنسانةً أخرى.

الآن أعرف ذلك جيداً. سأرحل. سأنطلق على طرقات الغبار، مثل أمي، عندما تبعتْ أبي وغادرت بلاد زايان إلى الأبد. أنا أيضاً سأمشي أمام ظلي. والآن وأنا أعرف ذلك، فإن قلبي ينبض بقوة، وأحس بتنمل في الساقين. مثل أيام زمان. سأخرج وسيكون الليل في الخلاء

متلألئاً. سيكون هناك البدر مكتملاً، لا القمر الذي يسيل دم النساء بل قمر حرّ ومدوّر، أملس مثل وجه الأطفال. سأجري عكس الريح، وسأذهب إلى مدن أخرى، وربما إلى أن أبلغ باريس أو هامبورغ. ربما سألتقي بالرجل الذي يكون زوجي ؛ يخيّل إليّ أنني أراه يمشي على الطريق، طويلاً ومكتئباً مثل أبي. ومعه سأذهب إلى آخر نقطة في العالم. أنا حرة، أنا جديدة. أنا إنسانة أخرى. لم أعد أستطيع الانتظار.

❖

كنت في الشارع. لم أكن أعرف إلى أين أتّجه. كما في الحلم، كنت أسمع وَقْعَ خطواتي. كنت أسمع محركات السيارات. كان ذلك بعيداً، كان شخص آخر هو الذي يمشي. وربما كان ذلك بسبب ما تغيّر داخلي، بسبب ما كان جديداً.

في الثامنة صباحاً، كانت السيارات تجري على أخاديد الشوارع والأزقّة. كان الناس متعجلين. وعندما خرجتْ أمي لتذهب إلى ورشة الأطلس، أردت أن أقول لها بأنني لن أعود، لا هذا المساء ولا في أيّ وقت آخر، وبأنني انقطعت عن الذهاب إلى الليسيه منذ أشهر وبأنني لن أتردّد عليه قط ولن أذهب إلى أي مكان. لكنني لم أجرؤ. أنا لا أخافها ولكنني لا أعرف ما هي قادرة على فعله. تستطيع أن تسجنني كما فعلت ذات مرة، بسبب ابن مدام تروشي. لذلك لم أقل لها شيئاً. وضعت المفتاح حول عنقي بطريقة آلية. عقد غريب. ذات يوم رأت مورغان الشريط الرفيع حول عنقي فجذبته: «أي شيء تضعينه هنا؟ هل هو حجاب؟» وعندما رأته ضحكت: «آه، كلاً، إنّه مفتاح! شيء يناسب فتاة مؤدّبة، فالمفتاح حول العنق لكي لا تضيعي!»

للأشجار أوراق متضامّة ذات لون أخضر معتم. أشجار الكستناء، والتوت وأشجار الحبض. هناك رائحة الطلع والنحل منتش والذبابات الصغيرة ترقص في هواء الصباح. يخيّل إليّ أن هذه أول مرة أوجد فيها خارج الشقة منذ أمد طويل. يخيّل إليّ أنني، أخيراً، حرة بعد فصل الشتاء. كما لو أنني نمت. الضوء يشعل الأشياء. أبداً لم أرَ على هذا النحو الأغطية الزرقاء للشاحنات، والبلاستيك الأصفر، والخطوط المرسومة على الطرق المعبّدة، وسياجات الحدائق، وزجاج النوافذ. هناك شرارات على الواجهات المعدنية للسيارات وعلى الرافدات الصغيرة وعلى صفائح الزنك للسقوف.

أمشي على غير هدى. عندما نرحل لكي لا نعود، فإنّ أبسط رُكْن يكتسب أهمية جديدة ،كذلك كل ثانية تمرّ وكلّ وجه. أمشي على امتداد هياكل السيارات. أخذت معي معطفي الأحمر وبنطلون القطيفة الأسود والصندل الصيني. الشيء الوحيد الذي له قيمة من بين ما أخذته معي الشنف في شكل هلالين من ذهب. أمي هي التي أعطتهما لي في عيد

ميلادي ؛ وكانا في ملك أمّها وقبل ذلك في ملك جدّتها. إنهما حقاً قرطان من زيّان. إنهما دقيقا الصنع، خفيفان مثل النّجارة، ولهما خيط من ذهب ليعلّقا في الأذنين. وضعتهما في منديل داخل جيب بنطلوني حتى لا تراهما أمي. ما كان بوسعي أن أتركهما، إنهما الشي الوحيد الذي أملكه حقاً والذي وهب لي عندما ولدت والذي صاحب مجموع تاريخي. إنهما ليسا شيئاً أعطي لي فيما بعد، وليسا شيئاً معاراً. هما جاءا قبلي، مثل اسمي.

هناك ناس كثيرون، منذ برهة، في الشوارع. ضوء الصيف يعشيني. ذهبت نحو الأزقة التي تمتدُّ على البحر وتفرّجت على واجهات المتاجر: الأحذية، الساعات، حقائب اليد، سجّادات، حلويات. لديّ نقود قليلة، أوراق مالية ملفوفة داخل جيب بنطلوني. أنا أيضاً ألفّ الأوراق المالية! عندما أشتري شيئا أخرج اللّفة وأسلّ ورقة منها. الباعة لا يحبّون كثيراً هذه الطريقة، يفحصون الورقة النقدية من خلال شفافيتها ويجذبونها من فوق ليمسدوها.

إنها ليست نقود أمي، بل هي نقود كسبتها باشتغالي مرافقة للأطفال عند أناس دلّتني عليهم صديقتي مورغان. اشتغلت عند امرأة شقراء، بائعة عطور، اسمها كيتي ابنها في الثانية عشرة من عمره ويدعى ميرسيال. إنه فظيع.

كانت بائعة العطور تعاملني كأنني خادمة. كانت تتظاهر بأنها لا تتذكّر اسمي: «أريا، اعطيني كأس ماء. أريا، قرّبي التليفون» لكن ذلك لم يكن ليضيرني في شيء. جيّد أن نربح النقود. كانت بائعة العطور تسكن، غير بعيد من السيد هيرشيل وزوجته فوق قمّة الهضبة، في شقة كبيرة، عصرية، ذات منظر يشرف على المدينة والبحر. ربما أتلفن لها لأعرف ما إذا كنت أستطيع العودة لأشتغل عندها. سيّان عندي أن تناديني سبا، أريا أو زهرة، أو أي اسم آخر.

ذهبت إلى مقهى العميان. لعلّي لا أريد، حقيقة، أن ألتقي ومورغان، لكن يحلو لي أن أقعد في سطح المقهى تحت الشمس. معي حقيبتي «حريّة» وبداخلها أغراضي. مورغان هي التي أعطتني الحقيبة. قلت لها اسمي الصغير «ليبي» الذي أطلقته عليّ آمي، وعندئذ دلّتني على ما كان مكتوباً على سلسلة الإقفال «ليبرتي» (حرية): «ترين أنها كانت لك».

المقهى حسن، وهناك أناس طوال الوقت. النّادل لطيف، يدعى راؤول إنه شاب أسمر، طويل، له إكليل من الشعر. عندما أصل إلى المقهى يخفُّ إلى استقبالي ويأتيني بقهوة سوداء. لا أحتاج أن أطلبها منه. داخل حقيبتي «حرية» توجد فرشاة ومعجون للأسنان (أحبُّ كثيراً أن أنظف أسناني، فأنا مهووسة). توجد بها أيضاً فرشاة للشعر ومشط من البلاستيك الأزرق، وغلاف أصبع الحمرة (لا أضعه قطُّ فوق شفتيّ)، وأحمر قرمزيّ للأظافر (حتى يناسب لون معطفي). وهناك أيضاً قميص بدون أكمام وسليبات للغيار. نظّارة سوداء وعلبة سجائر أمريكية (لكنني لا أدخّن) وولاّعة ترمى بعد الإستنفاد مع كنّاش من الورق المؤطّر ؛ وفي قاع الحقيبة هناك ثلاثة أو أربع أقلام حبر ناشف مختلطة وبها أيضاً كتاب باللغة البرتغالية أعارتني إياه

مورغان، عنوانه A sibila للكاتب أوغستينا بيسا لويس. كنتُ أريد أن اخذ معي كتاباً لي، لكن الوحيد الذي وجدته هو دليل المغرب الأزرق المنشور سنة ١٩٢٥، والذي كان يملكه الكولونيل. وعندما رحلت عن المغرب حملته معي. أحبُّ كثيراً الرسم الموجود على غلاف الدليل: قاطرة وسيارة عتيقة وتحتهما بحروف مذهبة: «السكّة الحديدية والطريق».

في كل مرّة أحس فيها أنني ضائعة قليلاً آخذ الدّليل الأزرق وأفتحه كيفما اتّفق وأقرأ أوصاف المدن، والآثار، ومسارات الطُّرق. أتأمل الخرائط. فكأنني أعرف محتوياتها بدون أن أعرفها، كأنني زرتها في الحِلم خلال حياة أخرى، هناك أيضاً كتاب كنت أحبُّ أن آتي به غير أنني لم أجرؤ. إنه طبعة قديمة من كتاب «بدون عائلة» كان في ملك السيدة هيرشيل، وأنا أحبه كثيراً. أتذكّر أنها أعطته لي، ذات يوم، قبل أن نرحل عن نايتَنكال لأنها كانت تعلم أنني أحبّه كثيراً. وأظن أن لا شيء، أبداً، أدخل على نفسي مثل تلك المسرّة، لأنه كان كتابها ولأنها أعطته لي بكل ما يشتمل عليه، تلك الصور التي طالما تفرّجت عليها: ريمي وهو يعزف على القيثارة، كابي والجنرال جولي كور، ڤيستاليس وريمي وهما يسيران فوق الثلج وسط غابة الذئاب، والكلمات، خاصة العبارة الأولى من الكتاب التي كانت ترعش جسدي: «أنا طفل لقيط». كانت تلك الكلمات هي التي ترنُّ بأعماقي لأنني سأعلم فيما بعد أنني أيضاً كنت طفلة لقيطة وأنني كنت أرتعش كما لو أنني خمنت، في الكتاب، قصتي الخاصة وأن ريمي كان هو أخي.

انتظرت طويلاً بمقهى «العميان»، لكن مورغان لم تأت. عندئذ عاودتُ السّير. في الثانية عشرة ظهراً كان المارّة يعجلون الخطو في الشارع الكبير. كان هناك تلاميذ اللّيسيه، فوضعت نظارتي السوداء حتى لا يتعرّف عليّ أحد. عند أحد أركان الباب، كان غجري يلعب على القيثارة ويغني بالإسبانية لطفلة صغيرة كانت تستمع إليه وهي تمصّ حلْواها. كان ذلك حسناً، فزايلني القلق ونفاد الصّبر. أحسستُ بداخلي سعادة، ربما بسبب الغجري وقيثارته، أو لأنه كان هناك عاشقان يسيران بدون أن يبصرا أحداً، أو ربما بسبب امرأة عجوز تنتعل حذاءً غريباً للتّنيس وتجتاز الشارع الكبير من غير أن تهتّم بالسيارات.

كنتُ أفكر بأنني حرّة في أن أتوجّه إلى حيث شئت، وفي أن أرحل بدون أن أعود أبداً. إنه حقاً، إحساس عجيب: لا شيء يمكنه أن يبقيك، ترحل وكلّ ما حولك، هذه المدينة، تلك الشوارع، هؤلاء الناس، كلّهم سيكفّون عن الوجود. هناك مدنٌ أخرى: بروكسيل أو روما، أو لندن، مثلاً . وهناك أناس آخرون وعيون أخرى، وكلام آخر.

أتذكّر ساعة وصولي إلى هنا، عندما غادر السيد هيرشيل وزوجته مدينة مهدية، وعندما دخلت الباخرة «الكومندان كيري» إلى ميناء مارسيليا. لا أتذكر جيداً المدن التي مررنا بها من قبل، طنجة، وهران... أتذكّر فقط خط الشاطئ الممتد وذلك الشريط الرمادي عند الفجر

وصيحات النّوارس. كانت آمي ماتزال تنام داخل القَمْرية فقد مرضتْ طوال اللّيل. واستيقظت أنا فوق جسر الباخرة وثيابي مبلّلة بالرّذاذ. وكان الكولونيل قد التحق بي، وهو أصفر الوجه متعوب ؛ ففكرت، لأول مرة، بأنه كان عجوزاً.

نظرت أنا والكولونيل إلى الشاطئ الرمادي وإلى مدخل الميناء وإلى الجبال الطباشيرية. كان حلقي مشدوداً لأننا وصلنا، وكنت أعلم أنّه يتوجب عليّ أن ألتقي تلك المدينة وهؤلاء الناس وأن أصنع لنفسي مكاناً. في الوقت نفسه كنت أحس بما يشبه الحمّي، وكان قلبي ينبض بسرعة، فلعلّي كنت سأعثر على سرّ أوْ على كنز.

❖

طيّب، لقد ذهبت إلى الحديقة الشهيرة الصغيرة المستندة إلى البحر. كنتُ أُحبُّ تلك الحديقة ؛ وفي غالب الأحيان لا يكون بها أحد سوى بعض الشيوخ الذين يثرثرون تحت الشمس. كنت أجلس من جهة سياج نباتات التّزيين، محتميةً من الريح، هناك حيث جلستُ أول مرة مع كرين.

يسكن كرين في العمارة الكبيرة البيضاء، عند الجانب الآخر للحديقة. ومن المكان الذي كنت جالسة فيه، أستطيع مراقبة شرفة شقّته ونوافذ غرفة الجلوس. أحياناً، ينزل كرين إلى الحديقة صحبة زوجته وابنه فيما بين الثانية عشرة والثانية زوالاً. زوجته. طويلة وجميلة، لها شعر أشقر، حريريّ، يلمع تحت الشمس. وهي ترتدي معاطف من الفرو، فرو الثعلب والذئب، أو شيء قميء مثل هذا. قلت ذات يوم لكرين «كيف يمكنها أن ترتدي جلودَ الحيوانات ؟»، فرفع كتفيه لأنه لا يبالي بالأمر، إنه لايحب أن أحدثه عن زوجته أحيانا يأتي وحيداً إلى الحديقة ومعه كتاب. يجلس على مقعد وينتظر أن أذهب إليه لأكلمه. تلحق به زوجته ويتحتّم عليّ أن أنصرفَ، ابنه يسمى ميكي. جميل وله شعر أسود كثيف جدّ مجعدٌ، وعينان تضحكان باستمرار.

أمكثُ هناك، في ظل نباتات التزيين وأنظر إليهم. إنه، غالباً لا يراني، لكن زوجته تتعرّف عليّ. لها نظرة غريبة، سريعة وشرسة. كأن نظرتها تقول: «لقد رأيتك.» أقفُ لأنه يتوجب عليّ أن أذهب. أسير وكأن الأمر لا يهمّني، وكأنني غير خائفة. لكن ساقيَ لا تقويان على حملي والطّنين يملأ أذني. قلبي ينبض بسرعة مفرطة، وأفكاري تتدافع. أظن أنني غبية وأنني لا أنال سوى ما أستحق. أظن أنها المرة الأخيرة التي آتي فيها إلى الحديقة وأنني لن أرى أبداً ذلك الرجل ؛ ثم بعد ذلك بسرعة أفكر أنني حرة في أن أذهب حيث شئت وفي أن أتكلم مع من أريد. لا شيء، حقاً، له أهميّة. يظهر لي، في العمق، من غير المعقول أن تكون تلك المرأة غيورةً وهي الجميلة جداً ذات الشعر الجميل.

ذات يوم، أخذني كرين على دراجته النّارية إلى الطريق الكبير الممتدّة على البحر. كان فصل الشتاء لم ينته بعد، لأن الطقس كان بارداً، والأمواج تتدحرج على الحصى. بقينا طوال بعد الظهر في الشاطئ ونحن محتميان وراء القوارب الراسية عند الرمل. ثم ذهبنا، بعد ذلك، إلىَ فندق صغير، أمام البحر مباشرة. كان شيئاً غريباً، لأنها أوّل مرّة أذهب فيها إلى غرفة فندق، صحبةَ أحد. ولم يكن ذلك حقيقة تماماً.

بقينا، خلال نهاية بعد الظهر جالسيْن على الفراش بدون أن نفعل شيئاً غير الكلام. كان هناك هدير البحر الذي يصلنا عبر النافذة. وكان كرين يحدثني عن أسفاره إلى الطّرف الآخر من العالم، في الهند وأندونيسيا. كان يريد أن يكون مستطلعاً صحفياً كبيراً، وأن يذهب إلى البلدان التي تجري فيها أحداث فظيعة تستحقّ أنْ تكشَف للعالم. مثل الحرب في الجزائر، والهند الصينية، واستعباد الهنود في أمريكا الجنوبية. هذا ما كان يريد أن ينجزه وليس الاهتمام بالكلاب المدهوسة. كان يقول بأن باستطاعتي أن أسافر معه وأن نخترق الصحراء. وفي لحظة معينة نظر إليّ وقال: «سبَا، أنت جميلة وبي رغبة في أن أرسمك بحريّة». قلت له بأن رغبته في محلّها لأنها توافق معنى اسميَ «ليبي». لا أعرف كيف حدث ذلك، فقد شرع في تقبيلي، فوق الذّراع ثم على الفم. وربما كان يعرف ما كان يفعله ؛ فقد كان يبدو متعوّداً على ذلك، بخلافَ ما كان عليه لوسيان. شيء غريب، فأنا لم أكن أعرف أن الأمر كان يجَب أن يمرّ هكذا، ولم أفكر فيه مطلقاً عندما جئت معه إلى هذه الغرفة في الفندق.

عند المساء، أغْفَى. بقي ممْدوداً على ظهره ورأسه مُسْتندٌ عليّ. كان شَعْر ذقْنه قد نبت على وجنتيه ويبدو متعباً. كنت أفكر في زوجته وابنه اللّذين كانَا ينتظرانه في العمارةَ البيضاء حذاء الحديقة الصغيرة. كنت أفكر بأنّه سيختلق شيئاً ما ليفسر تأخّره. لعلّه سيحدثهما عن عمله، أو عن دراجته النارية التي تعطّلت. ولعل زوجته لن تصدّقه. في كل الأحوال، لم يكن لذلك من أهمية.

كان لديّ مذَاقٌ غريب في فمي. نهضتُ لأستحم وأُنظف أسناني. عندما وقفت، أرسل صرخةً غريبة، استيقظ وكان يناديني: «سبا؟ سبا؟ أين أنت؟» لم أكن أريد أن أجيبه. كان له صوت جدّ حادّ، ثم إنني خرجت من الحمّام وقلت له: «ماذا ألم بك؟» ارتدى ثيابه على عجل وقال: «عَليّ أن أذهب». قلت له: «ابق معي خمس دقائق أخرى، وبعد ذلك ستذهب إلى حيث تشاء». كنت أحس الوحدة. كان وضعاً غبياً، فقد كنت أعرف بالضبط ما كان يحدث لي، ومع ذلك لم أكن أستطيع أن أغيّر منه شيئاً لم أرد أن أطلب منه شيئاً، ولم أكن أريد أن أكلّمه عن زوجته وعن ابنه. دخنا سيجارتين. كنت أنا أتظاهر بالتّدخين إذ لم أكن أبلع الدخانَ فذلك أمر يقززني. وهو كان يتظاهر وكأنه لا يفكر في شيء، لكنني كنت أحس جيداً أنه ينتظر اللحظة التي ينصرف فيها. ارتديت ملابسي، أنا الأخرى، على عجل. «هيا، لنذهب، الآن».

كان يحاول أن يقبلني «هيا، استعدّي، علينا أن نعود، الآن». وفي آخر الأمر ذهبنا

خلال بضع ثوان. مررنا أمام استقبال الفندق بدون أن نقول إلى اللقاء. تعثرت الدراجة النارية «تيرو» في الانطلاق بسبب وصلة المغلاق. وبعد ذلك انطلقنا بأقصى سرعة على الطريق. كان الليل قد خيّم.

❖

في هذه المدينة، ما بين الثانية عشرة والثانية زوالاً، الناس يأكلون. إنه لغريب كم إنهم يأكلون. لو قلنا لهم بأن منتصف النهار هو عند الساعة الثانية زوالاً، لأكلوا ما بين الثانية والثالثة. أمشي في الشوارع الفارغة. ما من أحد هناك. السيارات مصفوفة على امتداد الأرصفة (وأحياناً فوقها). هناك فقط بعض العجائز وبعض الحمائم. اثنان أو ثلاثة من الحثالة الفاشلين الذين فقدوا الإحساس بالزمن. أمشي وأنا أدندن بكلّ ما يمرّ برأسي «بطاطة واحدة، بطاطتان» وأغنية كيرشوين: Wadoo Wadoo, Zimbanbaddedoo Zimbanbaddledoo, Bee Bee Bee, Bee Bee Bee, Scatty wy, satty wy yeah!

ولأنني لم أكن أعرف أين أذهب، فقد ذهبت إلى شاطئ البحر، على الرّمل. جلست متكئة على جدار ساند، بمنجى من الريح، لأحاول أن أدخن مرة أخرى واحدة من تلك السجائر الأمريكية الشهيرة. لا أحب دخان السجائر عندما أكون في مكان مغلق. ما أحبّ، هو أن أرى الدخان يتزوبع وسط الريح، تحت الشمس. وبما أنني، عملياً، لم آكل شيئاً منذ الأمس، فإن السيجارة دوّختني. عندما أغلق العينين، يبدو لي كأن الأرض تهوي إلى وراء والأفق ينتصب مثل جدار. إنه إحساس غريب غير منفّر، في الحقيقة. أحبّ كثيراً أن أفكر في البحر وكأنه جدار، وأن أفكر في كل ما يوجد وراءه.

هناك، مع ذلك، أشخاص يتمشّون على هذا الشاطئ. إنهم يتخلّعون في مشيتهم، يتعثرون على الأحجار الصغيرة ويشبهون الطيور المائية الطويلة الساق. هناك أيضاً صيادون لا يتحركون وصعاليك ينامون. الآن عادت ضوضاء السيارات من جديد لتملأ الشوارع. انتهى الناس من الأكل. وفي المدارس، التلاميذ يجلسون على مقاعدهم ويستمعون إلى الأساتذة يتكلمون. لو فكرنا في هذا، لوجدناه أيضاً أمراً غريباً، كل هؤلاء الناس الجالسين في كل مكان. جالسون ليستمعوا، جالسون ليأكلوا، ليكتبوا، ليسوقوا السيارات. ما أحبه أنا، فضلاً عن المشي، هو أن أكون ممددة. أظنّ أن أمّي أيضاً لا تحبّ أن تكون جالسة. كانت تمشي على طرق ممتلئة بالغبار، مثل أبي، وكانت تمشي أمام ظلّه أو على الطرقات في ألمانيا، وهولندا، أو في شوارع باريس. عندما تعود أمي من معمل أطلس، ترتاد المخدع وتنام. وعندما غادر أبي أمي، سنة ولادتي، تحتّم عليه أن يتعاقد كبحار مع باخرة للصيد كانت تسافر على امتداد الشواطئ الإفريقية لاصطياد سرطانات البحر في موريتانيا. أنا متيقّنة من أن هذه الطريقة هي التي

جعلته يصل ذات يوم، إلى مرسيليا ثم يموت بها فيما بعد. لعله سقط من فوق إحدى العمارات السامقة التي تشبه أجرافاً رمادية على حافة الطُرق ؛ أو لعلّه طعن وهو يسير بشارع لاكانوبيير بسبب مسألة مالية، أو بسبب كلمة، أو بسبب لا شيء، فمات وهو مسجىً على الأرض بينما كان الناس يتحوّلون عن الطريق.

لأجل ذلك، فيما أظن، عزمتُ على الذهاب لأعرف مَنْ هو ذلك الرجل، ولأفعل مثله. قلت لأمي بدون أن أصرخ، بصوت صلب قلت لها: «لا أريد بعد أن يأتي». نظرت إليّ «مَنْ؟ عمّن تتحدثين؟». كانت تعلم ما أقصده. قلت: «جياني الإيطالي. لو عاد إلى هنا فإنني أنا التي سأرحل». غضبتْ. صرختْ بلكنتها الإفريقية التي تشوه كلّ شيء: «لو استمررتِ فإنني سأحبسك. سأضعك في إحدى الإصلاحيات».

لكن، في المساء، عندما عدتُ وأدرتُ المفتاح في القُفل، فهمتُ أن جْياني لن يأتي ثانية. اختفت أغراضه من الشقّة، الحقيبة الصغيرة بقماشها المقفص، وجهاز الراديو ترانزستور بهوائيته اختفى أيضاً. ترك ذلك في نفسي أثراً غريباً. كانت تلك هي المرة الأولى التي تفعل فيها شيئاً من أجلي.

عندما جاءتْ، كنت قد أعددتُ الأكل. كنتُ لطيفة معها فقبّلتها وسكبتُ الماء في كوبها. كنتُ أتكلم معها بانشراح كأننا كنّا صديقتين من زمن طويل. طرحت عليها بعض الأسئلة وحكيت لها ما فعلته خلال النهار، وحدثتها عن زميلاتي في الفصل وعن الأشياء البليدة التي كنّ يتلفّظْنَ بها. قلت لها بأنني عثرت على المرأة التي كانت محتاجة لي لأحرس ولدها في نهاية الأسبوع، وهي بائعة عطور لها لكنة غريبة، وتقول عنها مورغان إنها لبنانية. إلا أنني لم أحدثها عن مورغان، أعرف أنها لن تحبّها. لن تريد أن أراها وألتقي بها.

ما كنتُ أريده، هو أن أوجه لها أسئلة عن أبي. أن تحدثني عنه، وماذا كان اسمه، وكيف عرفته، وكيف رحلت معه. كان عمرها ستّ عشرة سنة، وعلى الفور كنت داخل بطنها. وعندما ولدت رحلت. لم يقل شيئاً ولم يكتب رسالة، ولم يبعث نقوداً. وبعد ذلك مات.

عدتُ إلى الحديقة الصغيرة التي تدير ظهرها إلى البحر. بطبيعة الحال، لم يكن كرين موجوداً بها. إنه يعمل في جريدته، ينجز ريبورتاجات. السحب تمرّ أمام الشمس والجو بارد وأنا أحسّني جدّ وحيدة. أفكر بأنني إذا متّ، أو إذا رحلت إلى بلجيكا، فإنه لاشيء سيتغير بالنسبة للآخرين. الكولونيل سيستمر في تحريك ذكرياته داخل الغرفة الكبيرة للدار المحاطة بنباتات الأقنثة، وستستمر آمي في حياتها داخل غرفة المصبحة إلى جانب السيدة العجوز الصمّاء. وستنام أمي في المخدع كل ليلة، بعد عملها بمصانع أطلس. ستضع دوما الغلاّية العتيقة المبعجّة على موقد الغاز الصغير لإعداد شايها المرّ. ربما يعود جياني إلى المجيء وسيحمل معه حقيبته الصغيرة ذات القماش، وجهاز الراديو الشهير بهوائيته، ليستمع إلى أمواج العالم

كلّه في الصباح خلال تناول القهوة. لا شيء سيتغير. ولا شيء سيتحرك. حتى السيدة سمانة ستستأنف حياتها داخل الشقة الصغيرة المعتمة في الطابق الأول، بدون أن ترى الشمس، وهي وديعة مستسلمة مثل ترغلّة داخل قفص. قد تكون هي الوحيدة التي ستفكر فيّ عندما لا أكون هنا. أتذكر كيف كانت سمانة تتكلم معي ببصرها فقط عندما كنت مريضة. بي رغبة قوية في أن أصعد الدّرج وأطرق بابها لأتملّى بوجهها مرةً أخرى.

لكن، فجأةً، لم أعد وحدي. إلى جانبي، على المقعد، هناك رجل مسنّ له شعر رمادي. بشرته غير واضحة تماماً، هي بالأحرى مدعوكة مثل الورق القديم، ثيابه مجعدة أيضاً. وضع جريدته على المقعد إلى جانبي. لمحت العناوين: «ميتسوكين، الأوراسيانية الحسناء» و«الإنسان انتصر على الفضاء!». أريد أن أفكر في شيء آخر. أحاول أن أكتب رسالة. تناولت من حقيبتي «حرية» دفتر الأدب الذي يدرّسنا حصته الآنسة ريسو، وانتزعت منه ورقة مزدوجة. لمن سأكتب؟ في البدء ظننت أنني سأكتب إلى مورغان، ثم بعد لحظة تبيّن لي أنني سأكتب إلى كرين. بل إنني كنت قد كتبت في مكان ما: «أنتم ترون يا سيّدي العزيز...». الآن لم أعد أعرف. على أنني أحس ببرد قوي يعوقني عن الكتابة. لا شك أن ذلك يعود إلى أنني لم آكل شيئاً منذ أمس، مجرد قهوة شربتها هذا الصباح. ثم إنه صار من الصعب أن أركز ذهني وإلى جانبي هذا الرجل الطيب الغريب الذي يتحرك ويسعل بدون توقّف.

دفع جريدته، وهو الآن جالس لصقي، أحس ساقه التي تلامس ساقي، ورائحته الواضحة هي الأخرى. أنظر إليه باندهاش وهو يميل وجهه قليلاً نحوي ؛ له عينان غريبتان،، فارغتان وحزينتان مثل عيني كلب. قال شيئاً ولم أفهم جيداً ما قاله. قلت: ماذا؟ ماذا تقول؟».

سمعت صوته يقول بخفوت وبنبرة مَنْ يقول نكتةً لا تلائم عينيْه: «يمكن أن نرقص باليه، باليه صغيراً بأربع عيونَ». طيب، هززت كتفيّ وانصرفت بدون أنْ أقول شيئاً. سمعت صوته يصرخ بأسماء، صوت خشن، منفّر، شرس: «ميزيي! كارمن! باميلا!»

لا شك أنه كان يتساءل عن البلد الذي أنتمي إليه!

اشتريت صحيفة من الكشك ودخلت إلى بار على شاطئ البحر لأستدفئ. إنه هادئ وفخم مثل المطعم الذي ذهبت إليه صحبة كرين. توجد بالبار كراسٍ طويلة من فرو الخلد، لونها أحمر رمّاني، وطاولات من المرمر ؛ وموسيقى للسائرين نياماً. لا بأس.

اشتريت الجريدة لأجل إعلانات الشغل. بسرعة، تبيّنتُ أنه لا يوجد عمل يناسبني. لا يطلبون سوى ضاربات على الآلة الكاتبة وسكرتيرات مزدوجات اللغة. أنا مزدوجة اللغة لكن بدون أوهام. هناك أيضاً إعلانات فارغة: فتاة شابة جميلة لاستعراضات الموضة، بلاستيك ممتاز، أو: رسام مشهور يبحث عن امرأة موديل في وضع عارٍ.

ربما أستطيع العودة للعمل كمرافقة لمارسيال، ابن بائعة العطور. إنه غير مفرط الشراسة. إنه قصير ونحيل، له شعر كثّ عصي، أشهب، متشابك ويقع من النمش على وجهه ومجموع جسده. أنفه رقيق، ضامر. له عينان جميلتان صفراوان محاطتان بالزرقة لأنه، فيما أظن، يستمني طوال الوقت. تحت فراشة توجد مجموعة من المجلات البورنوغرافية بل ومجلات أمريكية وألمانية. قال لي بأنه بدأ بدراسه الألمانية في السنة الإعدادية الأولى. إنها لغة جميلة فقد كان يقرأ لي وهو يفخم نطقه لما كان مكتوباً إلى جانب البورنغرافية. كل ذلك كان غريباً وكنا ننهي جلستنا بضحكات متواصلة.

وعندما كانت أمه تصل، كان يسمع ضجيج السيارة في الزقاق، فكان يخفي جميع المجلات تحت الفراش. «لماذا لاتقرأ شيئاً آخر؟» سألته في إحدى المرات.

أحيانا، يكون فظيعاً بحقّ. بعد العشاء، عندما تكون أمه ذهبت إلى السينما مع صاحبها، كان مارسيال يضع أصابعه في فمه ليتقيأ كل ما أكله. لا أعرف لماذا يفعل ذلك. ثم يصير شاحباً ويمرض فيتمدّد على الأريكة ويئنّ. قال لي بأنه تعلم أن يستثير القيء عندما كان صغيراً وكان أبوه ما يزال يسكن مع أمه. لم تكن بائعة العطور تتكلم أبداً عن ذلك، مع أنها كانت تعرف ذلك بكل تأكيد. لقد قال لي مارسيال بأنه فعل ذلك أمامها. ربما كان يريد فقط أن نهتمّ به قليلاً. وربما كان يريد أن يبدو فظيعاً. بعد القيء يغدو شاحباً مثل ميتّ وتغدو نظرته كابيةً ومضببة. أظنّ أن الشجاعة لن تواتيني لأعود إلى هناك.

❖

تسكن مورغان شقة كبيرة في عمارة حديثة، منها نرى البحر من كلّ جانب أمامنا وكأننا على قمّة جرف. إنها المرة الأولى التي أزور فيها بيتها. لحدّ الآن، كنا نلتقي بمقهى العميان أو في الشارع. وكنت أتساءل لماذا كنا نلتقي، غالباً، صدفةً في أزقة المدينة القديمة. كنت أخرج من اللّوج وأرتاد زقاق روسيتي، وأسير إلى أن أبلغ النافورة حيث يتجمع الصعاليك ثم أسير شمالاً إلى الساحة الصغيرة التي أحبها كثيراً وحيث توجد تلك النافورة التي تعزف موسيقاها، فتكون مورغان هناك جالسةً على طرف الحجرة، تدخّن سيجارة وكأنها لم تكن تنتظر أحداً.

كنتُ جدّ متعبة ولم أعد أعرف أين أذهب. تلفنتُ إلى مورغان. كان رقمها معي، كتبته على الصفحة الأولى لكتاب أعارتني إياه، وكانت تقول بأنها لم تقرأ أبداً كتاباً في مثل جمال كتاب A sabila لأوغستينا بيسا لويز. عبر الهاتف، كان لها صوت غريب، مخنوق قليلاً ومصفّى بعض الشيء، قالت: «تعالَي في الحال يا عزيزتي، أو بالأحرى، لا، أبقي حيث أنت

وسآتي لأحضرك» . انتظرتها بالقرب من مخدع التليفون على امتداد الجدار الذي يحاذي حديقة كرين الصغيرة. كانت السيارات تمرق أمامي فيصدر عنها هدير نهر في حالة فيضان، أوبحر تحت عاصفة. أغلقت عينيّ. كانت هناك سيارات تبطئ سيرها إذ لا شك أنّ أصحابها ظنّوا بأني مومس، فكانوا ينادون عليّ، متلفظين بأسماء: «ميريي! كارمن!» . أو «فاطمة!» ، أو مثل ذلك الرجل ذي الشعر الرمادي: «باليه صغير لعيون أربع!»

لا أدري لماذا كنتُ أظن أن كرينْ سيحضر بدراجته النارية في اللحظة المناسبة. سيمر من هنا بالضبط، وسيرفع خوذته وسيبتسم كما كان يفعل عندما يأتي لينتظرني قرب باب الليسيه.

وصلتْ مورغان في تاكسي ؛ لم تكن تريد أن تسوق سيارتها. تقول بأن عليها أن تؤدي امتحاناً وهي لا تريد امتحانات. تتحرك على قدميها أو في تاكسي. ركبت إلى جانبها فقبّلتني «لكن، ماذا حدث لك يا «حريتي» ؟ يا للحالة المزرية التي توجدين فيها، أراهن على أنك لم تأكلي شيئا منذ أيام، إنك توشكين أن تقعي على الأرض. كان عليك أن تتصلي بى، أن تأتي، فأنت تعلمين جيداً أنني لا أكاد أخرج من البيت، ودائماً هناك أحد، ساشا أو مينه، كان يجب عليك أن تحضري حالاً إلى المنزل وألاّ تتسكّعي في الطرقات، إنك لا تدركين حالتك» .

تتكلم كثيراً وبسرعة. وأنا رأسي منكسة إلى وراء فوق المسند، ولديّ انطباع بأنني بصدد أن أسقط. صحيح، أدرك الآن أني كنت على وشك أن أتهاوى، وأنني لو زدت بضع ثوانٍ وبضع خطوات في الشارع، لكنت قد سقطت على الأرض:

«لم أكن أريد... كنتْ أظن أن...» أتمتم باتجاه مورغان. «لم تكوني تريدين ماذا؟ أن تزعجيني؟ أنت لا تدركين، أوقفي هذه السينما، أرجوك، كفّي عن أدبَكِ المفلس. أأنتِ من يزعجني!»

وضعتني في غرفة صغيرة ورْديّةَ الألوان، في الوراء وتطل علي الساحة: «هنا، ستجدين الهدوء. إنه مكتبي إذا فهمت ما أقصده. اللحاف الموضوع على الأرض جيد، وأنا سأنام في غرفة الجلوس. ساشا سيسكن في النصف الآخر وستَرينه إذا كان ذلك يروقك. إنك لن تضايقي أحداً ولا أحد سيضايقك» . خرجتْ لتتبضّع. تمددت على اللّحاف واستسلمت للنوم.

عندما استيقظت، كان الوقت متأخراً. توجهتُ حافية القدمين إلى المغسل. كانت مورغان في غرفة الجلوس وكأنها تنتظرني. من خلال الفجوة الكبيرة الزجاجية أبصرت الشمس وهي تجنح إلي الغروب. كان البحر قد غدا رمادياً، بشعاً ؛ إلاّ أن السماء كانت ذات صفرة خلاّبة. أجلستني مورغان ؛ لم تكن هناك مقاعد في الصالة الكبيرة. فقط مخدّات في كلّ مكان وبجميع الألون. أشعلت مورغان قضيباً من البخور: هل أنت جائعة؟ لقد أعْدَدت مكرونة

طازجة».

ذات يوم، أكلنا معاً بمطعم إيطالي صغير، وكنت قد ذقتُ كل أنواع المكرونة؛ كان هناك صحن اسمه أضحكني، إذ كان يسمّى mierda de can. أحببت أن أوجد مع مورغان هنا، فقد كنا معلقتين بين سماء وبحر، ولم نكُنْ في أيِّ مكان. موسيقى رتيبة بعض الشيء تنبعث من مكبّر صوت مخفيّ مثلما هو الشأن عند طبيب الأسنان. كانت الموسيقى وديعة وحزينة تعلو وتخفت مع دقّات للطّبل. ولعلها كانت تركيةً أو فارسية، لم أعد أتذكر.

بعد ذلك، أكلنا المكرونة في سُلْطانيات. حضر ساشا، زوج مورغان، ولم أكن قد رأيته من قبل. اندهشت قليلاً لأنه كان عجوزاً ويبدو مريضاً. كان ينهج بقوّة وله جبين جدّ عالٍ، مفرغ من الشعر، يلمع. لابد أنه كان طويلاً وقوياً، والآن هو ثقيل، عديم المهارة، مقوّس الظهر. لكنّ له عينين بزرقة الفولاذ وجدّ باردتين. يصوّب نظرته إليك، فيعطي انطباعاً بالتّباعد، بالشراسة اللاّمبالية. فكرت فوراً، بأنه كان يكره مورغان وأنه يكرهني أنا أيضاً.

لم يُرِدْ أن يأكل. نظر إليّ وقال لمورغان: «إذن، هي ذي؟ إنها بالغةُ الجمال».

أتذكّر أنني شعرت باحمرار وجهي ولم أعرف ماذا أفعل. كنتُ كأنني شيء عثرتْ عليه مورغان في الشارع أو داخل بار، بالصدفة. قبّلته مورغان: «اسمع، لن تشرع في مضايقاتك، اتركها هنيّة». إلاّ أنه واصل النظر إليّ بعينيه الشرستين وهو يردّد: «إنها بالغة الجمال، جد جميلة...».

على كل حال، ساشا رسام؛ لم يكن يرسم بورتريهات، فقط يضع بُقعاً هندسية على اللوحة مع ألوان أكثر برودة من عينيه: رمادي، أزرق، أخضر، أبيض.

أكلتُ أنا ومورغان المكرونة بينما كان ساشا يشرب الويسكي في كأس كبيرة حيث يُضيف، من حين لآخر، قليلاً من ماء بيريي. بعد ذلك، ذهب لينام. بقينا وحدنا في غرفة الجلوس نتكلّم ونتكلم. لم أتكلم أبداً مثلما فعلت هذا المساء مع مورغان. حتى مع كرين، عندما ذهبنا إلى الفندق وتحدّثنا فوق الفراش، لم يكن ذلك مثل الآن.

مع مورغان، كنّا نتزلق بهدوء وتلامسُ أحاديثُنا كلّ الجوانب. كنا نُدخن وننصتُ إلى الموسيقى. وضعتْ أسطوانه لموزار ثّم لدوبيسي ثم بيتهوفن وكارمينا بيرانا. كنت أشرب الويسكي، وكان مرّاً يدير الرأس. مّن حين لآخر، كانت مورغان تقف وتذهب إلى النافذة الزجاجية الكبيرة وتتأمل الليل. أخذتني من يدي. وجعلتني أنظر إلى الليل وإلى البحر المختفي، وإلى الفراغ ونجوم الفوانيس وأضواء السيارات على الطّرقات المائلة. أردت أن أفتح النافذة لكن الفتحة كانت مغلقة بإحكام. قالت مورغان: «بسبب ساشا أغلقناها؛ إنه يستيقظ،

أحيانا، خلال الليل ويريد أن يمّر عبر النافذة». هي أيضاً كانت تخاف من الفراغ. كانت تقترب، باحتراس، من المرآة وتلمسها بطرف أصابعها قبل أن تنظر.

كنتُ في أحسن حال فلم أعد أفكر لا في أمي، ولا في السيد هيرشيل، ولا في آمي؛ أو إذا فكرت فيهم فعلى الطريقة التي كنت أريد أن أفعل، وكما قلت: أن أرحل عشر سنوات أو خمس عشرة سنة، وعندما أعود يكون كل شيء قد تغيّر، والجميع قد نسيني.

فيما بعد، أحسستُ بالبرد، فيما أظن. كان هناك ما يشبه ضبابة داخل القاعة الكبيرة؛ ربّما بسبب دخان السجائر. كنت جدّ متعبة. وفيما كانت مورغان تتكلم، أغفيت. كانت جميع الأضواء رمادية. كنت ممدّة على المخدّات ورأسي مسند على ذراعي، وكانت مورغان إلى جانبي. لم تكن تتكلم في تلك اللحظة، أتذكر ذلك، والأسطوانة الأخيرة توقّفت. لم يكن هناك سوى هدير البحر يشبه تنفّساً أو ضوضاء عجلات السيارات.

كانت السماء تمطر. انحنت مورغان عليّ فأحسست نفَسَها فوق وجهي. كانت يدُها تفكُّ أزرار قميصي، وشعرت بأصابعها على جلدي وكانت، يا للغرابة، صلبةً مليئة بالعقد حتى ليمكن القول بأنها قطع من الخشب. كان شيئاً غريباً تلك اليد تلمس صدري، والنَفس الملتهب فوق وجهي، لكنني لم أكن قادرة على أن أرى عينيها ولا فمها؛ كنت أرى فقط ظلّها وشعرها الذي كان بمثابة جناحين أحمرين على كل جانب من رأسها. كانت هناك لحظة أحسست فيها بأن ما تفعله كان جيداً، ثم جاء وقت لم أعد أتحمل ما تصنعه. انتصبت واقفة وزررت قميصي كيفما اتّفق. قلت: «يجب أن أرحل عن هذا المكان». قالت مورغان: «كلاّ، اسمعيني، الوقت متأخر والسماء تمطر، لا يمكنك أن تذهبي، ابقي معي». كان صوتها أجشّ. قلت: «لا، يجب أن أذهب فوراً». كنت أبحث، حولي، عن أغراضي وعن حقيبتي «حرية». لم أعد أعرف أين كنت. قالت مورغان: «إسمعي، امكثي لتنامي ثم اذهبي في الصباح. الوقت جدّ متأخر. أين ستذهبين الآن؟». كنت جدّ متعبة ولم أعرف حتى أين وضعت حقيبتي. ذهبت لأغسل وجهي بالماء السخن ثم تمدّدت في الغرفة الصغيرة على اللحاف مباشرة فوق الأرض. قالت مورغان: «سأنام على المخدات في غرفة الجلوس، إذا احتجت لأي شيء فأنا هناك». لم تقفل الباب تماماً، ووسط الظلام راقبت شعاع الضوء طالما استطعت أن أحتفظ بعينيّ مفتحتين.

❖

ذهبت إلى مقهى «المسرنمين»؛ إنني لا أريد أن أعود أبداً إلى مقهى العميان، أبداً لن أذهب إليه. شيء غريب، يخيّل إليّ أنه قد مرّت شهور وسنوات، وأنني شحنت وأن كل شيء

قد تغيّر، وأن لاشيء هو كما كان من قبل، مثلما كنت أريد أن أفعل وكما قلت ذلك تماماً. يخيّل إليّ أنني أكثر قرباً من شيء ما، لكنني لا أعرف ما هو ذلك الشيء. ربّما لم أعد أرى مثلما كنت في السابق. أو لعلّني جدّ متعبة كما هو الحال بعد سفر طويل.

أردت أن أكتب، أيضاً، رسالة. تناولت دفتر الأدب الشهير حيث كانت تريد الآنسة ريسو أن نكتب «بلّوراتنا» –تحكي دائماً نفس الحكاية، مناجم ملح سالزبورغ، والأغصان التي تحوّلت إلى بلّور، ثم الكاتب ستاندال. لم يكن بالدفتر سوى بلّورة واحدة نسختها من كتاب كان يملكه الكولونيل، وتقول البلّورة: «الزمن طفل يلعب بالنّرد (هيراقليد)». انتزعت مرة أخرى ورقة مزدوجة من وسط الدفتر. وشرعت في الكتابة:

«سيدى العزيز».

لكنني رغم إمعاني النظر في الصفحة البيضاء، لم أتمكن من أن أبدأ رسالتي. فكرت بأن ذلك يعود إلى كوني لا أتوفر على ما أقوله، لا شيء يجعلني أرغب في أن أقول ذلك له لا لسواه، وبالأخص ألا أقوله له.

بعد أن أمضيت بعد الظّهر ذاك مع كرين في الفندق، لم أحسني مختلفة. كان الأمر كأنْ لاشيء مرّ بيننا. مع أنني لو ذهبت لزيارة الطبيبة هاقن لما استطاعت أن تقول هازئة مثل المرة الأخرى: «ليس هناك ما يدلّ على ذاك». فيما بعد، لم أبق عذراء، وكان هناك قليل من الألم وذلك الدّم الذي لطخ الغطاء عندما «فتحت»، ومن المفروض أن أصير شخصاً آخر. كان عليّ أن أحس بنفسي امرأة لها جسد ونهدان، ولها أفكار جديدة. إلاّ أنني لم أفكر حتّى في هذه الأشياء. فقط عندما رجعت إلى اللّوج شعرت بوحدة شديدة. لم تكن أمي تعلم ؛ كانت قد تعشّت مبكراً وتمدّدت داخل المخدع. وعندما دخلت لم تقل شيئاً.

كنت أفكر أنني، الآن، مثلها أستطيع أيضاً أن أخبّئ طفلاً في بطني وأن أرحل إلى عالم آخر ؛ أو أستطيع أن أجتاز البحر إلى أن أصل إلى مهدية وأذهب إلى التّلال إلى أن أبلغ نايتتنكال وسط حقول الذرة البيضاء والفاصوليا.

بعد ذلك، لم يعد كرين، لا في الغد ولا في اليوم التّالي. ذهبت إلى الحديقة الصغيرة التي تدير الظهر للبحر وهناك رأيته. كان مع زوجته وولده ميكي الصغير. وكان معه أيضاً كلبه توبي. أحياناً لا أتذكر ما إذا كان الكلب هو الذى يسّمى ميكي والطفل هو توبي. كرين يضحك ويلعب مع الولد الصغير ولا يرى شيئاً آخر غيره. وكانت زوجته تضع نظارة شمسية من طراز نظّارات نجوم السينما ولها شعر أشقر جميل. كنت نصف مختبئة وراء خميلة نيريات وأنظر إليهم وهم يضحكون ويلهون. كان الطفل الصغير جالساً على الأرض في الممرّ ويلعب بسيارة صغيرة يرميها في الهواء. لأجل ذلك كتبت في دفتر الأدب عبارة هيراقليد التي قالها منذ ألفين وخمس مائة سنة وكأنها قيلت الآن.

ثم إنني، ذات يوم، تلفنتُ لمنزله هكذا بدون تفكير. قال لي، بسرعة كبيرة، كما لو كنت أُقلق راحته: «اتصلي بي صباح غد، في التاسعة». اتصلت به من جديد في أي وقت غير الساعة التاسعة. «ألو؟ألو؟». عجيب، صوت يقول ألو؟ في الفراغ. كان صوت زوجته؛ لها نبرة كريهة، جدّ حادّة.

بعد ذلك لم أعد إلى اللّيسيه لأنني لم أكن أُطيق أن أرى بَعْدُ وجوه الآخرين ولا أن أرى الأساتذة. لا أدري إذا كان كرين قد ذهب لينتظرني ومعه دراجته النارية الكبيرة. ربما تحدث مع تلميذة أخرى أو لعلّه استأنف علاقته مع ماري لويز. لكنني أنا أدرك جيداً أنني لن أستطيع كتابة رسالة.

في الثانية بعد الظهر، توجهت إلى المدينة القديمة. أحسست أن النسيان تسلّل إلى ذاكرتي؛ إنني لا أتظاهر بما أقوله. تذهبون، لبضعة أيام، للّيلة، لوقت قصير، وإذا بالأشياء لم تعد (في ذاكرتكم) كما كانت عليه من قبل؛ هناك لطَخة، مصراع نافذة، دراجة نارية معلقة عند تقويسة، عجوز جالس في ركْن أحد الأبواب...

كانت هناك شمس. الصيف بَادَرَ بالمجيء. صيحات السمامات الحادة، جلَبَةُ الأصوات في المطبخ، رنين الأواني وصراخ الأولاد في ساحات العمارات. تابعت السير في نفس الطريق بدون أن أنتبه: زقاق المسمكة، زقاق الساحة العتيقة، النافورة، الزقاق المركزى، النّافورة الأخرى التي لا أحبها وبها، كما العادة، أذنّاب السجائر في حوضها. الزقاق المستقيم، زقاق اللّوح. صعدت إلى أن بلغت الّدير. كان بودي أن أرى القسّ العجوز، كيوم، بجبّته المهترئة. عندما كان يخرج إلى الشارع كان يوجد دائماً أرتالٍ من الأطفال يتبعونه ويجرون من حوله ويجذبون أطراف جبته. وكان يضحك. دائماً يكون معه ملبسٌ في جيوبه يرميه للأطفال. وكان هناك طفل يحبه القس بصفة خاصة، طفل مفرط السُّمنة يدعوه الآخرون «كرو-تا». أما اسمه الحقيقي فهو البشير، وأظن أنه كان ساذجاً بعض الشيء مثل القس كيوم.

عدتُ أدراجي نازلة إلى أن بلغتُ شقتنا. نوافذ الطابق السادس كانت كما هي دائماً بشبابيكها ومصاريعها المغلقة. وعلى البعد، رأيت دراجة «بيبي -بوجو» التي يملكها لوسيان، معلقةً عند عمود إشارة منع الوقوف. كانت تحمل دائما نفس الجهاز الأزرق المضاد للسرقة ذي الأرقام، والذى ينفتح عندما نركّب رقم ٣٧٧١. إن لوسيان لم يشرح لي قط لماذا اختار هذا الرقم.

صعدتُ دُرج الأرْدواز. في أوّل الأمر، لم أكن أعرف جيداً ماذا سأفعل. وعندما وصلت إلى منبسط الطابق الأول، استولت عليّ رغبة في أنْ أرى سمّانة. كنت أسمعها عبر الباب تدندنٍ بأغنية وهي تطبخ. كانت هناك رائحة طيبة للبطاطا واللّحم ورائحة لـ «الدّواز». ما من أحد يضاهي سمانة في تحضير الدّواز، حتى أمها لا تعرف أنْ تطبخه بمثل جودتها.

أصابتني تلك الرائحة بالدوار لأنني لم أكن قد أكلتُ شيئاً منذ أمس، منذ أن التهمتُ المكرونة الطازجة بالطماطم عند مورغان. بقيت مستندةً على إطار الباب متصنّتة إلى حركات سمانة ودندنتها، مستنشقة الرائحة التي عطّلت قواي. ثم إنها، لا أدري إذا كانت قد سمعتني أو أنها خمنت وجودي وراء الباب، جاءت لتفتح الباب. نظرت إليّ ؛ كانت هناك، مازال، قطرات حمراء تسيل على صدغيها. قالت ببساطة: «ادخلي».

دخلت إلى الغرفة المعتمة حيث كانت تطبخ والتي لا تسَع سوى كرسيّ واحد. أجلستني سمّانة ثم عادت لتقف أمام الكانون: «هل من المنتظر أن يعود الآن؟» : فهمتْ ما كنت أقصده من سؤالي:

«كلاّ، ليس الآن. سيعود فيما بعد، هذا المساء».

كانت تعرف أنني لا أحبُّ زوجها. إنه رجل خشن، عِرْبيد. وكانت أُمي تقول بأنه كان يضرب سمّانة كل مساء:

«رائحة طيبة ؛ هل هذا من أجله؟» ضحكت سمانة: «من أجله، نعم من أجلي ومن أجلك. إنه لك، هل أنت جائعة؟».

كانت تتكلم بلكْنتها القبايلية العجيبة، فتدغم الحروف الصوامت وتخلط كلامها بألفاظ من لغتها. كان لها وجه جدّ جميل ذو وجنتين جدّ عاليتين وفم مبتسم، وقوس حاجبيها المكتمل، وأنف معقوف قليلاً، رقيق وأصيل. كانت عيناها في لون العنبر أو في لون النحاس الأخضر. كنت أحبّ أن أكون مثلها، وكنت أتمنى أن تكون هي أمي. أنا كنت مثل فاكهة جافّة، محروقة. كنت أحبُّ لون بشرتها النّاعمة، المذهبة مثل لون العسل. قلت لها أسفي الكبير لكونها ليست أمي. لم تتعجبْ من قولي ؛ على العكس، نظرت إليّ تلك النظرة اللطيفة، الساخرة قليلاً والتي أحبها كثيراً، ثم قالت: «لا بأس، لا بأس يا ابنتي». قالت «بنتي» وكانت الكلمة جميلة.

شرعنا في الأكل داخل نفس الغرفة بعد أن وضعت صندوقاً أمام الطاولة الصغيرة لتجعل منه كرسياً لها. خيّل إليّ أنني لم آكل منذ شهور. ونحن نأكل، كنّا نتحدث عن أشياء مختلفة وكأننا في يوم عاديّ، وكأن لم يحدث شيء. كانت سمّانة تهزّ رأسها من حين لآخر وتقول: «لا بأس يا بنتي، لا بأس». كان ذلك حسناً وهادئاً. كان يخيّل إليّ بأنني منذ سنوات لم أعرف ذلك الهدوء. كان بودي أن أنسى كل شيء وألا يبقى أحد غيري أنا وهي، داخل تلك الشّقة الرمادية الصغيرة، عديمة النوافذ على الضوء، بالضوضاء التي ترنّ في الباحة الضيّقة وأجهزة الراديو وأصوات الأولاد والنّساء. لم تتحدث عنّي، ولا عن أمي. فقط، في لحظة معينة، قلت لها بأن حنجرتي مشدودة لأن الوقت كان يمر ولأن زوجها على وشك أن يعود وعليّ أن أذهب. قلت لها: «تعرفين يا سمّانة أنني لا أريد أن أذهب إلى إصلاحية».

كنتُ أظنُّ أنها لن تفهمني، لكنها انحنتْ عليّ وقبّلتني على الجبين، وقالت: «أنت بنتي أيضاً»، لم تقل ذلك هكذا، بل عبّرت عنه بالعربية فكان أكثر عذوبةً وقوة كأنها تتلفظ بعهد تقطعه على نفسها. أحسست بعيني تمتلئان بالدموع. أدركت، فجأة، لماذا رجعت إلى اللُّوح، ولماذا صعدت الدّرج الضيّق إلى أنْ بلغت بابها. أدكت أنها هي، هي التي كانت في مركز هذه المدينة، هي قلبها وروحها، وكل شيء كان يوجد فيها، يوجد هنا في هذه الشّقة الصغيرة المعتمة، كانت هي ملكة هذا العالم وسيّدته. بدونها، ربما ما كان لشيء أن يبقى. لولاها لهجر الفقراء بيوتهم، ولتخلوا عن أطفالهم في زوايا الأزقة. بدونها، ما كان للسّلام والعذوبة أن يوجدا، كان سيكون هناك فقط، الفقر والحسد المفترسان، والجرائم الدموية ؛ والبنات اللائي يهربن في السيارات للبيع، والرجال المخمورون في الحانات، والمتسكعون، ومدمنو المخدّرات في السلاليم يحملون قاروراتهم وقطنهم.

وقفت ووضعت صحني في حوض المغسلة. لم تكن هناك سوى بضع خطوات لأصل إلى الباب. قبّلت سمّانة مرة أخرى، وأخذت الضوء من عينيها. ثم صعدت إلى أعلى العمارة، إلى الطابق السادس، وأخذت المفتاح الذي احتفظت به دائماً حول عنقي وأدرته ببطء داخل القفل.

كانت الشقّة تماماً مثلما تركتُها، وكان يمكن أن يكون ذلك منذ ساعات فقط، بمصاريعها المغلقة، والمخدع بأريكته ومخدّاته، وطاولة البلاستيك المقوى والكرسيّان أمام النافذة. مشيت عبر الغرفة إلى أن بلغت الصوان وعليه المنبّه، ومشدّ الكتب المصنوعان من الصّدف، وعلبة الحلوى حيث توجد الأوراق، وحيث وضعَت أمّي الإعلان المتعلق بوفاة أبي. أحسست برغبة في أن أترك كلمة في مكان ما؟ لكن أي جدوى من ذلك؟ إنها لا تعرف القراءة، وعلى كل حال سيكون ذلك بمثابة سينما.

تمدّدتُ على الأريكة داخل المخدع. بعد الظُّهر هو مناسب جدّاً للنّوم أو للحلم. تبقى عيوننا مفتّحة وننظر إلى انعكاس النافذة على السقف. وعندما تكون هناك شمس في الشارع، نرى الناس وهم يمشون بالمعكوس، وأحياناً نرى سيارة أو عربة نقل أو دراجة نارية، ليست هناك ضوضاء كبيرة فقط صخب بعيد، مكتوم، كأنه داخل أنابيب.

كنتُ متعبة وبي رغبة في النّوم. قبل المساء بقليل، غادرتُ الشقّة ثانية. تركتُ حقيبة البلاج «حرية» إلى جانب الطاولة. في نهاية الأمر كان من الأفضل أن أكتب كلمة. بالنّقود المتبقيّة ركبت تاكسي إلى المصحّة التي توجد بها أمي. إنها حقّاً مصحة جميلة، وسط حديقة ؛ وبها حوض تسبح فيه أسماك حمراء نصل لونها قليلاً. من هذا المكان، تبدو المدينة كلها، مغطاة بضبابة حليبيّة والهضاب الدكناء تشبه جزراً. صخب عالٍ يصعد من كل أحشاء المدينة، صخب مخيف يشبه أصواتاً تتكلم جميعها في وقت واحد. كنتُ جالسة على مقعد حجريّ أمام جدار المصحة مع أمي التي كانت في إحدى الغرف. كنت أفكر في مهدية، في مصب النهر الكبير. كنت أفكر في حقول الذرة البيضاء، وفي نايتنتكال، وفي الدار

القائمة أمام غابة بلّوط الفلّين. كنتُ أُفكر في تلك الأشياء كأنها لم تكن تُوجد حقاً، كأنني قرأت عنها في «دليل سكّة الحديد والطرق» الشهير. كأن أحداً حكى لي عنها.

ذات يوم، حدثتني أمي عن زايّان، حدّثتني عن «مُوحَا أُ وحمُّو» العظيم الذي كان قد جاء لاسترجاع أراضي مدينة خنيفرة ومعه جميع قبائل الجبال. حكت لي عن المدينة الكبيرة التي أقامها وعن القصور، والموسيقيين والراقصين، والناس الذين كانوا يحضرون للعمل من كل أنحاء المعمورة. وعندما كانت تحكي ذلك، كأنها كانت تسرد قصة الجنّ والمجوس. فقد اجتمع كل المحاربين الساكنين في الجبال ؛ آيت عفي، وآيت عبدي، وآيت زدوح وآيت رحو.. جميعهم تحلقوا حول السيّد الزايان. اضطرّ الفرنسيون إلى أن يهربوا بعيداً، نحو الشاطئ. كانت أمي تحكي ذلك مثل خرافة، تحكي عن المدينة البربرية الكبيرة حيث لم يعد هناك من يتحدث بالعربية أو الفرنسية، وحيث صار قطاع الطرق أولياء لله. كانت تقول ذلك وتتلفظ اسم موحا أو حمّو العظيم لأنه هو الاسم الملتهب الذي منه وُلدنا.

«لماذا لم نبق هناك، في تلك المدينة؟» . كان قلبي ينبض بقوة أكبر، ما أزال أتذكر، لأنني كنت أظن أنني عرفت، أخيراً، سرّ ولادتي. لم تجب أمي على سؤالي. اكتفت بالقول: «الآن، لم تعد لنا أرض، علينا أن نتيه عَلىَ الطرقات، فاللّه أراد لنا ذلك» .

هي وأبي رحلا عن تلك المدينة، مثل جميع الزايانيين ومثل جميع المهزومين. كان الجنود الاجانب قد عادوا وغزوا المدينة الكبيرة المحصّنة، والطرق، والجسر، وحقول القمح وغابات بلّوط الفلّين ؛ استولوا على الأنهار حتى منابعها. ومثل محاربين عميان، كان الزايانيون يتيهون فوق الطُّرقات.

فيما بعد، دخلتُ إلى الغرفة التي كانت أمي توجد بها. كانت ما تزال في نفس المكان كأنها لم تعش. فقط، كانت أكثر شحوباً وتحتفظ بعينيها مغمضتين. ظننت أنها نائمة. جلست بالقرب منها على الكرسي المطليّ بالكروم، لكنني لم أفهم ما كانت تهمس به. ارتفع جفناها ولمحت قطرة الحياة معلقة بعينيها. أخذت يدها الخفيفة جداً، البالغة النّحولة، وضغطت عليها مدة طويلة لأمرّر إليها بعض الدّفء. لعلها لم تتعرّف عليّ، أو لعلّها ظنت بأنني كنت زوجها.

كانت بي رغبة في أنْ أُحدثها، وأن تسمعني وتتذكر. كنت أظنُّ أنها لَوْ تذكرت لاستطاعت أن ترجع إلى عالمنا. قلت لها: «نايتنكال.. نايتنكال» . وقلت أيضاً: «الدّار... الحقول، الكروم، الغابة... هل تتذكرين؟ الكوخ عند نهاية الحديقة... كنت قد اختبأت، وكنت تصرخين باسمي: حرية! حرية!.. كان صوتك يرنّ بعيداً في الحقول ويجعل الأطيار تفرّ، وكان حسن،، ابن رئيس العمال، يصرخ أيضاً وهو يقلّد صوتك الحادّ. هل تتذكرين؟» .
كنت أتكلم بعذوبة، وكان صوتي رتيباً كأنني أستظهر نصّاً حفظته عن ظهر قلب.

خارج الغرفة، كان الضوء يتلاشى. لم يكن بالغرفة أحد آخر غيرنا. السّرير الذي كانت ترْقد به المرأة العجوز الصماء، فرغ ورفع غطاؤه إلى أعلى. كان يبدو وكأن العجوز لم توجد، فقد أخذوها لأنها ماتت. كفّت عن التنفّس أثناء الليل أو عند الفجر. عجيب، هؤلاء الذين يرحلون. تديرون عيونكم، للحظة لا أكثر، وعندما تنظرون من جديد، لا يكون هناك من أحد. لأجل ذلك كنت أمسك يَد آمي مضمومةً بقوة داخل يدي. فقد كنت أرصد قطرة الحياة في عينيها. كانت قد غدت بعيدة وجدّ هشّة. كانت مثل لهب شمعة.

«هل تتذكرين، عندما عثرنا، ومعنا لاسي، على مولود الأرنب بين التّلال؟ كان قد اختبأ وراء دغْل من الشوك ظانّاً أننا لن نراه بحجمه الصغير، وأُذنيه المرفوعتين إلى الخلف وعينيه الكبيرتين اللامعتين. إنها لاسي التي عثرتْ عليه. توقفتْ أمامه، ومدّت خرطومها باحتياط لأنها كانت تخاف منه! التقطتَ الأرنب، الوليد، فقلت لي بأن عليّ أن أضع رأسه نحوي وأن أضع يداً تحت أرْجله حتى لا يجرح نفسه بمخَالبه، بعد ذلك أطلقناه في التلال، فرأيته يتسلّل بين النبات واللّطخة البيضاء على ذيله وأُذناه منتصبتان!». لم أكن أعلم ما إذا كانتْ آمي تسمعنى. بطبيعة الحال، من غير الملائم أن نستمع إلى حكاية عندما يكون المسبار موضوعاً داخل أنفنا وقطّارة السّيروم مشكوكة في ذراعنا. لكن لا ضير في ذلك، تابعت كلامي. كنت أتكلم من أجلي أنا أكثر ممّا أوجهه لها. لم يكن بوسعي أن أنصت إلى الصمت داخل تلك الغرفة المغرقة في البيّاض، عند نهاية الظهر يوم الأحد، وقد انصرف جميع الزّوار وفرغت الرّدهات والحديقة، وأمامي ذلك السرير الجديد حيث لم تعد توجد السيدة العجوز الصمّاء.

كنتُ أتكلم و أتكلم عن كل هذا، عن نايتتنكال وحقول الذرة البيضاء، وكُروم العنب، وغابة البلوط القوي الكبيرة، والتّلال، وعن البحر في الموضع الذي ترتمي فيه الأمواج العَالية داخل نهر سبو. ربما كانت كلها حكايات لأنه لا شيء وجد قبل شقة اللّوج وقبل الدار الكبيرة المهدّمة فوق قمة الهضبة حيث كان يسكن الكولونيل وزوجته آمي. هل تكفُّ الاشياء عن أن تكون حقيقية عندما تنأى داخل الزمان؟ كان بودّي أن أُوجه هذا السؤال، الآن، إلى أمي لتجيبنى عنه. لتفتح عينيها مرة أخرى لأرى حياتها، ولتجبني. لتحْك قليلاً، بدورها، ما عاشته قديماً، وكيف كانت الأمور في نايتنكال. لتحك عن اللحظة التي أخذتني فيها من علبة الكرتون لتضعني في فراشها. عندما وجدتني على بلاطة المطبخ وكأن جنياً حملني إلى هناك عبر ريح الرّمال.

«هل تتذكرين؟ لم أكن أملك حتى فستاناً، كنتُ متدثرة بخرَق عتيقة يوضع فيها الورد، وعندئذ ألبَسْتني فستاناً لدميتك الكبرى، التي كنت تسمينها ليسي والتي احتفظت بها منذ طفولتك، هل تتذكرين تلك الدمية الكبيرة بعينيها الزقاروين وشعرها المصفرّ؟ ذات يوم

أوقعتُها على الأرض فتحطّمتْ وبكيتِ أنت كما لو أنها كانت، حقيقةً، طفلَتَك...»

لكن، إذا كان كل ذلك غير صحيح، فلماذا كذبت عليّ؟ لماذا اختَلَقْت حكاية ماء الوَرْد، وعلبة الكرتون المتروكة للريح عند باب المطبخ، وذلك الرضيع الملفوف بَخرق الأزهار، وتلك البنت الصغيرة التي نزلت من السماء. هل كانت مرعبةً ومفزعةً إلى هذه الدرَجة تلك الطاولة التي حسبت فوقها الأوراق المالية، واحدة بعد الأخرى، وهي تطرطق من جدتها، مثلما يحدث عندما نشتري حصاناً أو بقرة أو سيارة، ونريد أن نتعجل الأمر وننتزعَ قرار البائع ونخلبَ لبّه بمنظر النقود على الطاولة؟ «هل تتذكرين؟» لكنني لم أعد أعرف ما يجب تذكّره. كانت أشياء كثيرة، ولعلها جميعها لم تكن صحيحة.

غادرت غرفة آمي. ذهبت إلى منزل السيد هيرشيل عند أعلى هضَبة «دي بُوميتْ»، وجلست على درج السّلم. كنت أحبُّ كثيراً تلك الحديقة. البيت يسمى لاروزري (مزرعة الورد)، لكن الكولونيل يقول دائماً يجب أن نسميه بيت الأقنثة لأن أزهار هذا النبات توجد بكثرة وهي جميلة وسيقانها مستقيمة تعلو ورود الشّوك.

أتذكر جيداً أن السّنة التي غَادَرْنَا فيها نايتتنكال كان الصيف في أواخره. وقبل ذلك، في فصل الربيع، كانت هناك ورود أنتريوم كثيرة في المستنبتات المغطّاة. جميع صناديق الكرتون كانت جاهزة داخل الحظائر وفوقها رسم العندليب الذي رسَمته آمي. وكان السيد هيرشيل يذهب في كل لحظة ليلقي نظرة على الورود المقطوفة وليفحص اللّفائف الموضوعة في ورقٍ من حرير. كنّا ننتظر صديقه السيد بويسونْ الذي كان عليه أن يأتي ومعه شاحنته ليحملَ الورود إلى المطار. وكان قد أبْرم اتفاقاً مع شركة لطائرات الشحن تتيح للورود أن ترسل إلى باريس وبروكسيل وفرانكفورت. كانت تلك هي أولَ مرة ؛ وعمّا قريب ستكون هناك صناديق كرتون عليها رسم آمي، موزّعةً على جميع دكاكين بائعي الورد في العالم. وسأكون، أنا، سفيرة الورود وسأذهب إلى كل مكان لأتحدث عنها. وبصحبة آمي سنذهب إلى أجمل الفنادق والمطاعم. وستفتح الورود أكمامها بلونِ المرجان داخل أجمل بيوتات العالم.

لكن السيد بويسون لم يحضر وشاحنته، لا في ذلك اليوم ولا في الأيام الأخرى. تلَفَن الكولونيل وبحثَ عن شاحنات أخرى، وحمل في أريكة سيارته الخلفية عشرة صناديق من الورد، إلاّ أنه لم يجد شيئاً ؛ لم تكن هناك طائرة شحن محجوزة، وكل ما قيل له كان مزيفاً، مبتدعاً. لقد رحل السيد بويسون ومعه الزّاد الذي أعطاه له الكولونيل. كان خائناً، باع كلّ ما يملكه واختفى عن الأنظار. ماتت الورود داخل صناديقها وكأنها داخل توابيت صغيرة. والورود التي لم تقطف ذبلتْ فوق سيقانها لأن الحرارة كانت جدّ مرتفعة داخل المستنبتات المغطّاة. عندئذ جمع الكولونيل أكواماً كبيرة من الورود وصناديق الكرتون وأحرقها كلّها. انبعث منها دخان كثير، رمادي، ذو رائحة كريهة مثل رائحة حقول القمح عندما تحترق، وذلك بسبب

ملاقيط الغسيل للمتمردين. كان، أكثر من أي وقت، صيفَ موقدي الحرائق.

غادرنا نايتنكال. لم أكن أعرف أين أذهب. عدتُ من جديد إلى زايان. لم يكن باستطاعتي أن أتوفر على بيت.

❖

عند المساء، تنبعث في الحدائق صرخات الشّحارير القَلِقة. إنها تطير من نبتة لأخرى، بحثاً عن موضع تمضي فيه الليل. لكن ربّما ليس ذلك هو ما يقلقها. قد يكون الليل الذي يخيّم، والظل الذي يتعاظم، والشمس التي تنطفئ وراء الأرض. تحس الشحارير برد الفضاء وترى ضوء القمر الأزرق، أو لعلّ شيئاً يتمزّق داخلها فتتألّم.

تغدو السماء صفراء؛ ونوافذ الدار المحاطة بنباتات الأقنثة تضيء عبر الشمس الغاربة. ماتزال قمّة النخيل في دائرة الضوء؛ وفي الأسفل، يجمّع الليل أوراق الأقنثة مثلما تتجمع فوق ماء إحدى البحيرات. هناك أنواع من النّاموس المَتنمّر تحطّ فوق جسدي وتلسع ذراعيّ وعرقوبيّ.

أعرف ما ينقصني هنا، ولعله، لذلك، تفزعني صرخات الشّحارير. أذكر، عندما كان الليل يلفّ مهدية، كنت أمشي مع آمي إلى أن نبلغ مصبّ النّهر ونحاذي جدران المدينة. كنا نمر من باب البحر وندخل إلى خرائب القصر الذي يشبه مسكن العفاريت. كنا نسير بين الجدران المتهدّمة المغطّاة بالعوسج، وكنا نسمع صيحات الطيور.

ذات مساء، لعله آخر مساء أمضيناه في تلك البلاد، لم أعد أتذكر؛ كان الهواء عليلاً وخفيفاً، والسماء صفراء مثلما هي الآن، مع قطع من السحاب. أغلق عينيّ إلى منتصفها فيخيّل إليّ أنني ما أزال هناك. كانت آمي تمسك بيدي، وكانت يدها ناعمة ودافئة، وكنت أضغط عليها بمنتهى القوة، إذ كنت أحسب أننا نتكلم عبر الأيدي. معها، كنت أنظر إلى السماء والبحر والنهر الذي يبدو وكأن حركة المدّ والجزر قد أوقفته. كانت هنالك بواخر صيد تدلف ببطء إلى المصبّ، وأشرعتها الطويلة النحيلة متهدّلة مثل أجنحة. كنت أعرف أنني لن أشاهد قط مرةً أخرى كل هذا. وكنت أعرف أنه حتىّ إذا كنت أرغب بقوة في ذلك، وحتى إذا رجعت، فإنني لن أراه بعد. كانت الدموع تغشي عينيّ، وفي الوقت نفسه كنت أريد أن أرى كل شيء وأن آخذ كل شيء، كما لو أن عليّ أن أمضي ما تبقى من حياتي متذكرة لكل ذلك.

في لحظة معينة، قالت آمي: «أنصتي!». عبّر باب البحر وعبر الريح الخفيفة، سمعتُ صوتَ المؤذن ينادي للصلاة بعيداً. بعيداً، مثل خيط نحيل ينحلّ في الهواء، كنا نسمع

المؤذن بدون أن نسمعه، أقصد أننا لم نكن نسمعه بالآذان وحسب، بل أيضاً بالعيون، وبالوجه، وبالتنفس ؛ كان خفيفاً ودقيقاً، كان نظرةً، لوناً، ارتعاشة.

الآن، هنا في هذه الحديقة المهجورة التي لم تعد آمي تأتي إليها، أسمع ذلك الصوت ؛ إنه يربطني بالجانب الآخر للعالم، بالمنحدر الآخر من حياتي.

نزلت مرة ثانية من هضبة «دي بوميت» عبر السلالم والأزقة التي تتّجه كلها نَحْوَ الشوارع الكبيرة وكأنها نهيرات تسير صوب الأنهار. كان الليل يتلألأ من جميع الأنحاء. أتذكر الفترة الأولى، عندما كنت أذهب لأجلس على عتبات الأبواب وأنا أنظر إلى أضواء المقاهي، وإلى الناس والبنات المخضّبات، منتظرةً أن ينصرف عشيق أمي من الشقة. راهناً، كل ذلك يبدو جدّ مختلف. وربّما أصبحت، حقيقة، شخصاً آخر.

بدأت أسير في شوارع المدينة القديمة. كان هناك أناس كثيرون في الخارج. شيوخ، شبّان، ناس من هنا ومن خارج المدينة. في الحانات، كانت الموسيقى العربية تئن. كانت هناك روائح المطاعم الإيطالية، روائح القلْي والقهوة. وكانت هناك نساء عجائز، لابسات الأسود وجالسات على الكراسي أمام أبواب منازلهنّ، وأطفال يجرون وهم يصرخون. في لحظة معينة، تعرّف عليّ الأطفال فأحاطوا بي وصاحوا: «سبا! سبا!». كان أمراً عجيباً. حدث في نفسي شيء من سماع اسمي. أحد هؤلاء الأطفال رافقني إلى اللّوج. كان غامق السّمْرة وله عينان مخمليّتان. «أنت، ما اسمك؟» سألته. قال لي «أنا اسمي رشيد». كان يمشي مبتعداً عني قليلاً بدون أن تفارقني عيناه. كان يرتدي بنطلوناً مبقّعاً وحذاء رياضياً أكبر من مقاسه. «هل مر عليك وقت طويل وأنت هنا؟». عندما كنت أكلمه كان يقترب للحظة «أنا؟ أمس مساءً.» ونحن نسير أشار إلى باب وقال: «أسكن هنا».

على مسافة أبعَدَ قليلاً، كانت المخبزة مفتوحة، وكانت السيدة الإيطالية الجميلة واقفة على عتبة الباب. عندما مررت ابتسمت لي وقالت: «انتظري». وعادت تحمل رغيفاً «بقي لديّ هذا الرغيف منذ ظهر هذا اليوم». وصلنا إلى باب منزلي. أعطيت الرغيف لرشيد «طيب، إلى اللقاء يا رشيد». اكتفى بشكري ثم عاد، جارياً. نحو السّاحة.

في الدّرج، وأنا صاعدة، قلت مساء الخير لسُمانة مثلما أفعل كل ليلة. كانت تبدو متعبة وعلى صدغها ضمادة في الموضع الذي ضربها فيه زوجها. لكن عينيها الجميلتين الخضراوين كانتا تلمعان بضوء أحبّه. قالت لي، كما تقول لي دائماً ؛ «حسن يا ابنتي، حسن». تابعت الصعود. مررت أمام شقة الغجريين وأمام شقة العجوز إيدا، المجنونة بعض الشيء. في كل مكان كانت هناك حلَبة للأصوات وللراديوات، وكانت هناك رائحة الطعام. انطفأ ضوء مؤقّتة الإنارة، مثلما يفعل دائماً، قبل أن أصل إلى الطابق السادس، فتابعت الصعود تلمساً. تحت باب شقتنا، كان هناك خطّ من ضوء الكهرباء. كان عليّ أن أدقّ الباب ؛ لم

أكن أُريد أَنْ أَسمع جلبةَ المفتاح في القُفل.

«شكُونْ؟»

قلتُ ببلادة: «أنا» كنتُ أُفكر: لو أنها صرخت أو قالت شيئاً مُنفّراً، فإنني سأرحل إلى الأبد. سأذهب إلى الطرف الآخر من العالم، حتى إلى كندا.

فتحتْ أُمي مريم الباب. لم أكن أُميّز جيداً وجهها بسبب اللَّمْبَةِ الكهربائية. بَدَتْ لي جدّ هزيلة وصغيرة. كانت تضع نظارات لا أعرفها، وكانت ترتدي، وزرةً منقوش عليها أزهار ورديّة وزرقاء، فتضفي عليها طابع فتاة صغيرة. لم تتمكن من الكلام. خطت خطوة نحوي وضمّتني إلى صدرها، ودخلنا معاً من الباب الضيّق وكأننا نرقص. كانت تتلفظ باسمي وتقول أيضاً «ياكبيدتي» (ياكبدي). وفجأة أحسست بتعب كبير. جلست على المقعد أمام طاولة البلاستيكَ المقوّى. وبدأتِ أبكي فيما كانت هي قد ذهبتْ لتحمل إليّ كأساً ساخنة من الشاي، وأظن أنني مزجت دموعي بالشراب المرّ.

❖

افْتِتَان

ظَهَرَتْ من جديد، هذه الليلة. لماذا مِن جديد؟ هل سَبَقَ حقاً أن رأيتها في مكان غير هذا وفي زمان آخر؟ فقط لو أعرف هل كنت قد التقيتها؟ لماذا إذن، استولى علي ذلك الانطباع وهذا الانخطاف في القلب عندما دخلت الليلة إلى هذه القاعة الفسيحة مصحوبةً بتلك العجوز الشبيهة بساحرة في نظرتها، وقد تدثّرتا معاً بالسواد مثل الغجريات، وعندما أخذت تعبر المطعم غير حافلة بالانفعال الذي كانت تستثيره، ووجهها الجميل المزدري لما حوله تضيئه وتبرز قسماته لعبة الضوء والظل المنبعثة من مصابيح السقف؟ لماذا، عندئذ، أحسست بحضورها حتى قبل أن أكون قد رأيتها، قبل أن أبصرهما معاً عندما دفعتا الباب الزجاجي وقد انبثقتا من غموض ليل هذه المدينة المرعبة وكأنهما لاجئتان تحتميان بهذه القاعة الفسيحة التي تغمرها جلبة شبيهة بجلبة مجمع الطيور؟ نعم لقد أحسست بذلك في دخيلتي وكأنها نظرة غريبة عني، مثل حركة هواء تلامس جلدي وتكاد تحمل في طياتها خطراً... كانتا ترتادان هذه القاعة، الفسيحة، الأجنبية عنهما، وهما مشدودتان معاً إلى الحركات البطيئة لثنيات فستانيهما الأسودين. هي في عنفوان الشباب، جميلة، وجهها مشع، والأخرى عجوز وسوداء، مدكوكة، جافّة متغضنة، نظرتها منغلقة صارمة مثل ظل المحاجر الفارغة. لكن، لماذا كان قلبي يخفق أسرع وأقوى من ذي قبل وكأنما كانت لهذه اللحظة أهمية قصوى، ولا شيء مما أعيشه أو قد عشته كان خاضعاً للصدفة؟ أظنّ أنني انتصبت قليلاً فوق مقعدي كأنما أريد أن أنصرف أو أن أتجه نحوهما: لم أعد أذكر. كنت أراهما وهما تتقدمان عبر القاعة الفسيحة في خط مائل. هي أمام، بلا انفعال، تتوقف عند كل مائدة؛ تتبعها العجوز التي كانت تقوّس ظهرها ونظرتها تتحرك أسرع من خطوتها باحثة عن شيء لم تكن تفلح في الإمساك به. عندما وصلتا إلى مؤخر القاعة، ساعتئذ فقط أدركت ما الذي جذبهما إلى هذا المطعم الذي لم يكن يناسبهما. وعند كل توقُّف، كانت العجوز تبرز، نصفياً، من سلّتها وردة اكتسحها الذبول وتقترحها على المتعشين الذين كانوا يديرون وجوههم في سأم وربما في اشمئزاز. أم هل هو جمال الغجرية الشابة الخارق، وجهها المغتم وعيناها الملتهبتان الغائبتان، فمها المتفجر وشعرها الطويل الأسود المنسدل بحرية فوق كتفيها، يداها ذواتا المعصمين البالغي الرقة، ومجموع جسدها اللدن الخفيف داخل فستان الساتان المستهلك الأسود، السابغ، المتراقص وكأنه ظل متحرك.. هل هي التي كانت تضطر الناس إلى تحويل أنظارهم

واللجوء إلى محادثة مزيّفة في لامبالاة مصطنعة، أو حتى إلى غضبٍ كاشف في بعض الأحيان؟ نعم، في مرات عديدة لمحت نساء ورجالاً، عند لحظة ترجّي العجوز المستجدية لهم، يطردونها بإشارة عنيفة رافعين صوتاً صيّره الخوف حاداً، صارخاً. كانت المشعوذتان مستمرتين في التقدم عبر الصالة الكبيرة التي أخذت، شيئاً فشيئاً، تصمت وتفرغ، أي أنني وأنا جالس إلى مائدتي في وسط القاعة، لم أعد أشاهد المدعوّين الآخرين، ولم أعد أسمع غمغمة الأصوات. على العكس، كنت أبصر، بطريقة تكاد تكون غير محتملة، كل حركة تصدر عن المرأتين، وكان يخيل إليّ أنني كنت أسمع كل نبرة من صوتيهما، أو بالأحرى الصوت الرتيب النائح للعجوز الشبيهة بالساحرة في نظرتها، والصمت المزدري للمرأة الشابة الجميلة التي كانت تمشي أمامها وتتوقف هي أيضاً من مائدة لأخرى، ولكن دون أن تستدير إلى الخلف وبصرها مثبت دوماً على البعيد الغائم وهو يشعّ بلمعان قاسٍ يكاد يكون مخيفاً. أما أنا، فقد كان قلبي يخفق أكثر فأكثر داخل صدري، وكنتَ أحسّ العرق يبلل راحتي كفّي، من أي شيء كنت خائفاً؟ وفي أي شيء كانت البوهيميتان (لم أعد الآن أشك بأنهما كانتا بوهميتين بفستانيهما الطويلين وبشعرهما المسدل، بالسواد الفحمي لعيني المرأة الشابة، ووجه العجوز الشحاذة الشبيه بنصل سكين)تتهدّدانني؟ مع ذلك، فالأمر كان على هذا النحو: فقد كنت أشعر كما لو أن ذلك المشهد لا يعني سواي لأنني كنت موجوداً داخله ؛ كما لو أن المرأتين المرتديتين للسواد لم تدخلا إلى قاعة ذلك المطعم لتبيعا الورد، وإنما لتبحثا عني.

عندما فهمتُ ذلك:: أخذ قلبي يخفق أسرع وأقوى من ذي قبل. والخوف، أو الآن، الغضب الذي كان يعتم ذهني هو الذي اضطرني إلى البقاء وإلى المشاهدة. لم أكن أستطيع الانتظار وهما تتابعان بحثهما هكذا من مائدة إلى أخرى. لم أكن أقوى على تحمّل ذلك. كنت، ربما، على أهبة أن أصيح، وأنا أضرب على المائدة: «هنا! انظرا إليّ! أنا هنا! هنا!» عندما التفتت المرأة الشابة نحوي وكأنها أحست نظرتي الصارمة المغتمة أو خمّنت صرختي الخرساء. التفتت بكليتها نحوي. وكانت، لحظتئذ، ذات جمال معشٍ. تحت السقف الذي كان ينيرها مثل كشّاف مصوّب إلى خشبة مسرح، كان وجهها واضحاً ومعشياً مثل منحوتة، لكن مع شيء متأجج وحيّ داخل نظرتها المغتمة وفوق رسم شفتيها، وفي لمعان وجنتيها. كانت قد أمسكت بمعصمها الأيسر داخل يدها اليمنى وتضغط عليه بحركة تدل على نفاد الصبر، فخيّل إليّ، رغم المسافة، أنني كنت أرى صدرها يعلو وفق إيقاع تنفسها مطابقاً لنفس إيقاع تنفسي!

عندئذ، فجاءةً، كانت خشيتي قد رحلت. لم أعد أحس غضباً ولا خوفاً ولا حتى نفاد صبر. كنت، بالأحرى، أحس نشوة لأن تلك المرأة المجهولة كانت تنظر إليّ، كانت تغطس عينيها في عيني. ولم يسبق لي أن عشت مثل ذلك في أي مكان. أبداً لم أكن أحسست أنني مضيّع في هاوية نظرة مثلما أنا عليه الآن. وفي داخلي، بل كان ذلك يتعدى داخلي، في مجموع هذه القاعة وخارجها، داخل تلك المدينة الغفل الغارقة في الليل، كانت أشياء وصور

تمرّ، ترحل، تنزلق لتملأ عالماً آخر وحياة أخرى. لأجل ذلك بقيت واقفاً، متجمداً. لأجل ذلك، كانت سعادة غير مفهومة وبليدة قد بدأت تغمرني شيئاً فشيئاً. كم دام ذلك؟ لم أعد أذكر، ولن أستطيع أبداً الإجابة على هذا السؤال. ساعات وأياماً ظللت واقفاً داخل هذه القاعة – المرقص حيث كان الناس يتحركون شبيه أطياف، بينما العجوز الحمقاء تنتقل من طاولة لأخرى وهي تحرك طستاً خشبيا مبتذلاً أو وهي تنوح متمتمة بلعنات أو صلوات. ساعات وأياماً احترقت النظرة المغتمّة للشابة البوهيمية وكأنها شمعة عسلية، فاحسّست الرغائب والأشياء والدفء تتسلّل بعيداً عني. كل ما عشته طوال تلك الثماني عشرة سنة التي لم أكن خلالها موجوداً هنا ونسيت كل شيء. كل تلك السنوات بدون دلالة ولا حقيقة حيث وجدت وكأنني في حلم، برخاوة، دون أن أمسك بشيء أو أبحث عنه، أعيش اليوم بيومه.. ثماني عشرة سنة من التيهان اللامجدي ومن قصص الحب المتقلّب، وارتياد المطاعم وحفلات الرقص الجوفاء، والأسفار الغفل حيث التخطيطات هي متاهات، ومشاريع المستقبل أوهام ورياء... كل ذلك ينفلت من بين أصابعي.

ثماني عشرة سنة فصلتني عنها، عن نظرتها، عن هذه الشعلة المغتّمة التي كانت تشع في حدقتيها، وعن جمالها البالغ الاكتمال لدرجة أنه كان خلوداً وحقيقة. كان الوقت قد مرّ مثلما يمرّ في حلم، لأنها كانت حياتي الحقيقية داخل تلك المدن، مع هؤلاء الناس، مع مهنتي وأصدقائي، وعشيقاتي، وأسفاري الخالية من كل معنى... كل ذلك مجرد انعكاسات داخل عيني البوهيمية اللاّمباليتين المشتعلتين والقويتين أكثر من أي نور من أنوار المرقص. لأجل هذا كان قلبي يخفق بمثل هذا الهيجان وكأنما يسعى إلى الانفلات من قفصه. الآن جسر نظرة البوهيمية كان يربطني بالجانب الآخر من نفسي ويهدم حدود الزمن غير المنتظمة. أخيراً كنت أنا ذاتي، من جديد ألتقي نفسي. لا شيء كان قد تغير فيّ، كنت ذلك الولد البالغ ثلاث عشرة سنة الذي يعود إلى منزله بعد الدرس صاعداً الشارع وهو يحمل كتبه ودفاتره المحاطة بسلك مطاط. وعلى امتداد الشارع (الطريق التي كانت تتجه نحو إيطاليا حيث تمر الشاحنات والحافلات الكبيرة والسيارات وسط سحاب مستمر من الغاز المحروق) كنت أصعد نحو أعلى التل، نحو الممر الجبليّ. وبعد قليل من منعطف كبير حيث كانت تصرُّ، كنت أشاهد تلك العمارة ذات الطوابق السبعة على حافة الطريق وهي تشبه قليلاً سفينة ضخمة فارغة.

لم أكن أحب تلك العمارة، ومع ذلك فهي التي كانت تجتذب نظري. والطوابق العليا مثل جسر السفن الفخمة، كانت فارغة مطفأة. أحياناً كان ستار يضطرب في الريح عند غلاّق النافذة، فكنت ألمح وجهاً أصفر كأنه وجه شبح. إلاّ أن الطوابق الدنيا، أو بتعبير أفضل، الأقباء السفلى هي التي كانت تجتذبني. هناك، تحت الأرض، كان يعيش أناس كنت ألمحهم فقط، وكانوا يتجمهرون في جحورهم المعتمة إلى درجة أن نور المصابيح الكهربائية العارية كان

يلمع حتى في عزّ النهار. كانت هناك موسيقى، روائح المطبخ، أصوات أطفال، ضحكات، بكاء بلغة مجهولة خشنة وعنيفة، أو عذبة أحياناً، شبيهة بالموسيقى.

هي ، الآن، هنا، جدّ قريبة مني لدرجة أنني أستطيع أن ألمسها. إنها تنظر إليّ بعينيها العميقتين، اللامعتين، وبنظرتها التي لا أستطيع أن أتجنّبها أو أن أتملص منها... نظرتها التي تسائلني. ثم سمعت صوتها. تتحدث إليّ. تقول كلمات وأسمع صوتها الخافت الأجش قليلاً، ولكنتها الغريبة: إسبانية، روسية، برتغالية؟ تقول: حضر، ظهر، تذكر وما يشبه هذه الكلمات وهي تضغط على حرف الراء وتنبّر المقطع اللفظي الأخير. استدارت نحو أمها، تلك العجوز التي تشبه الساحرة في نظرتها وهي تستجدي متنقلة من مائدة إلى أخرى، وكلمتها بلغتها المجهولة حيث تعرّفت، بالفعل على كلمات إسبانية: «كراسيا» «ألباد» أو «مالبي» لم أعد أذكر. هل تتحدث عني؟ نظرت العجوز إليّ باقتضاب نظرةً مشحونة بالكراهية ثم استدارت لتستأنف تدرُّجها بين موائد المستمتعين اللاّمبالين.

تعرّفتُ على نظرتها. نظرتُها هي التي أرجعتني إلى الوراء أمداً طويلاً إلى ذلك البيت الأبيض على حافة الشارع. أعود من المدرسة في فصل الشتاء، صاعداً ببطء عبر شارع الكورنيش، وبمجرد ما أجتاز المنعطف، كانت تطالعني عمارة ضخمة، متسخة، قد كتب عليها بحروف مدورة من عهد ما قبل الحرب، اسم لن أنساه قط، كان له آنئذ تأثير سحري في نفسي وكان يخلّف لدي تخوفاً غائم القسمات... اسم مكتوب على هذا النحو: جيديكس Judex ألمح البيت الأبيض حيث يعيش الأجانب في قبوهم المعتم. وفي كل مرة أمر من أمامه يخفق قلبي بسرعة أكبر بسبب تلك الأصوات والضوضاء، ووجوه النساء التي نلمحها من خلَل المنافذ، أو وجه طفل صوته يبكي خلسةً وليس مثل أطفال الأغنياء، يبكي متكتماً، بهدوء ولأمد طويل جداً. ذات ظهيرة حينما كنت أصعد العقبة، ربما بسرعة أكثر من المألوف، وجدتهما هناك بدون أن أتوقع ذلك: عند أسفل البيت الأبيض، داخل الممر الصغير الذي يؤدي إلى القبو، شريط أرض ضيّق مرشوش بذلك الحصى الشنيع الأبيض الذي ينثره المالكون في جنينات الهضبة، إنهما هناك: المرأة العجوز المتدثرة بالسواد، الشبيهة بالساحرة في نظرتها، جالسة على كرسي من القش. وأمامها البنت الصغيرة واقفة، نحيلة داخل ثيابها السوداء، ثابتة لا تتحرك وكأنها كانت تنتظر حقاً، أحداً أو شيئاً ما. وجهها جدُّ شاحب قد التهمته جمّة شعرها السوداء وعيناها الوسيعتان اللاّمعتان وبما أنني كنت أمشي متقدماً، فقد استدارت قليلاً نحوي ونظرت إليّ، ومثلما حدث اليوم، فإن نظرتها غمرتني وحررتني، غيّرتني. لكن يجب ألا أتحدث عن اليوم، مادام اليوم لا يوجد. إنها نظرة تلك الفترة، النظرة المشتعلة، المحمومة وسط وجهها الشاحب، الممتلئة بالضيق والمساءلة أيضاً، ذلك النداء والإعلان... هي التي لم تكفّ عن ملاحقتي سنةً بعد سنة. لقد بقيت بداخلي شبيهةً بضوء يشتعل وسط الليل ولا يتوقف عن الاحتراق. وأظن أنني توقفت لحظةً بتأثير من تلك النظرة. أبداً لم أتخيل أن تلك النظرة يمكن أن توجد هنا، داخل هذا البيت، أقصد وسط شقاء ذلك القبو المظلم

وداخل ذلك السجن الذي كان يقال إنه فيه يعيش العبيد. واقفة وسط الممر، لم تكن البنت الصغيرة المرتدية للأسود والثابتة في مكانها، تلقي بالاً للناس الآخرين الذين كانوا يسرعون فوق الرصيف. كنت أنا وحدي من تنظر إليه، كما لو كنت ذلك الذي كانت تنتظره (أنا، كما لو أنها انتظرتني)، أنا وحدي من اختارته. كم من الوقت ظللت متوقفاً عند حافة الرصيف مشدوداً إلى نظرتها المغتمة، الغامضة، وقلبي يخفق بسرعة وأنا لم أعد أعرف شيئاً آخر؟ لم أعد أذكر، واليوم أتساءل عما إذا كنت حقاً قد كففت عن أن أوجد هناك. لكنني أتذكر الآن، بعد كل تلك السنوات التي لم يعد لها معنى أتذكر أنني جئت مرات ومرّات وفي كل لحظة، مترصداً الساعة التي ستغادر فيها البوهيمية الصغيرة الظل الرطب للقبو، من أجل أن تبقى مع جدتها عند ممرّ الحصى. كانت شمس الشتاء تنير ثيابها وشعرها، وتشعل انعكاساً أكثر حرارة على بشرة وجهها. ذات يوم، كان الكرسي فارغاً والبنت الصغيرة جالسة في مكان جدّتها ؛ وعندما رأتني وقفت وكادت تجري باتجاهي ثم توقّفت ؛ ربما لخوفها من تلك الحركة. «هل هي مريضة؟» سألتها فيما أظن.أجابت فوراً: « لا، إنها ذهبت إلى المدينة لشراء بعض الأغراض» كانت تجيب، وهذه الكلمات التافهة تتلفّظها بصوتها الواضح كما لو كانت هي الكلمات الأكثر أهمية في العالم. وبالنسبة لي،كانت فعلاً مهمة، وكنت أستشعر شيئاً آخر يمرّ خارج الكلمات، عبر نظرتها، وعبر الضوء، وعبر جمال وجهها وجبهتها وشعرها، وكتفيها، وعبر جسدها الهش وسط الفستان الأسود. «وأنت، إلى أين تتّجه؟». أتذكر أيضاً الخجل الذي منعني من أن أقول لها بأن تلك الطريق التي كنت أسير فيها كل يوم، كانت هي الممتدة بين منزل جدتي والمدرسة، وهي طريق تافهة، مبتذلة، كانت تنزع كل ضرورة عن لقائنا وتجعل منه حادثاً تافهاً يصادفه التلاميذ في طريقهم. ساعتئذ لم أقل لها أبداً: «أذهب إلى الثانوية» بل قلت: «ذاهب إلى هناك» أو: «عليّ أن أسلك هذا الطريق». ولم تكن لتسألني ما هو «ذاك الهناك». وفي المقابل كنت سأكون سعيداً بأن أقول لها بأنني كنت أصعد إلى منزل جدتي لأتغذى معها أو لأمضي الليل، لأنني كنت أشعر أنني قريب منها مثلما كانت هي تعيش مع جدتها (لكن تلك العجوز المرتدية للسواد لم يكن لها ما يشبه جدتي البالغة الوداعة والحنان؛ كانت قاسية ومخيفة، وخلال الأيام التي كانت تقعد على الكرسي كنت أكتفي بابتسامة من عيني، فكانت البنت الصغيرة المرتدية للسواد تتبعني بنظرتها دون أن تجسر على أن تتحرك أو أن تقول شيئاً، ما عدا من خلال ذلك التعبير القلق وذلك النداء المنبعث من نظرتها الكئيبة التي كانت تلاحقني وتجعل قلبي يخفق أمداً طويلاً بعد أن أكون قد اجتزت المنعطف الثاني).

كنت أحب أن أرى البنت الصغيرة المرتدية للسواد في كل مرة أعود فيها من المدرسة، أو خلال أيام السبت والأحد عندما كنت أتمكن من التسكّع في أزقة الحيّ. ومع ذلك، فإنني لم أتساءل عنها ولو مرة واحدة، ولم أحاول ولا مرة أن أعرف ماذا كانت تفعل عندما لم تكن واقفة عند ممرّ العمارة الضيق. كان عليّ أن أوجه إليها أسئلة وأن أستفسرها عن

الأشياء التي تحبها وعما كانت تريده، وأن أترصّد الأجوبة في عينيها وأسمع خفقانَ قلبها، وأضغط على يديها الصغيرتين وأن أحاول أن أعطي شيئاً وأن أقتسم معها شيئاً. لكن أعتقد في العمق، أنها لم تكن توجد بالنسبة لي.

كانت طيفاً، شبحاً دائماً، يتبدّى في نفس المكان العبثي، عند حافة ذلك الشارع الجهنمي الضّاجّ بالشاحنات والسيارات، وسط البرد القاسي ووسط عزلة ذلك الممرّ عند أقدام العمارات الضخمة وأمام منافذ الأقباء التي انفلتت منها البنت لبضع لحظات، على شاكلة السجناء الذين يسمح لهم باستنشاق الهواء في الساحات الفارغة القائمة بين بنايات المعتقل. أظن أنها كانت بالنسبة لي حلماً، صارت حلماً منذ ذاك الحين، سحرياً وغامضاً، صورة ساحرة وهشّة إلاّ أنها مبعدة عن كل حياة حقيقية بسبب من ذلك الحزن وتلك الأسرار التي لا تستطيع الأحياء إدراكها. بهلوانة، مثل تلك البنت الصغيرة الأخرى التي كنت أراها عند كل موسم «نويل» على الساحة الكبيرة التي تكنسها الرياح، وهي نحيلة مزرقّة داخل بنطلونها اللّصوقَ المشذّر، تتلوّى أمام أبيها وقد علت ابتسامة غريبة، متشنّجة، وجهها البئيس الفاقد للطفولة. لكنني أنا لم أكن أعرف كيف أنظر إلى ذلك، ولم أكن أستطيع فهمه. ما كنت أحبه، هو الحلم بالذات، تلك الصورة السوداء، المحمومة، وتلك النظرة المشدودة إلى عينيّ بكثافة كانت تخلخلني وتسلّيني في آن، نظرة حيوان متوحش كنت أكتشفه ولم يكن يشبه أي شيء مما كان العالم الحقيقي يستطيع أن يظهره لي، تلك النظرة التي كانت حباً وموتاً، رغبة وخشية، ومنذئذ كانت معرفةً، اعتزازاً وازدراءً ربما...

أتذكر الآن، من مؤخر تلك القاعة الواسعة، الفارغة، المخيفة، تحت نظرة تلك المرأة الشابة المجهولة التيَ تمحو العالم، أتذكر كل لحظة من تلك اللحظات التي ظننت أنني نسيتها. ذات ظهيرة، قبل الصيف، وكانت الريح قوية والسماء زرقاء، يوم أحد بالتأكيد لأنني لم أكن محبوساً في المدرسة، مشيت إلى أن بلغت البيت الأبيض الكبير عند ممرّ الحصى. لم يكن هناك مقعد القش وأظن أنني أحسست بوخزة في القلب وأنا أفكر في أنهما لم تعودا هناك وأنهما رحلتا، العجوز المفزعة والجنّية المرتدية للسواد. مشيت على ممر الحصى محاولاً أن أمنع نعليْ حذائي الرياضي من أن يصرّا. من أي شيء كنت خائفاً مثل اليوم؟ ربما لم يكن خوفاً بل الوحدة في ذلك اليوم تحت سماء شاسعة وفارغة، مثل هذه القاعة هنا، وعبور السيارات الملحاح في الشارع وتلك النوافذ المطفأة في العمارات فوق رأسي، تلك النوافذ ذات النظرة العمياء. وحينما اقتربت من باب القبو، فجأةً، ظهرت أمامي. كان الضوء يلمع فوق شعرها وداخل عينيها، ولأول مرة كانت تبتسم ووجهها كان يعبر عن الحرية، عن نوع من الفرح المتوحش. كان تعبيراً قوياً ومشتعلاً في عينيها لدرجة أنني لم أكن لأحتمل نظرتها. إذن، لم تكن طفلة، كانت امرأةً حقيقة، وكانت آتية نحوي كامرأة جميلة، حرّة، مشتهاة. خطت إلى أن بلغتني ولمستني بيديها؛ وبقينا، للحظة، جامدين وسط فراغ الريح ووسط ممر الحصى. لم أحس قط بمثل ما أحسسته آنذاكَ ذلك الانطباع بأنني فقدت مظهري وأصبحت

نظرة خالصة، رغبة. ثم إن شيئاً قد تعطّل. أحسستُ الخوف من جديد، ليست الوحدة ولا الفراغ، بل الخوف من أن أكون قد تواريت وصرت شخصاً آخر وغيرت مصيري. لا شك أنني تراجعت وهي، الفتاة المرتدية للسواد، أحسّت بالتأكيد ذلك البرود المستقر في داخلي والذي كان ينتصر عليّ. قالت لي كلمات، حدثتني بصوتها الأجش قليلاً، صوت بنت صغيرة منفعلة كان يجعل قلبي يخفق ويرميني إلى الإحساس بالعار «ماذا هناك؟ ماذا تريد؟» فجأةً، نظرتها المغتمة كانت تسألني بإلحاح وتبحث في أعماقي عن الحقيقة، إلا أنني لم أكن أريد أن أقولها. كنت أفكر فقط في أنني سأنصرف لألتحق بأصحابي في المدرسة الذين كانوا ينتظرونني على الرصيف لنلعب مباراة في كرة القدم، أو أن أصعد الدرج حتى شقة جدتي لأغوص داخل مقعد وثير وأقرأ القواميس وأنا أستمع إلى الزوابع وأتطلع إلى نور الشمس. «إنها ليست هنا اليوم، ولن تأتي قبل هذا المساء». كانت البوهيمية الصغيرة ماتزال تتكلم والانفعال يبرز لكنتها الغريبة، الجهيرة، الرعناء. «لكنني أنا لا أستطيع البقاء، عليّ أن» ؛ كنت أريد أن أقول شيئاً ولم أجده سبباً مقبولاً. لم يعد لذلك من معنى. نظرت إليّ وأنا أتقهقر، والظل يحفر محاجرها وكأنها محاجر الموت. عندئذ، دفعة واحدة، انصرفت وأنا أمشي أول الأمر، ثم بسرعة أكثر فأكثر، جرياً، وأنا ضائع، لاهث، ورأسي تردد صدى خبطات قدمي على رصيف الشارع. لا أدري إلى أين ذهبت، ولا أتذكر في أي مكان تهت تلك الظهيرة، عبر الأزقة الفارغة بين حدائق الفيلات. لم يعد هناك شيء من كل ذلك اليوم. امّحى كل شيء. وبعد فترة هدمت العمارة القديمة التي كان البوهيميون قد تملكوا قبوها. عندما سألت، بخجل، رئيس عمال الورشة، اكتفى بهز كتفيه «إلى أين ذهبوا؟ كيف تريدني أن أعرف؟ لقد رحلوا إلى موضع آخر، إلى أي مكان. هؤلاء الناس لا يبقون طويلاً في نفس المكان.» لم أر ثانية الفتاة الصغيرة المرتدية للسواد، ولا جدتها ذات النظرة الشرسة. لقد ابتعلهما الزمان ومحتهما حركات حياتي من ذاكرتي.

إلى أن كانت هذه الليلة حيث ظهرتا من جديد ظهوراً وجيزاً. عندئذ توقفت المرأة الشابة أمامي ونظرت إليّ، ثم أدرات نظرها، دفعة واحدة، بتعبير قاسٍ فيه ازدراء وغضب. من جديد، القاعة الكبيرة الفارغة ترنّ بهرج ومرج المستمتعين، والموسيقى تعزف لحناً مغشوش المرح: رامبا كانت تحفر دواراً داخل جسدي. بين الموائد، كانت المرأة العجوز حاملة سلة الورد، والشابة المرتدية للسواد تتسللان بسرعة وتختفيان. للحظة أخرى، كما في الحلم رأيت طيفهما أمام الباب، ثم إنهما غارتا في الليل.

❖


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الزمن لا يمرُّ

أريد أن أقول لكم، بدْءً، من كانت «زبيْد» وإلى أي حدّ كانت جميلة ومتفردة. لكن في لحظة القول هذه، لم أعد أعرف جيداً من أين أبداً. لم أعد أتذكّر كيف تكلمت معها أول مرة، ولا ما قالته لي. أتذكر فقط اليوم الذي رأيتها فيه عند الساحة الصغيرة الموالية لزقاق روستي. الآن، كل شيء قد تغيّر ؛ فالزقاق الذي كنتُ أسكن به لم يعد هو نفسه، والعمارات القديمة ملّطت وجدّدت وطرد منها الذين بلا مأوى لتباع شققها إلى الألمانيين والانجليزيين. الآن، هناك متاجر جديدة تبيع أشياء غريبة مثل السجادات الفارسية أو دانتيلا النورماندي، والبخور والشّموع المعطّرة. السلالم حيث كان الأطفال يلعبون وهم يرسلون صرخات حادّة، والممرّات، والسّاحات حيث كانت تنشّف أغطية الأسرّة، كل ذلك صار مختلفاً ربما لأن «زبيد» لم تعد هنا. لقد اختفتْ، ليس فقط من الحاضر بل أيضاً من الماضي، وكأنها محيتْ، كأنها ارتمت من فوق جرف محدثةً ثقباً في سماء كلّ يوم، أو من سطح عمارة وسط الزرّقة المحرقة، لتختفي هي والطيور التي لا نكاد نعثر عليها ميتةً في الشارع.

زبيْد هو الاسم الذي أطلقته عليها. أما اسمها الحقيقي فكان زبيدة. أنا اسمي داڤيد، ولكي تتسلّى كانت تسميني داوود. على هذا النحو ابتكرت اسم زبيد ؛ إلاّ أنها كانت لعبةً بيني وبينها.

لم أعرف أبداً من أين جاءت. لقد أخفتْ، منذ البدء، آثارها. وكل شيء فيها كان غامضاً. أول مرة لمحتها كان ذلك في الساحة الصغيرة هناك حيث يتجمع الأولاد عند خروجهم من الفصل ليلعبوا بالكرة أو ليتلاكموا. مرّت من دون أن تنظر إلى أحد ثمّ اختفت في الأزقة المعتمة. لم أعدْ أتذكر جيداً كيف كانت ثيابها، لأن الذكرى التي بقيت لي منها هي هذه الصورة التي أعطتني إياها ذات يوم، عندما بدأنا نلتقي. صورة مدرسية تبدو فيها جالسة في الصف الأول. أجدها، في هذه الصورة، جدّ جميلة وجد غريبة. هناك التماعة تنبعث منها، من نظرتها الدّاكنة ومن أعماق عينيها.

ومع ذلك فهي، هنا، ترتدي تلك الثياب الواسعة جدّاً، البالغة القدَم، التي يرتديها أطفال فقراء. تنّورة بيضاء مع طوق غريب تحت الركبتين، وتنّورة داخلية من صنف ماتلبسه البوهيمية

. قميص أولاد مثنيٌّ الرُدْنين ليكون في مقاسها، مع جوارب يشبعة طويلة من الصوف الأسود وحذاء، بدلاً من نعل الفتاة الصغيرة، حذاء جد كبير يبدو سيراه مفكوكين.

لا أدري كم مرّة نظرتُ إلى هذه الصورة محاولاً أن أفهم ؛ كأنما كانت هناك قصة سرّية مكتوبة على تلك الوجوه سأستطيع أن أفكّ لغزها. ذات يوم، حملت لي الصورة، عندما كنّا نذهب لنتجول في الحدائق العمومية، وقالت لي جميع أسماء الأولاد والبنات الذين كانوا معها في الصورة ؛ كانت كأنها ترتّل صلاة عن ظهر قلب: «مارتين إيلاند، سيسيل سابيا، ماري أنطوانيت ليو، رايسة اللّعبي، ألان باجيس، صوفي جيرردي، ماريز أوبرني، نادية كوهن، بيير بارنو، فضيلة...» . أتذكر بعض تلك الأسماء، فقد استمعت بانتباه إلى صوتها عندما كانت تتلفّظ بها، وكان ذلك هو الشيء الأكثر أهميةً في العالم.

ما أراه، هو بالأخص وجهها، الوجه الذي كان لها في تلك السّن، في الصورة، والقوس المكتمل لحاجبيها اللّذين كأنما رسما بالفحم، وعيناها الدّاكنتان العمَيقتان، اللاّمعتان، وتلك الجمّة من الشعر الأسودَ حيث يتعلّقَ الضّوء. عندما عرفتها كانت ماتزال تضع شعرها في جديلة واحدة، سميكة، تنحدر إلى خاصرتها. أبداً لم تكن تظهر بشعرها مشعثاً، وكنت أتخيّل تلك الجمّة السوداء وهي تنسدل، أثناء المطر، على كتفيها وظهرها، في الصورة، كانت جالسة في الصفّ الأول وتنورتها عالقة بركبتيها على طريقة البوهيميات، ونظرتها موجّهة مباشرة نحو الهدف بدون خجل ولا دلال. إنها تنظر لتدافع عن نفسها، لتبطل مفعول المصائد، ربّما، في تلك الفترة، عندما عرفتها في الساحة الصغيرة، وراء بيتنا، لم تكن تضع قط نظارة سوداء.

تلك النظرة هي التي لا أستطيع أن أنساها. في الصورة، تجلس في استقامة تامّة، يداها موضوعتان على ركبتيها والكتفان مربعان والوجه مرتدٌّ قليلاً إلى الوراء تحت ثقل ضفيرتها. جبهتها ملساء مشطوبة بقوسي حاجبيها، وفي نظرتها تلتهب الشّرارة السريعة لحياتها. تنظر عبر انصقال الصورة فيخيّل إليّ أنها الوجه الوحيد المتوفر على البصر وسط مجهولين، طالما حاولت أن أتخيل ما يمكن أن تمثله للآخرين، مارتين، صوفي، ماريز أوبرني، نادية كوهن، أو بالنسبة للولدين اللذين كانا معها في الفصل، بيير بارنو ذو الوجه الخجول، الأشقر، وألان الذي يكشر قليلاً. كيف عاشت معهما بدون أن يرياها؟ ذات يوم، عندما كنت في منزلها، في الفترة الأخيرة، حدثتني، لأول مّرة ولآخرها، عن الليسيه الفرنسي وعن الأساتذة، وعن المسافة التي كان يتعين عليها أن تقطعها على الأقدام، فجراً، لتأتي من مدينة القصيدير، وفي المساء، لتعود إلى بيتها. قالت لي بأنها لم تكن تتوفر على أصدقاء وبأنها لم تكن تكلّم أحداً، وأنها كانت تظن أنها غير مرئية. وأنا أنظر إلى وجهها، في الصورة، ولم أعد أرى سواها.

في البدء، مع زبيدة، كنتُ ألجأ إلى لُعبة الاستغماية ؛ لعل ذلك كان بسبب الفقر الذي عاشت فيه طوال طفولتها، أو لأنها لم تكن تريد أن تعرف شيئاً عنّي أو عن أي أحد آخر.

مرّاتٍ عديدة لمحتُها تمرّ وتختفي في الأزقة الضيّقة. ذات مساء، بعد الخروج من المدرسة، سرتُ في أثرها لأكتشف عنوانها وسرها. ولم تكن تلك أول مرّة أتبع فيها خطوات أحدٍ في الأزقّة ؛ بل يمكن أن أقول بأنني كنتُ ذا خبرة كبيرة في هذه الممارسة. لقد اقتفيتُ أثر عدّة أشخاص مريبين وبنات لم يتفطّنوا لمتابعتي. لكن مع زبيدة، كانت مغامرةً حقيقيةً قادتني إلى اختراق المدينة برمّتها.

أتذكر تلك المسيرة اللاّتنتهي، والساحات التي مررتُ بها، ومفترقات الطرق بين سيارتين. ذهبنا إلى أبعد من محطة القطار متوغلين داخل الأحياء التي لم أكن أعرفها. كانت هناك أضواء نيون تلمع، ومقاهٍ، وفنادق وأناس متربصّون، وعاهرات بعيون متعبة. ودائماً، أمامي، طيف زبيدة التي كانت تسير بسرعة، مستقيمة، بتنّورتها الزرقاء ومعطفها الجلدي وضفيرتها السوداء الطويلة التي تتأرجح فوق ظهرها.

إلى أنْ بلغنا تلك العمارة العادية الملاصقة لسكّة الحديد، والتي تحمل ذلك الاسم الغريب المكتوب على الباب بحروف مقولبة في الجبس: «أيّام سعيدة» (Happy days).

دخلت إلى باحة العمارة، بعدها، وقرأت بسرعة الأسماء المكتوبة على صناديق البريد بينما كانت مؤقّتة الإنارة تحدث صوتها الرتيب ؛ قرأت تلك الأسماء التي ما أزال أتذكرها وكأنها أسماء سحرية مكتوبة باليد فوق ورق مقوى مثبت على الصناديق: بلقيس، ساڤي، سوفيكو، إكنازي، أندريه، دلفان. وعلى طرف الصفّ، كتب بخط جميل فوق ورق مدرسيّ مستطيل ملصق على الصندوق، ذلك الاسم الذي غدا، بالنسبة لي، هو الاسم الأكثر أهمية في العالم، والأجمل، الاسم الذي أظن أنني سمعته على الدّوام: القنطرة. فيما بعد، تجاسرت على أن أصعد بعض الأدراج التي كانت غريبة مصنوعة من الأردواز، مستهلكة من وسطها وتجعلك تفقد التّوازن. تنصتُ على الجلبة التي كانت ترنّ داخل قفص السلّم وعلى صيحات الأصوات وصراخ الأولاد ونخير الحيوانات المنبعث من أجهزة التلفزة.

هناك كانت تسكن زبيدة مع أمها، كما عرفتُ ذلك فيما بعد. كانتا تعيشان وحدهما، ولم تكن أمها تخرج أبداً لأنها لم تكن تتكلم سوى بالعربية. تبعتُ زبيدة مرّات عديدة إلى باب العمارة، ثم كنت أعود إلى بيتي نابض القلب، ملتهب الوجه، لأنني كان لديّ انطباع بارتكاب خيانة. ولعلها كانت بالفعل خيانة. ذات مساء، في بداية الصيف، وكانت الفصول المدرسية قد أقفلت، رأيت زبيدة متجهةً نحوي. أتذكر ذلك جيداً، فقد كان ذلك في امتداد جدار مرتفع من الحجر على طول السكّة الحديدية، ولم يكن هناك أي مخرج أستطيع الهرب منه. اتجهت نحوي ولا أتذكر جيداً ما قالته لي، إلاّ أنني كنت أحس حرقة الشمس على قمة الجدار الذي تدفّأ طوال النهار، وأحسّ عيني زبيدة اللّتين كانت تنظران إليّ بغضب. قالت شيئاً مثل: «لماذا تسير خلفي طول الوقت؟»

لم تكن بي رغبةٌ في أن أنكر.

«لعلك تظن أنني لم أرك تسير خلفي مثل كلب جعيد؟»

نظرتْ إليّ لحظة هكذا، ثم رفعت كتفيها وانصرفتْ. بقيت، أنا، متكئاً على الجدار، وكنتُ أظن أنني سأقع على الأرض، فقد كنت أحس بفراغ في أعماقي.

مع ذلك، بعد ذلك اللقاء، أصبحنا صديقيْن. لا أفهم جيداً لماذا تغيّر كل شيء. ربما لأن ذلك جعلها تضحك، إذ تحدثتْ عنّي مثل كلب جعيد (كنيش). ببساطة، جاءت ذات يوم إلى الساحة الصغيرة واستدْعتني لأتجوّل معها. مشينا في الحدائق المغبرّة، وكان الوقت صباحاً والأسفلت يذوب تحت الحرارة. كانت ترتدي تنّورة لونها فاتح وقميصاً أبيض ردناه مثنيان مثلما هما في الصورة. ومن خلال الياقة المفتوحة كنت أرى بشرتها السمراء والشكل الخفيف لنهديْها. كانت ساقاها عاريتين وقدماها حافيتين داخل النعل. سرنا ونحن نتماسك باليديْن. أظن أن هذا هو ما أحببت عندما أرتني هذه الصورة، ولأنها كانتَ ماتزال قريبة من ذلك العهد، فقد خيل إليّ أنني بإغماض العينين، وبالاستماع إلي صوتها واستنشاق رائحتها، كنت معها في تلك المدرسة ومع الآخرين ؛ كأنما كنت دائماً أعرفها.

كان الصيف حقيقةً، وحتّى الليالي كانت سخنةً. بمجرد ما أصحو كنت أخرج. وكان أبي وأمي يسخران مني، ربمّا لأنهما كانا يشكّان في وجود شيء ما. كانا يتخيلان مغازلةً جنسية مع فتاة من الحي، ابنة الجيران في الطابق الأسفل، ماري– جو، الشاحبة كثيراً بشعرها الأشقر الجميل. لم يكونا يعرفان حقيقة ما يشغلني.

كنّا نلتقي كل يوم أنا وزبيدة. نسير سويةً، مستسلميْن لصدْفة الأزقة، نحو البحر، أو نحو التّلال لنفْلت من ضوضاء السيارات. وكنّا نظل جالسيْن تحت أشجارالصنوبر ننظر إلى المدينة البيضاء المضبّبة. ومنذ العاشرة صباحاً تشتدُّ الحرارة إلى حدّ أن قميصي يلتصق بظهري. أتذكر رائحة زبيدة، أبداً لم أستنشق مثل تلك الرائحة، الحرّيفة، العَنيفة، التي كانت تضايقني في البدء ثم بدأت أحبّها ولم أستطع أبداً أن أنساها. رائحة تريد أن تقول شيئاً متوحشاً، رغبةً، وكان ذلك يجعل قلبي ينبض بقوة أكبر. كنت في السادسة عشر من عمري، وذلك الشهر، يونيو، وبالرغم من أنها لم تكن تكبرني بسوى عامين، فقد كان لديّ انطباع بأنني لا أعرف شيئاً وبأنني طفل. كانت هي التي تقرر في كل شيء، متى ستراني، وإلى أين سنذهب، وماذا سنفعل وماذا سنقول. كانت تعرف إلى أين كانت تتجه. حرارة الصيف، الأزقة، الصنوبر تحت الشمس، كل ذلك يلقي ويبعث النشوة ويلغي الذاكرة. ذات يوم قلت لها: «لماذا تريدين أن تريني؟ ماذا تريدين؟»

«هكذا، من أجل لا شيء. لأنني أرغب في ذلك»

كانت تنظر إليّ باستهزاء. لم أكن أعرف ما الذي أريده منها ؛ فقط أن أنظر إلى

وجهها وإلي عينيها الداكنتين، وأن ألمس جلدها وأمسك جسدها داخل ثيابها البيضاء وأشم رائحتها.

أحياناً كنا نذهب لنسبح، في الصباح الباكر أو عند المساء حين يفرغ الشاطئ. كانت زبيدة ترتدي، تحت ثيابها، مايوهاً أسود ضئيل الحجم ؛ وكانت ترتاد الماء دفعةً واحدة وتسبح أمداً طويلاً تحت الماء ثم تخرج وشعرها الأسود يتطاير من حولها. وبمجرد ما تعود إلي رمال الشاطئ كانت تجمع شعرها في جديلة زخرفية لتعصره. كان جلدها لامعاً معدنياً، مشوكاً كله من أثر البرد. كانت تشعل سيجارة أمريكية وتظل تنظر إلى البحر وهو يخبط الشاطئ ويرمي الفضلات. كانت السماء ملفعة بالضباب مع شمس حمراء. أتذكر أنني كنت قد حدثتها عن مدينة البندقية. «نعم، لابد أن يكون مثل هذا المنظر في البندقية». إلا أنني فكرت في احتمال أن يكون ذلك في بلادها، في سوريا، أو لبنان، أو ربما في مصر، في تلك البلاد التي لم تتحدث عنها قط كأنها لم تكن قد خلقت في مكان ما.

ذات يوم، بعد الظهر، كنا ممددين على إبر الصنوبر، فوق التل، وتبادلنا القبل لأول مرة. أنا كنت أفعل ذلك بسرعة وبدون حذاقة مثلما هو الشأن في السينما ؛ لكنها هي قبلتني في الحين بعنف، ولسانها يتحرك داخل فمي كأنه حيوان. كنت مرعوباً، مفتوناً، وكان ذلك هو الاتصال الأكثر حميمية الذي لم يسبق لي أن عرفته مع كائن بشري. فعلت ذلك ثلاث أو أربع مرات ثم أدارت وجهها. كانت تضحك قليلاً وتقول، ساخرة مني: «أنا الشيطان!». لم أكن أفهمها. كنت منتشياً وكان يخيل إليّ أنني كنت أتوفر على طعم ريقها داخل فمي، وكان ضوء الظهيرة باهراً بين جذوع الأشجار. كنت أرى المدينة البيضاء والبخار الذي يتصاعد قليلاً قليلاً من البحر، ولمعان آلاف السيارات داخل أخاديد الأزقة. ذهبت زبيدة وهي تجري عبر الأجمات. كانت تلعب لعبة الإختباء وراء الأشجار وخلف الصخور. وكان هناك أزواج آخرون، في المضاءات، ومشاهدون متربصون. وعند أعلى التل، كانت السيارات تمر ببطء. صعدت زبيدة إلي أعلى وكانت تختبئ في التجاويف لصق الجدران القديمة. كنت أسمع ضحكتها عندما أقترب. كنت أشتهيها وكنت خائفاً من أن تدرك ذلك. عندما خيم الليل، نزلنا من جديد نحو المدينة عبر الأدراج المغطاة ببذور السرو. كانت طيور المساء ترسل صرخات قلقة غريبة. وعندما وصلنا إلى الأسفل، افترقنا فجأة، بدون أن نقول شيئاً وبدون أن نتفق على موعد، وكأننا لا يجب أن نلتقي أبداً. كانت هذه هي لعبتها، إذ لم تكن تريد أن يمسكها شيء. كنت خائفاً من أن أفقدها.

في تلك الفترة أعطتني صورتها. وضعتها في الظرف القديم الأصفر وأعطتني إياها: «خذ، هذه لك. أريدك أن تحتفظ لي بها». قلت ببلاهة وبلهجة مفخمة: «سأحتفظ بها مدى حياتي». لكن ما قلته لم يضحكها. كانت عيناها تلمعان بطريقة غريبة وباشتعال. أدرك الآن، عندما أنظر إلى الصورة، أنها كانت تعطيني نفسها. كأنها لم تكن لها قط حياة أخرى، ووجه آخر. هذا كل ما تبقى لي منها.

هناك اللّحظات الأخيرة المحفورة في أعماقي، رغم عدم احتمال الوقوع والخلْط اللّذين يجعلانني، أحياناً، أظن أنّني حلمت بتلك اللّحظات وأنا مع زبيدة على سطح تلك العمارة المهجورة في الليل ، ننظر إلى نجوم المدينة. كيف كان ذلك ممكناً؟ إنني لم أتمكّن أبداً من أن أعثر على العمارة ولم أفهم أبداً ما حدث تلك الليلة، وكيف جرى كل ذلك. أفترض أن زبيدة توقّعت كل شيء بدون أن تفكر فيه حقيقة، بل على طريقتها، أقصد أنها كانت تعرف، يقيناً، أننا يجب ألاّ نلتقي بعد. لقد قررت، قبل تلك السنة أنها سترحل وأنها ستهجر كل ما كانت تعرفه، وأنّ على أمها الصامتة أن تذهب لتشتغل هناك حيث تكون مقبولةً، وأنها لن تضع قدمها بعد في الشقة الصغيرة للأجزاء العلوية من عمارة «أيّام سعيدة». ومع ذلك، فإن ذكرى تلك اللّيلة هي التي تبدو لي الأروع والأكثر قرباً من عالم الصورة المدرسية. وأظنّ أنني في تلك الليلة بالذّات كنت أكثر اقتراباً منها. على الشاطئ كنّا قد تفرّجنا على الأضواء الاصطناعية لحفلات ١٤ يوليو. كان الجو حارّاً ورطباً، وسحب الصواريخ تتجرجر مثل ضبابة فوق البحر. فجأة على الشاطئ، نشبت تلك المشاجرة، وسط الظلام، كان رجال يتعاركون، عرب من جهة وعسكريون مجندون في الجهة الأخرى. دفعنا الحشد نحو المتعاركين ووقعنا على الأحجار. كانت الوجوه تكشّر ونحن نراها من خلل فرقعات الضوء الاصطناعي، وكنت أسمع الانفجارات التي تحمل صداها إلى المدينة كلها. كانت هناك صرخات نساء، شتائم، وأنا أبحث عن زبيدة، وهي تناديني، صاحت مرةً واحدة باسمي «داوود!» ولا أعرف كيف أمسكت يدي واقتادتني إلى بعيد، إلى الشاطئ. توقّفنا قرب الجدار السّاند. كنت أرتجف وأنا واقف على ساقيّ. ضمّتني زبيدة إلى صدرها وبحثنا عن السّلّم لنهرب. اخترقنا الحشد قبل أن تعود الأضواء وجرينا عبر الأزقة بدون أن ندري إلى أين كنّا نتوجّه، ونحن نراوغ وسط السيارات.

في نهاية هذا السبّاق، توقفنا أمام تلك العمارة التي كانت قيْدَ البناء، هيكل من الإسمنت فارغ وصامت وسط أرض خلاء. صعدنا، عبر الدرج، من طابق لآخر إلى أن بلغنا الجزء الأعلى. كان السقف مثل قفر به أنقاض ونفايات معدنية وقصاصات من الحديد. كانت الريح تهبُّ بقوّة بالغة، ريح البحر التي تقضم الأجرف. جلست زبيدة فوق مدفأة أو مستودع للماء، لم أعد أذكر، وأجلستني إلى جانبها. كان شيئاً يدير أعالي سقوف المنازل وفوق الأزقة والشوارع.

كان الليل يبدأ رحلته. بعد حرارة النهار الخانقة، وأضواء الصواريخ وضوضاء الحشد، وتلك المعركة الرهيبة على الشاطئ، في الظلام، والوجوه المكشّرة وفرقعات ضوء الصواريخ، الصغيرة، والصراخ، كان الليل يحمل الهدوء وخيّل إليّ أنني كنت آتياً من مكان آخر من بعيد، داخل بلاد أجنبية، وأنني سأستطيع أن أنسى هذه المدينة، والأزقّة، ونظرات الناس، وكل ما كان يمسك بي ويؤلمني. أحسست بقشعريرة، لكنها لم تكن من البرْد، بل من الخوف

والشّهوة. كان هناك ضوء المدينة يشبه فقاعةً حمراء تغطّي الأرض أمامنا. كنت أتطلّع إلى وجه زبيدة، إلى وجهها وظلّ عينيها. كنت أنتظر شيئاً لم أكن أعرفه. أحطتها بذراعي وأردت أن أجذب وجهها، إلاّ أنها ابتعدت عنّي. قالت فقط، فيما أظن: «لا، ليس هكذا وليس هنا...». قالت: «ماذا تريد؟» كنت أنا الذي وضعت عليها هذا السؤال من قبل: «لا شيء، لا أريد شيئاً. حسن أن نكون هنا، وألاّ نريد شيئاً». يخيّل إليّ أنني قلت هذا الكلام، وربّما حلمت به. لعلّني قلت أيضاً: «حسن، لدينا، الآن، كل الوقت». إننا نقول أشياء كثيرة خلال حياتنا، ثم إن ما قلناه يمحّي ولايعود شيئاً. هذا هو ما كنت أريد أن أسمعه في موسيقى الريح، وعبر هدير السيارات الذي كان يتعالى من أزقة المدينة، ومعه تلك الفقّاعة من الضوء الأحمر تنتشر حولنا كما لو كنّا وسط فجر شماليّ. أن أقول لفتاة، كما في السينما: «أحبك. يا حبّي». أن أقبّلها، وألمس نهديها وأن أضاجعها بين التّلال وسط ضوضاء الريح، ورائحة الصنوبر، والذباب، وأن أشمّ جلدها الناعم وأسمع نفسها وهو يتهدّج كأنها تتوجّع... عندما يبقى ولد، خلال الليل، مع فتاة، أليس هذا هو ما يجب أن يحدث؟ لكنني كنت أرتجف ولم أتمكّن حتّى من أن أتكلم. قالت: «أنت بردان؟» وضمّتني إلى صدرها وهي تضع يديها تحت ذراعيّ. «تريد أن نتبادل القبل؟». لمست شفتاها شفتيّ وحاولت أن أحرّك لساني مثلما فعلت معي عند التّلال. فجأةً، أزاحتني بخشونة. قالت: «أفعل ما أريد». انتصبت واقفه ومشت إلى حافة السقف وذراعاها ممدودتان كأنما كانت تريد أن تطير. كانت الريح تحرك ملابسها وشعرها؛ والضوء الأحمر يرسم هالةً غريبة حول جسدها. فكرت بأنها كانت مجنونة، ولكن ذلك لم يعد يخيفني. كنت أحبها. عادت زبيدة إليّ وشدّت نفسها إليّ. قالت: «سأنام. إنّي متعبة، جدّ متعبة». كنت قد كففت عن الارتجاف. قالت أيضاً: «ضمني بقوّة شديدة».

أما أنا فلم أنم. نظرت إلى الليل وهو يدور. كانت السماء ما تزال ممتلئة بتلك الفقّاعة من الضوء الأحمر، ولا نكاد نرى شيئاً من النجوم. كان شيء آخر هو الذي يدور ويتحرك. وكانت المدينة تردّد الصدى مثل بيت فارغ. كانت زبيدة تنام فعلاً. أخفت رأسها في تجويفة ذراعها وأحسست ثقلها على فخذي. لم تستيقظ. حتى عندما وضعت رأسها على معطفي الجلدي الملفوف وذهبت إلى الطرف الآخر من السقف لأتبوّل في الفراغ، تحت ريح المداخن.

عند الفجر، استيقظت. كنت أحس بالألم في كل مكان، كما لو أن أحداً ضربني. افترقنا بدون أن نودّع. عندما دخلت إلى منزلنا كان والداي لم يناما بعد. استمعت إلى عتابهما ثم نمت بكلّ ملابسي. ظللت مريضاً لمدة ثلاثة أيام. بعد ذلك لم أر زبيدة مرة أخرى؛ حتّى اسمها اختفى من فوق صندوق البريد.

الآن، كل صيف يقترب هو منطقة فارغة تكاد تكون قدريةً. الزمن لا يمرّ. أنا دائماً في الشوارع أتبع ظلّ زبيدة لأحاول الكشف عن سرّها، أظلّ أسير إلى أن أبلغ تلك العمارة ذات

الاسم المضحك والحزين: «أيام سعيدة». كل هذا يبتعد عني، ومع ذلك فإنه ما يزال يجعل قلبي ينبض. لم أعرف كيف أبقيها إلى جانبي، ولم أتمكن من تخمين ما كان يحدث وفهم الأخطار التي كانت تتهددها وتطاردها. كان لدي متسع من الوقت، ولا شيء كان مهماً. لم أحتفظ منها بسوى هذه الصورة عن مدرسة لم أدخلها أبداً. إنها ذكرى عن ذلك الزمن الذي كان كل يوم فيه هو نفس النهار، نهار واحد من الوجود، طويل ملتهب، حيث تعلمت كل ما يمكن أن أؤمله من الحياة: الحب، والحرية، ورائحة الجلد، ومذاق الشفتين، والنظرة الداكنة، والشهوة التي ترجف الجسد مثل الخوف.

❖

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

زينة

كان يُسمى طومي، لكن زينة كانت تُسميه غزال بسبب اسمه الثاني أرزيل لأنها وجدت أن معناه هو ما يعبر عنه بالعربية غِزال. وربما لأجل ذلك كان يعرف كيف يجري بسرعة متناهية. ولم يكن ذلك استثناء، فمدير المركز كان يسمّى السيد السّمكة، وأفضل صديق لطوني كان يسمى لوسيان ابن عِرس.

أبداً لم ير طومي شخصاً مثل زينة طوال حياته. غريبة، لها وجه جدٌّ صاف وناعم، يميل قليلاً إلى أحد الجانبين، عيناها خضراوان تنظران إلى البعيد، من خلالكَم، تلك العينان اللتان تبحثان عن شيء في السماء، عن غيمة، عن نجمة، عن طائر، لا أحد يعرف عمّا كانتا تبحثان.

لم ينس طومي ذلك الشتاء، فقد كان حديث عهد بالوصول إلى المركز، بعد قصة سرقة الدّراجة النارية وكل ما أثارته. كان قد غادر عائلة هيربو التي وضع عندها في بلْدة فوجور. لن يعود أبداً إلى هناك. إنه يحتفظ دوْماً، في جيبه، بشهادة مكتب التّوجيه المدرسي التي كتب عليها عبارة صغيرة تقول بأنه غير صالح للتعليم، وأنّه يوجّه إلى شهادة التأهيل في البناء. إنه يحتفظ دائماً بهذه الورقة في جيبه ويقول مع نفسه بأنه إذا ما صار، ذات يوم، شخصية مرموقة فإنه سيخرج هذه الورقة التي كتب عليها: بنّاء.

كان يغادر المركز في الصباح الباكر قائلاً بأنه سيذهب ليدرس في المكتبة لكنهم، هم، كانوا لا يلقون بالاً لما يقول. إنه موجود هناك فقط لبضعة أشهر قبل أن يذهب إلى باريس ليلحق بمركز التأهيل. كان يسير على غير هدى في أزقّة هذه المدينة التي لم يكن يعرفها. لم يكن يعرف حتى أسماء الأزقّة. كان يذهب إلى المقاهي بالمدينة القديمة، وهناك التقى روشي الذي كان يلقّب بـ «روزيت» ويتاجر في المخدرات.

من جهة البحر، كانت هناك، دائماً، نوارس تحلّق وسط الريح وهي تئنّ. في ذلك الزقاق رأى زينة لأول مرّة. كانت ترتدي ذلك المعطف الرّمادي لامرأة بئيسة، معطف غريب يهرب منها عند الوركين فيبدو مثل رودنكوت، ومع ذلك كانت جميلة حتي وهي ترتدي تلك

الملابس. كانت تسير ووجهها منحنٍ، وكانت شاحبة ولها تفاحة وجنتين جدّ ملساوين. لم تكن تنظر إلى أحد. ابتعد طومي ليتركها تمرّ. كان في سنّ الرابعة عشر وكان، مع ذلك، أطول منها. كانت قد مرّت وبالكاد ابتسمت مثل امرأة نلمحها على رصيف محطّة القطار فتتوارى وتذوب وسط انعكاسٍ ما.

في ضوء الشتاء، كان شعرها ينسج، حول وجهها، هالةً تكاد تكون حمراء. وكان هذا هو ما يجعل قلب طومي ينبض، تلك الجمّة المجعّدة التي كانت تقتنص الضوء. وكان عندها شيء من الغرابة والغياب. في تلك اللحظة، لم يكن يعرف شيئاً عنها، لا اسمها الذي هو زينة، ولا كونها يهودية. لم يكن لطومي أحد في هذا العالم، وكان، وهو في الرابعة عشر، قد فعل ورأى كل شيء، كان لصّاً ومتنشّقاً للمخدّرات، وكذّاباً وهارباً من العائلة ؛ إلاّ أنه كان «بكراً» بدون أيّ فكرة عمّن تكون المرأة، أي أنّه لم يكن يعرف سوى ما كان أولاد المركز يتداولونه عن فرج النساء، من خلال التّلميحات والصور البورنوغرافية وأفلام س. والذين كانوا يتكلمون بصوت أعلى كانوا هم الذين يخافون أكثر. بينما زينة، بطريقة مشيها ونظرتها، بوجهها المائل وشعرها النحاسيّ اللّون، زينة بكلِّ تلك الأشياء تسرّبتْ إلى أعماق طومي فلم يعد قادراً على نسيانها. كان هذا هو ما يجعل قلبه ينبض وحتّى اليوم، بعد كلّ ما حدث، فإن ذلك يشعله حزناً.

كانت تظهر كل يوم في نفس المكان، عند الزّقاق الذي يمتدُّ بعد الأوبرا والذي تبدو عند نهايته، الشمس متلألئة على البحر والنّوارس تطاردها الرّياح. كان طومي قد أمضى الجزء الأكبر من حياته في «ڤوجور»، ولم يكن يعرف أن هناك طيوراً على البحر، وأن هناك هذه الريح وذلك الضّوء. كانت زينة جد غريبة كأنما خرجتْ من البحر. ودائما كانت ترتدي ذلك المعطف الرّمادي هو ذاته الذي كانت ترتديه عندما جاءت من بلادها ونزلت من الباخرة. في الصباح، بسبب البرد، كانت تلفّ شعرها في شالٍ أسود، وكان وجهها يبدو شاحباً وعيناها تبدوان أكثر ابتعاداً وشفافية.

كل يوم، كان طومي يأتي إلى هنا، في هذا الزقاق، وينتظر أن تظهر. لم يكن يريد أن يرى شيئاً آخر في المدينة. لم يعد يرغب في أن يتحدث مع الأولاد الآخرين، ولا حتّى مع لوسيان ابن عرس. كان ينظر إلى مناورات بائعي المخدّرات في الساحة الصغيرة وهم ينتظرون مجيء روزيت ؛ ثم يعود إلى الزقاق لأن ساعة خروج زينة من الأوبرا قد حانت.

كان الزقاق ممرّاً بارداً ؛ والفتيات والفتيان يغادرونه بسرعة ؛ ولا أحد ينتبه إلى طومي. كان هناك أيضاً البار بأبوابه الدّوّارة المكسوّة بالبطاقات البريدية وبتذكارات من الصّدف، فكان طومي يطيل النظر إليها وهو يدير ظهره للريح.

حوالي الساعة الثانية عشرة يخرج التلاميذ وهم يتدافعون. كانوا ينبثقون من الباب الصغيرة للأوبرا ويجرون داخل الزقاق. كانوا يرتدون سترات رياضية وبناطيل جينز، وبعضهم يحملون آلات موسيقية داخل أغمدتها مثل الكمنجات والكلارينيت. وكانت هناك فتيات طويلات، رشيقات شعرهن قصير، وبنات صغيرات على شعرهن عقيصة الراقصات وتحت معاطفهن ثوب لصوق أسود. كان طومي يحب كثيراً أن يراهن خارجات من الأوبرا. كانوا يذهبون إلى بيوتهم وكان لهم آباء وأقارب ينتظرونهم في السيارات، فقد كان البرد شديداً لدرجة أن منافس السيارات كانت تكوّن سحباً من الدّخان. لو أنّ طومي لم يكن ينتظر خروج زينة لكان قدَمات من البرد هناك، في ذلك الزقاق. لم يكن يعرف حتى لماذا كان ينتظرها. لم يكن يتخيّل أنه يستطيع ألاّ يراها وألاّ يصافح نظرتها وابتسامتها. لم يكن يحاول أن يفهم. لعله كان يظنّ بأنها كانت خادمة وبأنها كانت تنظّف أرض الأوبرا بالماء والجافيل بعد أن ينصرف التلاميذ وهم يرتدون ستراتهم الرياضية.

❖

دخلتُ إلى الأوبرا. كان ذلك يوم السبت عند نهاية الظهر، ما أزال أتذكّر. ولم يكن هناك أحد في البناية سوى البوّاب الأصمّ وبعض التلاميذ المتلكئين. وبمجرّد أن دخلت سمعت صوتها. شيء غريب، كما لو أنني تعرّفت عليها فوراً حتى من قبل أن أراها. كان صوتاً، كيف أصفه؟ سماوياً، خيالياً. كنت منجذباً إلى صوتها كما لو أنّ أحداً يجرّني إلى أمام. كنت أمشي عبر الأروقة وأفتح الأبواب الواحدة بعد الأخرى على تلك القاعات الفارغة. وعند أعلى السلّم، في نهاية الرّواق، كانت هناك باب مواربة. هي قاعة مصاريعها مغلقة باستمرار، ولها نوافذ متّجهة نحو البحر مثل عيني أعمى.

رأيتها. كانت واقفة، مرتدية فستانها عديم الشكل ومنتعلة خفّها الأبيض بكعبيه المرتفعين اللّذين يوحيان بأن ساقيها مقوّستان. على مقعد، قرب الباب، كان هناك المعطف الرمادي الفظيع الذي طوّته بعناية كما لو أنها كانت توجد عند الطبيب.

ما رأيته بالأخص، هو وجهها. كانت مستديرة بثلاثة أرباع وجهها وضوء اللّمبة الكهربائية العارية يشكّل نوعاً من اللّهب فوق رأسها. كانت تغني، وحدها، أمام البيانو المغلق ذلك اللّحن المقتطف من أوبرا «دون جيوڤاني»، الدّونا إلڤيرا، «لقد خدعتني تلك الروح العقوق»، وبغنائها كل شيء كان مختلفاً. كان بصرها، الآن، مستديراً نحوي، ولون قزحيتيها الأخضر يلهبني وأنا لم أحس قط بمثل هذا الانفعال. كانت زينة تغني كما لو أنها تفعل ذلك من أجلي، كأنها قد وصلت إلى حيث أوجد وكما لو أنني جئت إلى حيث يتحتّم عليّ أن أجيء متبعاً خيط صوتها عبر وحدة حياتي ومرارتها.

هي التي أُريد أن أتذكّر وأن أتذكر صوتها الخارق للعادة. كيف وصلتْ إلى تلك القاعة؟ لا أدري، وأبداً لم أعرف كيف وصلت. خيل إليّ أنها هي التي كنت أنتظر منذ الأبد، وأن من أجلها قد عشت وتحمّلت الكونسرفاتوار، والتدريبات الطويلة والضجر المنبعث من تلك القاعات الرمادية حيث كنت أُعلم الڤيولونسيل والكونسرتات المألوفة.

لا أعرف لماذا فكرتُ في جدّي شاييم. خُيّل إليّ أنّه عرفها، وأنها عن طريقه قد وصلتْ إليّ، إذ لا يمكن أن تكون هناك صدفة في الأمر.

غريب! كلّمتُها فوراً عن جدّي شاييم الذي كان أول عازف على الكمان في أوبرا مستغانم. كانت تبدو جدّ فتيّة تكاد تكون طفلة، رغم ملابسها المخالفة للموضة. «ماذا تريدين يا آنسة؟» طلبت منها ذلك أول الأمر، بطريقة حسنة بعض الشيء، لأنني لم أكن أريدها أن تخمّن انفعالي. أجابتني بأنها تريد أن تتعلم الغناء وأن تحضر دروس الإنشاد. فكرتُ في أن أُحيلها على السكرتارية من أجل التسجيل، وكدت أقول لها –أو ربما قلت لها ذلك بالفعل– «تعلمين أنني مثقل بالشغل ولا أستطيع أن أفعل شيئاً من أجلك». منذ أن حمل البوّابون بيانو ستينواي الذي تملكه جولييت من أجل أن يسدّدوا مستحقّات الدائنين، لم يعد لي مكان آخر أتدرّب فيه على العزف. هي، زينة، بقيت في المكان نفسه تحت اللّمبة الكهربائية. سألتها عن المكان الذي تعلمت فيه الغناء وقلت لها: « غنّي مرة أخرى، فأنا مستمع إليك.» غنت لحن Lucie de Lamermoor ولحن L' Italiana in Algeri (الإيطالية في الجزائر) فأدركت ما عرفته على الفور عندما كنت أصعد السلم باحثاً عنها، وهو أنها هي بالذات التي استمعت إليها منذ الأزل، وهي التي من أجلها عشت ملتحماً بالموسيقى. كان صوتها سهلاً وخفيفاً، وكانت تتسرب إلى دخيلتي وتوقظ أقدم الذكريات في نفسي. بعد ذلك، حكت لي أنها تعلّمت وحدها، قديماً، في الملاّح وهي تنصت إلى أسطوانات عمّها موسى. وعندما اضطروا إلى الرحيل، كان عمّها قد مات، وهي غادرت أباها. كانت تشتغل لتعيش، فكانت تخدم في البيوت وتحرس الأطفال. لم تفارق، قط، معطفها الرماديّ.

هكذا دخلتْ زينة إلى حياتي. كل يوم، عند نهاية الظهر وبعد أن تفرغ الأوبرا كانت تأتي إلى القاعة ذات المصاريع المغلقة لألقّنها درساً في الموسيقى. معاً، كنّا ننشد الألحان الكبيرة: فاوست، روميو وجولييت، البوهيمية، وبالأخص الألحان الإيطالية، وكانت تحفظ جميع الكلمات والأشعار بدون أن تفهمها: عايدة، لاترافياتا، إيلتروڤاتور. كان لها صوت جميل. أحياناً، كنا نغني معاً المقطع الذي كانت تفضّله وهو موجود في أوبرا «دون جيوڤاني» لموزار ويتعلق بالحوار بين دون جيوڤاني وإلڤيرا. بعنوان: هناك أمدُّ لك يدي:

هناك أمدُّ لك يدي، هناك تَستجيبين لي

ها أنت تريْن، ليس ذلك بعيداً

لنرحل من هنا يا جميلتي...»

ثم زرلينا وهي تقول:

«أودّ ولا أودّ

قلبي يرتعش قليلاً

صحيح أنني سأكون سعيدة، لكن قد يخدعني مرة أخرى»

وبالأخص لحن آنا:

«لا تقُل لي يا معبودي الجميل إنني قاسية معك

أنت تعلم جيداً كم أحبك...»

كنتُ أريد أن أعرف أشياء عنها وأن أطّلع على حياتها. ذات يوم، وضعتُ عليها أسئلة: «هل تعيشين وحدك؟ هل يوجد رجل في حياتك؟» نظرت إليّ بنظرتها الباردة، المتحرّزة ثمّ انقطعت عن المجيء فانتبهت إلى أنني محتاج إليها أكثر مما هي محتاجة إلى دروسي؛ وهذا الشعور آلمني، وجعلني أشعر بالخجل وحال بيني وبين النوم. كانت بي حاجة إلى أن أسمعها وهي تنشد «هنا، أمدّ لك يدي». كان أمراً مضحكاً وغير محتمل. أنا، جان أندريه باسيه، عازف الكمان في الأوبرا، المتجاوز لسنّ الخمسين، المتزوّج من جولييت، الغارق في التوحد، العائش في هذه الشقة الكبيرة العتيقه بزقاق الأوبرا، أحس بمثل هذا الاحتياج إليها.

إن زوجتي جولييت هي التي أرادت أن تأتي زينة لتعيش معنا في البيت. كانت هناك، بنفس الطابق، غرفة مستقلة استعملت قديماً للخدم وكانت تسمى «الغرفة المغرقة» لأن الماء كان يغمرها كلّما هبّت عاصفة. هناك استقرّت زينة طوال تلك السنوات العجيبة والفظيعة التي سبقت اختفاءها. كانت تمرّ بمرحلة صعبة، ولم تعد تتوفر على نقود وليس لها من مكان تذهب إليه. كانت قد التقت جولييت بالمنزل فأعجبتها في التوّ. كانت جولييت مريضة وأزمات ربوها غدت متقاربة وقوية أكثر فأكثر. كانت تقول لي: «أقسم لي بأنك لن ترسلني إلى المستشفى وأنهم لن يضعوني داخل رئة من الفولاذ». وطلبت مني أن أقول لزينة بأن تبقى معها. «هكذا، ستكون أقلّ وحدة»، قلت لزينة. كنت أخشي أن ترفض، وفي الوقت نفسه لم أكن أستطيع أن أتصورها جدّ قريبة مني، وفي كل لحظة. قبلت زينة بكل بساطة. ذات صباح وصلت إلى الغرفة المغرقة. لم تكن تحمل شيئاً آخر سوى حقيبة صغيرة ومعطفها الرمادي الشهير. جاءت مرفوقة بشاب صغير حسبته، أول الأمر، غجرياً، أدكن، له عينان جميلتان دائماً تترصّدان. وعندما لاحظتْ أنني أنظر إليه ذكرت لي اسمه، اسماً غريباً: «غزال». قالت أيضاً: «إنه لصّ، لكنه لطيف» كان يرافقها في كل مكان. عندما كانت تحضر لدرس الموسيقى، عند نهاية الظهر، بالأوبرا، كان يجلس على الأرض في الردهة، أمام الباب، أو كان يبقى على درج السلّم. لم يكن يريد أن يدخل إلى القاعة ذات المصاريع المغلقة.

كانت تلك السنة عجيبة، متلألئة ؛ أتذكرها الآن وقد انتهى كل شيء. حتى زوجتي جولييتْ تحوّلتْ. كانت نظرتها تغدو أكثر حيوية عندما كانت زينة تتكلم. كانت مستعجلة، نافدة الصبر، وباستمرار تذهب لتدق على بابها. كانتا تظلاّن معاً طوال ساعات وهما تتحدثان. كانتا تذهبان للنزهة ولقضاء بعض المشاغل. لكن زينة لم تكن تدخل قط عندنا.

لا شيء ظل مثلما كان عليه من قبل. كانت زينة حاضرة باستمرار حتى عندما كنت لا أراها إلاّ في فترة الدروس، أو أحياناً ألمحها، صدفة، في الأزقة المجاورة أو في السلّم. لم أكن أفهم ماذا كان يحدث لي. لعله كان الحب، أو الرغبة، إلاّ أنني لم أكن أفكر في ذلك. ولم أتخيل، ولو للحظة، مثل هذا الأمر. لعلها كانت هي، شبابها، جمالها، أو رنّة صوتها مافتنني وشدّني إليها.

أتذكر، بعد الظهر في فصل الربيع، كان المطر ينزل مدراراً. كنت قد عدتُ إلى البيت متعباً من التدريبات الموسيقية ومبللاً حتى العظم. كنت قد صعدت السلّم وكانت هي هناك جالسة أمام الباب. كان الماء يتساقط من المزراب داخل غرفتها وهي تبدو حائرة ضائعة. أخذت سطلاً وممسحة من جنفاص وبدأنا، نحن الاثنين، ننشف أرض الغرفة ونحاول أن نسدّ المنافذ التي تسرب منها الماء تحت النافذة. عندما انتهينا، جلسنا فوق سرير المخيّم متعبين، مبللين وضحكنا وتكلمنا كما لو أنه لا يوجد فرق بيننا وكأن لنا نفس السنّ، وكأننا عشنا دائماً سويةً. كان جدّ سهل أن أكون معها هناك. كانت جمّة شعرها الأحمر تلمع بقطرات الماء. وكانت تتحدث عن «الملاّح» وعن الأسواق، سوق الدبّاغين وسوق الحدادين ؛ كانت تتحدث عن البيوت والفنادق. وكنت، أنا، أحدثها عن بلدة مستغانم كأنني عشت فيها مع جديّ شاييم، وعن الأماسي التي كانت تتلألأ خلالها أضواء المسرح. لم تعد لي سنّ وكذلك زينة لم يعد لها عمر. كلُّ شيء كان جديداً ومنيراً. كانت العاصفة مستمرة والمطر يتساقط على النوافذ، لكن ذلك لم تعد له أهميّة.

كانت زينة مسجّلة لأداء المباراة. كانت تتدرّب كل زوال في القاعة ذات المصاريع المغلقة. والآن صار هناك تلامذة يمكثون للإنصات إليها. وعندما كانت تغني لحن جيوفاني : «هناك أمدُّ لك يدي» أو مقطع «قاسية؟»، تغني هناك في تلك الغرفة العتيقة التي لم تدخلها الشمس قط، كان السحر ينبعث وتنبثق قوة غامضة. نعم لقد كانت السعادة والرغبة تتفتّحان في تلك القاعة وتعدمان ما عداهما. كنت أنتظر لحظة التدريبات بفارغ الصبر. لم يعد هناك شيء يهمّني وأضحى عزفي على الفيولانسيل، مع الأوركستر، يضجرني ؛ وقد تنبّه الموسيقيون الآخرون إلى ذلك. كانوا يعلمون. كانوا يتهامسون بأشياء.

أحدهم، عازف ناي اسمه سانتيسي، أخذني ذات يوم على جانب وكان يريد أن يقول لي شيئاً لكنه لم يتمكّن: «يا شيخي العزيز، عليك أن تتدارك أمرك... تفهم، عليك ألاّ تنقاد

لـ...» نظرتُ إليه بشراسة: «أنْ أتدارك؟ أن أنقاد؟ هل تعتبرني شيئاً وجدته في الطريق؟» كانوا قَلقَين، يغارون منّي. الآن يمكن أن أتخيّل أنهم كانوا، هم أيضاً، منجذبين نحو صوتها ومشدودين إلى الشعلة المضيئة فوق شعرها وإلى نظرتها الشفافة. لا شك أنهم قد خمنّوا، هم أيضاً أن الأمر لن يكون دائماً على هذه الحال، وأنها لا تعدو أن تكون لحظة، ارتجاجاً، رفّةً، وأن الصمت والفراغ اللّذين سيعقبان، سيكونان أكثر فظاعة.

الآن، رحلتْ زينة. لم تقل إلى أين ستذهب. لم تُشارك في المباراة. ببساطة، اختفتْ. ذات مساء، وقد مرّ وقت طويل على رحيلها، أُصيبتْ جوليتْ بأزمة أكثر حدّة. كانت ممدّدة على البلاط شاحبة، ووجهها هزيل. كانت تتنفس بصعوبة كأنّ حجابها الصدري يرفع ثقْلاً مرعباً. وجدتها هناك عند عودتي من الأوبرا. كانت نظرتها تلمع من الألم والقلق.

«هل جاءت زينة؟» تلفّظَتْ هذه الكلمات ببطء وهي تضغط على يدي بكل قُواها. «تريدين أن أناديها؟» قلتُ ذلك وكأنني أتكلم مع طفل مريض لأُطَمْئنه. حركتْ رأسها «لا، لا، أريد فقط» كانت تنظر إليّ بنوع من الدهشة كأن ما كانت تقوله لم يكن صادراً عنها. قالت: «أَنتَ تحبُّها». لم يكن ذلك سؤالاً. لم أعدْ أتذكر ما قلته ولا ما فعلته. لا شك أنني تلْفنتْ إلى شرطة النجدة. رغم وعودي، تركت الممرضات يأخذنها إلى المستشفى. لم تعدْ زينة أبداً إلى هذا المنزل.

❖

«اعلَم، يا غزال، عندما كنتُ طفلة لم يكن هناك حيّ أجمل من الملاّح». كانت زينة دائماً تبدأ حديثها هكذا. كانت تجلس على الرمل وطومي يجلس إلى جانبها. وكان ذلك، غالباً، في الصباح. وفي المساء، كانت ترتاد مطاعم تتلألأ مثل البواخر. على رمال الشاطئ، صباحاً، كان ذلك حسناً. النوارس تحوم، كل ذلك يعطي انطباعاً كما لو أنّه لم يكن يوجد شيء آخر في العالم، وكما لو أنّ كل شيء يمكن أن يدوم إلى الأبد.

«آنذاك، كنّا نسكن بيتاً جدّ عتيق، ضيّق، مجرد غرفة في الأسفل حيث كان ينام أبي مع عمّي موسى، وأنا كنت أنام في غرفة بالأعلى. كان هناك سلّم للصعود إلى السقف حيث يوجد المغسل. كنت أنا التي تنظف الغسيل، وفي بعض الأحيان كانت خديجة تأتي لتساعدني؛ وهي ثخينة، فلم تكن تستطيع أن تتسلق السلّم وكان علينا أن ندفعها. وبالقرب من بيتنا، كان يوجد المنزل الأزرق. لم يكن أزرق، لكننا كنّا نسميه هكذا لأن بابه الكبير كان مطلياً بالأزرق وكذلك نوافذ بالطابق الأعلى. وكانت هناك، بالأخص، نافذة جدّ مرتفعة، في الطابق الأول، تطلّ على شرفة مدوّرة. كان ذلك هو بيت امرأة عجوز يسمونها الخالة

راحيل، إلاّ أنها لم تكن، حقا، خالتنا. يقال بأنها كانت جدّ غنية ،لم تقبل قط أن تتزوّج. كانت تعيش وحيدة في ذلك البيت ذي الشرفة التي استوطنها الحمام. كنت أذهب كل يوم، لرؤية بيتها. ومن شرفتها، كنت أحلم بأن أشاهد المنظر برمته، المدينة، النهر بالمراكب التي تجتازه، وصولاً إلى البحر. لم تكن العجوز راحيل تفتح النافذة قط، ولم تكن تخرج إلى الشرفة لتطلّ على المنظر. ربّما لم يكن يهمّها أن تنظر إلى كل ذلك، أو لعلها لم تكن حتى تفكر فيه. ربما كانت حزينة لأنه لايوجد أحد يقاسمها التملّي بالمشهد، لقد عاشت دائما في ذلك البيت الكبير، وفيه ولدت، وعندما مات أبوها وأمها، بقيت وحدها» .

كانت زينة تتكلم ببطء كأنما كانت تحاول أن تتذكر. كان كل شيء جدّ بعيد، ضائعاً في الجانب الآخر من البحر. وكان طومي يقترب كثيراً منها مستنداً إلى جسدها وهما على الشاطئ. وكانت زينة تضع ذراعها حول كتفيه. أبداً، ما من فتاة ضمّته مثلما كانت تفعل زينة. كان يكفّ عن الإحساس بالبرد وبالجوع، ولم يعد يتخوّف من المستقبل. لن يعود أبداً إلى المركز. والشرطة لن تعثر عليه، سيعرف كيف يهرب ويختبئ ؛ ولأجل ذلك كان اسمه غزال.

كانت زينة تتكلم عن مدينتها، عن الأزقة المنحدرة، وعن السلالم والأبواب السرّية والممرّات ؛ وفي الأسفل النهر الكبير بأمواج المدّ والجزر التي تدفع الأغصان الميتة وتطرد النّوارس.

«اعلم، يا غزال، أنّ الملاّح كان هو العالم بالنسبة لي. لم أكن أكاد أخرج من الحي، أو إذا خرجت فلألقي نظرةً على رصيف الشحن في الميناء أو لأرافق عمّي موسى إلى الدكاكين. أحياناً، كنا نذهب أيضاً إلى المقبرة المطلّة على البحر. كان عمّي يحب المقابر كثيراً. في الملاّح كنت أعرف كل زقاق وكل ساحة وكل زاوية من زوايا المنازل. كان بالغ السّعة والامتداد، وكان يسكنه ناس كثيرون لدرجة أنه كان بإمكان المرء أن يولد ويموت داخل الملاّح من دون أن يغادره أبداً، مثلما حصل للعجوز راحيل. كان عمي موسى خياطاً، يعني ليس خياطاً بمعنى الكلمة. كان يملك آلة للخياطة، ومن حين لآخر يأتي إليه شخص ومعه قطعة قماش: يا موسى، كم تطلب مقابل أن تخيط لي بدلة من هذا الثوب؟ كان موسى يحرك رأسه وهو يقول: يا صديقي المسكين هل تتحدث عن المال أم عن الوقت؟ لأنه إذا كان الأمر يتعلق بالنقود فإنني أستطيع أن أخيط لك بدلتك مقابل لا شيء، من دون أجر. وعند هذا الحدّ، كان عمّي ينتظر ثانيتين أو ثلاثاً ليتبيّن وقع جوابه على مخاطبة ثم إنه عندما كان الزبون يبتسم كان يحسم الموضوع: لكن إذا كان الأمر يتعلق بالزمن، فأظن، يا صديقي المسكين، أن الانتظار سيطول بك كثيراً ولذلك سيكون من الأفضل لك أن تشتري بدلتك جاهزة. صدّقني، ليس انعدام الإرادة من جانبي، لكنك لو رأيت أكداس العمل التي تنتظرني، لذهبت فوراً إلى السوق لشراء بدلتك. كان عمّي موسى نفّاجاً إلاّ أنني كنت أتسلّى كثيراً معه.

كان هو الذي يأخذني للنُزهة عند النهر أو يصحبني إلى السوق لشراء الخضَر. بعد الظهر، كان يسمعني اسطوانات الأوبرا ويعلمني الكلمات بالإيطالية ويغني معي. وكان يأخذني أيضاً إلى الفنادق لنستمع إلى الموسيقى الأندلسية ونتفرّج على الراقصين وهم يدورون ومعهم مقصّات كبيرة ينقرون عليها إيقاعاتهم ويغنون بصوت حاد، وعمي موسى يجيد تقليدهم».

كانت زينة تري طومي، على الرمل، كيف كانوا يرقصون، فكانت ترقص وهي حافية القدمين على الحصى، ضابطة الإيقاع بيديها فيما تغني أغاني أندلسية بصوت حادّ وغريب مثل صرخات النوارس. بعد ذلك، كانت تواصل الحكي وطومي يلتصق بها ليسمع صوتها يرنّ داخل جسده.

«كنّا على أحسن حال، في «الملاّح»، لم نكن قط وحيدين. كان هناك أناس في كل مكان، والجميع يتعارفون ويتبادلون السلام وينظر بعضهم إلى بعض. وعند ما كنت أنحدر نحو النهر، عبر السلالم، كان الأطفال الآخرون يسيرون معي، فكنا نلتقي في كل زوايا الزقاق ونصرح ونتنادى: فاضل! سعيد! سليمان! موسي! كنّا نمشي إلى أن نبلغ المكان الذي يتوقف عنده البحر، فكنا نرمي الأحجار في الوعاء وننظر إلى النوارس والكروانات وهي تطير. كنا ننظر إلى مصبّ النهر وقوارب الصيادين. والشمس الغاربة وراء البحر ؛ أتذكر أنني ظننت أن ذاك هو نهاية العالم ولا شيء يوجد وراءه»

«وأمُّك يا زينة؟»

«أمي ماتت بسبب التيفويد وأنا في الخامسة من عمري. لا أتذكرها. أبي كنت أخافه، غير أنه لم يضربني قط. لكن عمّي موسى هو الذي كنت أحبّه. كان مجنوناً بعض الشيء، ولم يكن يعرف كيف يشتغل. كان أبي يقول عنه بأنه لا يصلح لشيء. وعندما كان عمّي يغضب كان يتكلم بالعربية أو بالإيطالية مثلما هي في الأوبرات. كان يقول: خائن! قاسٍ! (perfido! crudele!) وكان ذلك يضحكني».

«لكنه كان يحبُّك، أبوك؟»

«نعم ، كان يحبني على طريقته. إلاّ أنه كان يواجه مشكلات مالية. ثم مع الحرب، صار الوضع صعباً. كان الناس يغادرون «الملاّح» ولم يكونوا يعرفون إلى أين يذهبون. ولم يكن الشيوخ يريدون الرحيل، فهم قد عاشوا دائماً هناك، ولم يكونوا يقدرون حتى أن يتخيلوا كيف كانت الحياة في فرنسا. عمي موسى لم يكن يريد أن يفكر في الموضوع. ذات يوم، عاد مهموماً من نزهته ؛ وكان ذلك بسبب العجوز راحيل التي كسرت عنق فخذها وحملوها إلى المستشفى. وكان أحفادها قد حضروا من فرنسا ليبيعوا منزلها. لم يكن باستطاعتها أن تعود مرة أخرى إليه ؛ وكان هذا هو ما يشوّش بال العم موسى. وعندما تحتّم علينا الرحيل، بعد الاستقلال، باع أبي كل ما يملكه، هيأ الحقائب واشترى تذاكر الباخرة للجميع، لكن العم

موسى لم يحتمل. كان الشتاء في بدايته، فنام العمّ وَظَنَنّت أنّه قد أصيب بالزكام. وكان على الباخرة أن تقلع بعد خمسة عشر يوماً. إلاّ أنه مات لأنه لم يكن يريد الرحيل. عندئذ، تكفّل أبي بالدّفن، ثم ركبنا الباخرة الموالية».

كان طومي يلْتصق بزينة ويسمع صوتَها داخل صدره. كان يُخيّل إليه أنه كان هناك، هو أيضاً، في تلك المدينة ذات الأبواب الزرقاء، والسلالم، والممرات، والنهر، ورصيف الشحن في الميناء، والمقبرة تطل على البحر، والجدران الصلْصالية والأبواب ذات الأسماء الجميلة مثل باب العودة، باب الريح. لأجل ذلك، لم يكن يريد أن يعود إلى المركز لينام في المهجع مع أولاد آخرين، ويسمع ضوضاءهم الفاحشة ويشمّ روائحهم، خاصة الآن بعد أن رحل صديقه لوسيان ابن عرس ليعيش مع أناس، بعيداً عن الألزاس.

« تعرف، يا غزال، في الملاح كان هناك أولاد في كل مكان يظلون جالسين ينظرون إلى الزوارق في كل مكان، كان هناك أطفال يلعبون، يتكلّمون، يكلمونك، وينادونك باسمك عندما تمر...» كان طومي يغلق عينيه كما لو أنّه سينام.

في الليل، كان طومي ينتظر أمام العمارة العصرية، فوق التلّ. وعندما كانت زينة تعود وحدها، كان يدخل معها. كانت شقّتها بيضاء كلّها، بدون أثاث تقريباً، فقط بعض المخدّات على الأرض. كان ذلك عجيباً كأنها شقّة في أحد الأفلام. استعداداً للنوم، كانت زينة ترتدي قميصاً طويلاً أبيض. وكان طومي يرقد محتمياً بها ليتدفأ. وسط الظّلمة، كانت تواصل حديثها عن الملاّح والمقابر. كانت تحدثه عن المقابر التي كانت تزورها، وجميعها كانت جميلة، هادئة، بها قبور الفقراء وشواهد الرخام للأغنياء حيث نقشت أسماؤهم. والنبات يعلوها. كان هناك سناجيب تسكن القبور. وكان يسمع أزيز الريح وهدير البحر على الأرصفة. أحياناً، يوم الجمعة، كانت العائلات تأتي ومعها شيوخ يرتّلون الصلوات ويتمتمون الدّعوات بنبرات تشبه طنين الزّنابير. قديماً، كان طومي يخاف المقابر، لكنه الآن، بسبب زينة، كثيراً ما يتردّد على المقبرة في الجزء الأعلى من المدينة. أحياناً ترافقه زينة فيسيران بين القبور ويقرآن الأسماء ثم يجلسان في الفوق تماماً من حيث يبدو البحر والشّاحنات البطيئة وهي تتقدم على امتداد الأفق.

في الليل، كان ينصت إلى زينة وهي تتكلم. كان يحيطها بذراعيه، ويحس حرارة جسدها فينتصب ذكره. كانت الشّهوة تؤلمه مثل حرقة. إلاّ أنه لم يكن يستطيع أن يتحرك خوفاً من أن يبطل سحر اللحظة. كان يخشى أن تطرده زينة في اللّيل، فيتحتّم عليه، من جديد، الجري لتجنّب رجالَ الشرطة. وإذن، كان يبقى بدون حركة، متوتراً، ينصت إلى أنفاس زينة. وعندما ينتظم نفسها، كان يتمتم: «هل تنامين؟» ولم تكن تجيبه.

في تلك الفترة، كانت زينة قد أصبحت عشيقةً لـ «أورسوني». كان طومي يعرف ذلك، فقد سمع روزيت، ذات يوم، يشير إلى ذلك في البار الذي كان يتمشى بالقرب منه.

كان طومي يكره أورسوني لكنه لم يكن يريد أن يفكر فيه، ربما لأنه كان يَخشَى ما سيحدث.

❖❖❖

بالغة الجمال، زينة، مرتدية فستانها القرمزي، عندما دخلت إلى بَهْو فندق مارتنيز، مرفوقة بوميض فلاشات المصورين، وهي تخترق الحشد إلى أن بلغت السلّم والضوء يلمع فوق كتفيها منيراً شعرها، ملهباً الماس في إكليلها، تلك الهدية الوحيدة التي قبلتها من أورسوني. وهو، منسحباً قليلاً كأنه يقتفي أثرها، وجهه شاحب وشعره مقصوص بالفرشاة، وعلى محياه تلك الطيبوبة المستكنّة التي يظهرها، أحياناً، النّصابون والسياسيون الذين أدركوا قمّة مهنتهم ولم يعد هناك ما يَرغبون فيه سوى بريق الكرامة الذي يلوّح لهم به الصحفيون.

ولقد كان الصحفيون حاضرين، بالضبط، في شكل بَاليهْ لا يتوقف منَ المصورين الذين يرافقون زينة في مسيرتها المظفّرة. ولما كانت تبتسم دون أن تجيب، فإنهم كانوا يوجهون أسئلتهم إلى رجل الأعمال: «أستاذ ! من فضلك نريد كلمة عن مشاريعك. ما هو موقفك من قضية دارني! أستاذ»» وبحركة نافدة الصبر، كان أورسوني يطرد تلك الحشرات ثم يتنازل بتعجرف قبل أن يجتاز العتبة الفخمة ليرد عليها باللاتينية: «المشكل غير قائم!» ويختفي في بهو الفندق بينما الصحفيون المنذهلون يرددون عبارته مع تشويه في النّطق.

أما زينة، فما منْ أحد كان يمكنه أن يُقرّ بما كانتْ عليه، منذ خمس سنوات، عندما كانت تدخل من باب الأوبرا الصغيرة، مرتديةً معطفها الرمادي وعلى محيّاها تلك النظرة الشفافة، الساهمة، التي تعلو وجوه الأطفال الضائعين. اليوم، في بهو الفندق، كانت نظرتها من معدن صلب، وكان الضوء يلمع على وجهها وكتفيها كأنه يلمع فوق قشرة بيضة.

هي التي كنت أريد أن أراها. منذ أن رحلتْ، ذات يوم، بدون أن تُعلن عن وجْهتَها، وأنا أبحث عنها. بعد مرض جولييت أصبت بصدمة ولم أعد أعرف ما أفعل. كنت أهيم في الأزقة، خلال الليل، مؤمّلاً أن ألمح زينة، صدفةً، مثل برق وهي راكبة في سيارة تمرّ أو من خلال انعكاس ضوء. بل إنني طلبت من وكالة لاقتفاء الأثر أن تبحث عنها (أتذكر النظرة الساخرة للمخبر وهو يتفحص صورتها) ؛ ونشرتُ إعلانات في الصحف... وذات يوم وقعت على صورتها هذه بإحدى مجلات الموضة. أسبوعاً بعد أسبوع، كنت أتعقّب أثرها... بمجرد ما تنتهي دروس الموسيقى أو عند استراحة الزّوال، أو بين التّمارين، كنت أذهب إلى مكتبة الصحف والمجلاّت. كان ذلك في نهاية أبريل والمباراة تقترب. وكانت في الجّو حرارة ثقيلة تشبه الكهرباء. والعواصف تتفجّر في نهاية الظهر مغرقة الغرفة التي ظلت فارغة منذ رحيل زينة. ظلّت جولييت، منذ عودتها من المستشفى، بدون شجاعة. ولم أكن قد كلّمتها أبداً عما حدث، ولا عن ذلك الزوال الذي دخلت فيه إلى غرفة زينة. كان ذلك جدّ بعيد، كان قديماً

مثل حُلم يغمرة النسيان.

كان المهرجان الغنائي يقترب. وكان يجب أن ينتهي كل شيء قبل ذلك وأن أعرف كلّ شيء. ستكون زينة حاضرة، فالجميع يتحدث عنها وعن أورسوني. هو الذي دفع زينة مثلما دفع أُخريات قبلها. المال، العلاقات، عالم الفرجة انفتح أمامها، والإلاهة الجديدة بدأت في الصُّعود. داخل غرفة الصحف والمجلاّت المعتمة، لم أكن أقدر على أن أنزع بصري عن صورة أوبرا ڤيينا وعن تلك الحلقات الضوئية المحيطة بخشبة المسرح والنجمة المفتوحة على السّقف. لا شك أن هذا هو ما حلمتْ به زينة، قديماً، عندما كانت تعمل في الوحدة والفقر وعندما كانت تصعد السلّم إلى الغرفة ذات المصاريع المغلقة. إنها لم تكن تفكر في النساء اللائي كيّفهنّ أورسوني بحسب ذوقه، قبْلها، النساء اللاّئي علمهنّ كل شيء، بما في ذلك اسمهن، ثم إنهنّ سقطن فيما بعد: رجعن إلى آلاتهن الكاتبة، إلى جلسات الموديلات، إلى التحايل على العيش، أو إلى ما هو أدنى، فصرن قوّادات، متعرّيات أمام الملإ، عاهرات داخل التاكسيات. والآن، يتكلمون أيضاً تلميحاً، عن اللاّئي سقطنَ بالفعل. فبعد تلك الشهور من الاحتفال، كانت القطيعة لا تحتمل ولم يتحمّلن الفراغ. يتكلمون عنهنّ بوصفهنّ غائبات، ميّتات.

كان هذا هو ما يضغط على قلبي. بدَلاً من أن أُحضّر المباريات والتّمارين، كنتُ أتصفحّ بعجلة محمومة، بعد ظهر كل يوم، الصحف والمجلات بحثاً عن زينة وأنا هارب، يوماً بعد يوم، وراء آثار غير مؤكدة.

كانت تظهر، في البداية، على يَخْت الأستاذ أورسوني المسمّى «ديدالوس». وأوردتْ صحيفة شبيجل صورتها الجانبية بصحبة رجل صناعة ألماني غني، عند افتتاح فندق بأمستردام. وفي مجلة سويدية، كانت مصوّرة بجانب مركب شراعي للسّباق صنعته أوراش تيركو بفلندا. وعلى بعض تلك الصور، في الخلف، دائماً يبتسم بسمته المطمئن للرجل الشريف، كنت أتبين وجه أورسوني. إلى جانبه، يبدو مساعده، وهوشابّ إيطالي اسمه بانيولي، وكان، حسب الشائعات، مرتبطاً بسيّده بروابط لا علاقة لها بالود، فقد أصبح بانيولي أحدوثة في الصحف منذ سنوات عند اغتيال السيناتور رابام وهو طبيب نفسي قريب من السلطة، طعن داخل مغطس حمّامه مثل مارا. وكان بانيولي هو المتهم الأول ثم كان متهماً في محاكمة مدوية قبل أن يبرأ بفضل تدخل سيّده أورسوني، منذ ذاك غيّر بعض الصحفيين السيئ الظن اسمه إلى بينيال وأشاعوا بأنه أصبح هو القيّم على منزل مَنْ أنقذه من السجن.

وفي صحيفة «لاستامبا» قرأت مقالاً قصيراً عن الدور الذي ستلعبه زينة في النّسخة السينمائية لعطيل التي ألفها ڤيردي وأخرجها إيتوري سكولا وشارك في إنتاجها أورسوني. والفيلم سيتمّ تصويره في ڤيينا وروما. كان وجهها فارغاً، مفزعاً، غائم القسمات وعيناها غائبتان. الآن، في معظم الصور تحمل نظارة سوداء كبيرة تقضم وجهها، وفستاناً أسود يظهرها

أكثر نحولةً وهشاشة. كانتْ دوّامة حملتْها عبر العالم، ليلاً، من ضوءٍ لضوء، محرقة وجهها وعينيها وصوتها.

وفي نهاية طريقها. كان المهرجان الذي جئتُ إليه. رأيتها، لحظةً، وأنا ضائع وسط الحشْد الذي كان يتزاحم على درج الفندق. أردتُ أن أصرخ باسمها لكن حنجرتي ظلّت معقودة. في كل الأحوال، هل كانت ستسمعني؟ مجردُ برق، فستانها الأحمر المعتم، ولمعان شعرها وبياض كتفيها الوهمي. وجهها الأملس ساهم، متعبٌ مثل وجه طفل. كان المصوّرون يزحزحونني ويدفعونني إلى الوراء، وكانت نسوة أخريات قد وصلْن ويصعدن درج الفندق والفلاشات تفرقع. شعرت بالغثيان. بإحدى المقاهي، قرب محطة القطار، فيما المطر يستأنف النزول، بدأت أكتب رسالة. كنت أريد أن أسلمها لبوّاب الفندق. على الورقة البيضاء لم أعرف ما أكتبه، فوضعت الكلمات الأولى من الحوار الثنائي الذي كانت تغنيه معي، قديما، في الغرفة ذات المصاريع المغلقة حينما كنت أرافقها بالعزف على البيانو:

«هناك أمدُّ لك يدي، هناك تستجيبين لي

ها أنت ترين، ليس ذلك بعيداً

لنرحل من هنا يا جميلتي...

– أودُّ ولا أودُّ، قلبي يرتعش قليلاً

صحيح أنني سأكون سعيدة، لكن قد يخدعني مرةً أخرى...»

لكنني توقّفتُ عن كتابة الرسالة، دعكتُها ثم رميتُها وانطلقت تحت المطر عبر جميع تلك الأزقة المليئة، تلك الأزقة التي لم يكن بها أحد.

❖

شاحبة، نحيلة، في فستانها الأسود، لم تعُد تغادر الشقة الموجودة في العمارة الجديدة بأعلى التلّ. عندما عاد طومي إلى هناك، بعد كلّ تلك السنوات، أحسّ بالخوف لأن المكان أصبح جد فارغ. لا شيء، في الحقيقة، تغيّر إلاّ أن الإهمال والوحدة كانا ظاهرين. كانت زينة تنام على لحافٍ يستعمل في شاطئ السباحة، تبسطه كلّ مساء على الأرض مباشرة ثم تطويه في الصباح لتخبّئه بإحدى الخزانات. من حولها، كانت ترسم، على أوراق كبيرة بأقلام ملوّنة، رسوماً غريبة تمثل نجوماً ودوائر متّحدة المركز. «إنّها وجوه، أنت تراها جيداً يا غزال؟ هناك وجوه كثيرة، على امتداد الوقت، تأكل حياتك وعينيك».

كانت تملك بيكاباً للاسطوانات من نوع تيبّاز، تسمع من خلاله، طوال النهار، موسيقى ناعمة معزوفة على الناي والآلات الخشبية. كانت تحضّر الشاي حسب طريقة بلادها، في إبريق من الحديد الأبيض له كمّة مغلاق رقيقة تعلوها صدفة حمراء في شكل كرزة مجففة. كانت تدخن كثيرا، سجائر إنجليزية أو عشب الحشيش من نوع ماركة چان، ومع طومي تكاد لا تتكلم. ومن حين لآخر تنتابها ضحكة غريبة مكتومة. كانت لها تجاعيد مرارة حول فمها. لم يعد طومي يجسر على أن يلتصق بها مثلما كان يفعل قديماً. لا يجسر على أن يمسك يدها. لعلها من أمد طويل لم تعد تهتم به. لقد كان طويلاً أكثر مما يجب.

بدأت تحقن نفسها بالمخدرات عندما كانت تعيش مع أورسوني. ذات يوم، دخل طومي وكانت هي ترتدي المئزر بغرفة الحمّام منحنية على المغسلة. ظن طومي، في أول الأمر، أنها جرحت نفسها «ماذا حدث لك؟ هل جرحت نفسك؟» استدارت، وكان على وجهها ذلك التّعبير الغريب عن الألم والخوف. كان ذلك فظيعاً. ظلّ طومي متجمّداً في مكانه. مرّت أمامه والدّم يسيل على ذراعها ويقطر على البلاط الأبيض. كانت تقطّب وجهها وتقول «لقد أضعت الفرصة على نفسي». ثم تركت جسدها يتهاوى على الأرض مستندة إلى جدار. كان مئزرها مفتوحاً عند صدرها العاري وطومي يرى أضلاعها بوضوح. ثم إنّ ما يشبه الغمامة غمرت وجهها، فكانت تتنفس بعمق مثل شخص غطس تحت الماء.

لم يتحدث طومي عن ذلك، ولم يكن يريد أن يفكر فيه. كان يحسّ بالخجل والغضب، بسبب الساحات التي يتسكع الناس فيها خلال الليل، بسبب زوايا الأبواب والرّدهات الفارغة، والفتيات الضائعات، والأولاد الذين يتشمّمون الغراء بين سيارتين. كان فراغاً يسفط كلّ شيء ويقود إلى الهاوية.

حينما عثر، من جديد، على زينة، بعد مرور كل تلك السنوات، لم يكن ذلك صدفة. في لحظة ما، ظنّ ذلك. كانت تسير في الشارع متّجهة نحوه، وقد وضعت تلك النظارة التي تأكل وجهها. بدأ قلبه ينطّ داخل صدره. نادى: «زينة!» وجرى نحوها. ضمّته إليها. لكنه كان الآن، جدّ طويل وهو ما جعل وجه زينة يستند إلى صدره. ظنّ في لحظة أولى بأن كل شيء سيبدأ من جديد كما كان في القديم، عندما كانا يسيران على الشاطئ وسط النّوارس، أو عندما كانا يجلسان على قبر لتحدّثه عن الملاّح.

لكن زينة لم تعد تذهب إلى البلاج. كان ضوء الشمس يعشي بصرها ويصيبها بالدوار. لم تكن تخرج إلاّ في المساء لتشتري السجائر والأكل والبيرة. كانت تضع نظارتها السوداء وترتدي فساتين ذات أكمام طويلة.

عدّة مرّات في الأسبوع، كانت تذهب ليلاً قرب محطة القطار. كانت تبحث عن بائعي المخدرات الصّغار. وكان روزيت يقول عنها «المرأة البيضاء» بنغمة ازدراء. كان طومي يعرف

روزيتْ جيداً. لم يَقْبل أبداً أن يشتغل معه. وكانت زينة تذهب لتبحث عنه في البارات المحيطة بمحطة القطار. كان ذلك يبعث على القيء، وكان طومي يسقط في حزن عميق. كل شيء غدا مزيّفاً، كذباً، تكشيرةً. الذكريات القديمة صارت أكاذيب، وكل شيء يتلاشى أمام وجه زينة الجديد، أمام تلكَ المسحة الشرسة التي تعلو محياها أحياناً وتلك النّظرةَ الجائعة كأنها صادرة عن أحد يضيع، عن أحد يخدع الآخرين. كلاً، لم تكن الصدفة التي قادته إليها. الصدفة، مثل المّوسيقى. ما كان بوسعها أن تستمر مع ذلك الجوع الذي يقضم قلبها. في أي لحظة بدأت سقوطها؟ كان طومي يحاول أن يتذكّر جسدها وذراعيها ومفصد مرفقيها وبؤبؤيها. ربّما بدأتْ عندما كانا يلتقيان. كل يوم، على طريق الأوبرا. ربما كان أورسوني منذ ذاك، يمسك بتلابيبها ويربطها بتختة اللعين «ديدالوس» وبذلك الخليع بينيال وبجميع أولئك المتهتكين والمتنقّلين بين المَوانئ، من ترييستا إلى البندقية، إلى استانبول.

ذات مرة، حكتْ عن السنوات الخمس التي قضتْها فوق باخرة أورسوني. حكتْ عن إيطاليا وعن اليونان وكانت تتحدّث عن كل ذلك كما لو أنها تخيّلته. كان طومي جالساً، ليس مثل القديم على الشاطئ، بل فوق الأرضية الخشبية للغرفة الكبيرة الفارغة، أمام النافذة وهو ينظر إلى الشمس تتابع انحدارها فوق العمارات. كان يرغب في أن يلتصق بها مثلما كان يفعل ليحسّ نبض قلبها ويسمع صوتها يرنُّ داخل صدرها. لكنه كان متضايقاً بسبب الغيرة ولأنه كان يكره ذلك الرجل القويّ الذي أوْقع زينة في شركه. ومع ذلك يحبّ أن ينصت إليها وهي تتحدث عن أسفارها وعن البحر: «تعرف، يا غزال، كل الدّلافين كانت تسابق باخرتنا. كنت أجلس في المقدمة تماماً، مستندة إلى صاري السفينة ونحن متوجهون إلى اليونان، والبحر أملس، هادئ، أدْكن وجميل. وعندما كانت الدلافين تخرج من الماء، جد قريبة منّا، كان ذلك يحدث جلَبة لا يمكنك أن تتخيلها تبعث الرعشة في الجسد. بعد ذلك، وصلت الباخرة إلى واجهة مدينة أثينا، فكنّا نرى جميع البيوت والعمارات والتلال بمعابدها. عندئذ كانت الدّلافين تتراجع إلى الوراء لأنها لا تحب ضوضاء المدينة. رجعت الدّلافين إلى وسط البحر...»

لم تعد زينة تتوفّر على نقود. لم تكن تملك سوى مفتاح هذه الشقّة التي دفع أورسوني إيجارها لمدّة سنة. وامتنع روزيت عن تزويدها بالمخدرات. في كل مكان كانوا يعرفون أن أورسوني تخلّى عنها. في أحد البارات، بالقرب من محطّة القطار، عندما انتهى طومي من إفراغ حمولات الشاحنات، التقى بروزيت. قال له هذا الأخير: «ماذا تفعل مع تلك الفتاة؟ إنها ضائعة وسينتهي بها الأمر إلى الجنون» دفعه طومي بعنف، فقد كان يكره روزيت ويكره العالم كلّه. عبر الأزقة، كان يمشي إلى أن كان يحلّ اللّيل. كان يشتغل في المحطة ثم يتوجّه إلى البارات التي لا تغلق أبوابها. كان يلتقي بالمتسكّعين وبالسائرين نياماً. لم يكن طومي يريد العودة إلى الشقّة لأنه كان يخشى أن يرى زينة قاعدة لصق الجدار، شاحبة وعيناها مفرغتان تماماً.

أعطاه أحد الأطباء أدوية كانت تهدئها وتمنع الألم، لكن نظرتها لم تعد تلتقط الضوء. كان طومي يأتي لها بما تأكله، خبزاً وفواكه. غير أنها لم تكن تمس شيئاً من ذلك الأكل. الشيء الوحيد الذي كانت تقبله هو البرتقال. كان طومي يقطع البرتقالة إلى نصفين بعد أن يقشرها، فكانت تمص لبها. كانت جد ضعيفة لدرجة أنها كانت تضطر إلى الاستناد إلى الجدار حتى إذا أرادت أن تجلس على حوض المرحاض. وكانت هي تتركه يساعدها مثل طفلة. وفي الليل، كان طومي يمددها على لحاف الشاطئ ويدثرها بغطاء. كانت ترتعش من البرد. وهو كان، لشدة التعب، ينام عند الصباح ممدداً على الأزهار ورأسه مستند إلى مرفقه. وعندما كان يستيقظ، في منتصف النهار، كان قلبه ينبض بقوة، وكان يخاف من أن تكون زينة قد ماتت. كان يكلمها ويردد:«زينة، استيقظي، زينة، زينة، من فضلك!» إلى أن تفتح جفنيها وتنظر إليه. لكنها لم تكن تتكلم.

ذات ليلة، استيقظ طومي وحنجرته مضغوطة. كلمها كثيراً، حركها، لكنها لم ترد أن تفتح عينيها. «زينة، زينة، من فضلك!» لم يعد يعرف ما يفعل. أحس بألم في صدره، جرى إلى أسفل العمارة بحثاً عن تيلفون يكون صالحاً للاستعمال . حضر طبيب الإسعاف ونظر في عيني زينة ثم نظر إلى قارورات الأدوية الفارغة، وعندئذ أمر بإحضار سيارة الإسعاف التي نقلتها.

❖

كان حلماً أو كابوساً بينهما. لم يعد طومي أبداً إلى الشقة بالعمارة الجديدة في أعلى التل. كان يذهب إلى الزقاق الصغير حيث قابل زينة قديماً. كان ذلك بعيداً لدرجة أنه لم يعد يتذكر ما إذا كان صحيحاً أو وهماً. بل إنه دخل إلى الأوبرا وصعد السلم حيث كان يجلس ليستمع إلى زينة وهي تغني. كان بوده أن يسمع من جديد صوتها الخيالي، المتناهي الخفة، الذي كان يملأ جميع الغرف الفارغة. ذهب حتى إلى الغرفة ذات المصاريع المغلقة على البحر بمصباحها الكهربائي العاري الذي كان يشتعل فوق شعرها. لكن الأوبرا كانت مقفرة. وفي القاعة، كان البيانو مكسواً بالغبار، فمنذ أمد طويل لم يمسسه أحد.

كان آخر فصل الشتاء، وخلال أيام سيحل الربيع. وكان هناك أناس يملأون الشوارع والفتيات يرتدين فساتين فاتحة الألوان، والشباب يحملون قمصاناً بدون أكمام. وعلى الساحات، الأولاد يجرون ويلعبون بالكرة بدون أن يهتموا ببائعي المخدرات وبالتهريب والمواعيد. كان الأمر هكذا بالنسبة إليه، قديماً. حينما كان يهرب من عائلة هيربو، في بلدة ڤوجور، لا شيء كانت له أهميته. الشر كان هو الآخرون، الكبار، أولئك الذين كانوا يذهبون إلى أبعد مما يجب ويسقطون من أعلى نقطة وصلوا إليها. في حي محطة القطار، التقى طومي بروزيت فأدار عينيه كأنه لا يوجد. لم يعد يعرف أحداً في هذه المدينة.

في المستشفى. كانت زينة تقتسم غرفةً مع ستّ نساء أُخريات. كان سريرها قُرب النافذة، وعبر الشباك كانت تبدو نخلة وسماء زرقاء. بالقرب من زينة كانت ترقد جدّة تسمى صوفيا، كانت قد حاولت الانتحار. كانت قد ربطت حزام فستان نومها بعصا السّتائر ووضعت العقدة حول عنقها، وعندما قفزت إلى الأرض انخلعت العصا مكسرة أحَد المربّعات. عندئذ حملوها ووضعوها هنا إلى جانب زينة.

عندما جاء طومي، قالت العجوز: «هذا حبيبك؟ مايزال كتّكوتاً!» داخل السرير الأبيض، كانت زينة، بشعرها المربوط بشريط وبقميصها النظيف، تبدو وكأنها بنت صغيرة. جلس طومي على الكرسي قرب السرير. لم يكن يتكلم ولم يكن يريدها أن تتكلم. كان الحال يشبه البدء، عند البداية تماماً عندما كانا يتقاطعان في الشارع أمام الأوبرا..

سينتظر، لديه كل الوقت، الآن. في الليل كان يذهب ليشتغل في سوق المحطّة حيث يملأ الشاحنات ويفرغها. وفي النهار، كان يبقى مع زينة ينظر إليها ويسمعها وهي تتنفس، سيمسك يدها الرقيقة الطويلة ليستشعر الدفء. لن تكون هناك فنادق في أمستردام، ولا بواخر، ولا جزر في اليونان. لن يترك أحداً يدمّر زينة وصوتها ونظرتها.

«خذني، يا غزال، أريد أن أعود إلى بيتي، أن أوجد أخيراً هناك». قالت هذا الكلام يوماً، عندما كانت مريضة وقبل أن تنقل إلى المستشفى. كانت ضعيفة لدرجة أنها لم تكن تقوى على المشي، ولا أن تأكل أو أن تنام. كان الفراغ بصدد التهامها.

الآن، يعرف طومي جيداً ماذا سيفعل. ذات يوم، سيسيران معاً خارج المستشفى وكأنما سيسيران إلى نهاية الزقاق فقط في جولة صغيرة قبل الليل ثم يعودان في ساعة الأكل. وعند نهاية الزقاق سيكون هناك زقاق آخر ثم آخر. مجيء ستكون هناك طرق عبر الرّيف، حقول وأعشاب وشقائق النّعمان. سيتابعان السير بدون التفات إلى الوراء. سيكون الليل جميلاً يمطر نجوماً. وبما أنهما لن يعرفا إلى أين يتّجهان، فإن طومي سيقود زينة إلى بلدة فوجور التي هي بلده الحقيقي حيث الأراضي الخالية بين العمارات والتّلال والبيوت الصغيرة المنتظمة. سيريها منزل عائلة هيربو وكأنه ولد به. وبعد ذلك، سيذهبان حتى يصلا إلى قناة لورسك، ليتفرّجا على المراكب وهي تنزلق بهدوء، سيكون فصل الصيف قد حلّ والحرارة مرتفعة، وسيمكنهما أن يناما في العراء مستندين إلى أحد المنحدرات، معاً، لن يضيعا أبداً. من جديد، سيلتصق بها ويسمع صوتها يرنُّ داخل صدرها فيما هي ما تزال تتكلم عن مدينتها البعيدة، ذات الأزقة الضيّقة والبيوت الشديدة البياض بأبوابها الزرقاء، بل وستتحدث عن النافذة ذات الشّرفة المدوّرة حيث لن تأتي العجوز راحيل أبداً لرؤية البحر.

❖



مَوْسِمُ الأمطار

هل كان المطر يهطل على المرسى ذلك اليوم من شهر فبراير ١٩٢٩، عندما صعدتْ جابي كيرڤيرن على الزورق الذي يقلُّ الركاب إلى الباخرة «بريطانيا»؟ من على الباخرة الكبيرة، بدت الجزيرة بعيدة ورؤوس جبالها تتلاشى وسط السحب. كانَ هناك أُناس على الأرصفة محتمين بمظلاّتهم السوداء. كان السّفر خلاصاً. وكانت جابي تحسُّ على وجهها وجسدها، ضوءا جديداً، عنيفاً، مثل رغبتها في الحياة. بدأت تنسى وهي ما تزال هناك؛ لم تعد تفكر فيما كانته حياتها إلى ذلك الوقت، ما كانته طفولتها وفقرها داخل المنزل الخشبي بفاكواس، وموت أبيها.

هل كانت تفكر في كلود بورتال، تي كوكو كما كانوا يدْعونه، عندما كانا يذهبان للتّسكّع عبر قصب السكّر أو تحت المطر إلى أن يصلا إلى المستنقع الكبير لفاكواس ليترصّدا الهنديات وهنّ يغسلن شعرهنّ؟؟ الآن، كأنها تقف أمام نافذة الزمن، مفتوحة على سماء بلا حدود وعلى بحر بدون نهاية. لم تعد تسمع ضوضاء القطارات المتحركة داخل السكّة الحديدية، ولا جلَبة الشاحنات المنطلقة في الشوارع، ولاالضّجيج المتصاعد على السّقوف الحديدية، والأنهار التي تجري على الأرض الحمراء، وتحسُّ ارتعاش الأوراق والريح والرعدة التي تتسلّل إلى حقول السكّر.

لا أحد يعرف لماذا أطلقوا عليه لقبَ تي كوكو، ربّما اقتبسوها عن اللاّزمة الموسيقية: ti la soif, ti coco، ولأنه كان صغيراً ولطيفاً بوجهه المكتنز الذي يشبه وجه «الكافر» وبعينيه النّجلاوين وتلك الطريقة الغريبة التي كان يتكردح بها وراء جابي كأنه كلْب. لم يكن يصغرها بسوى سنة واحدة، إلاّ أنها كانت تخاطبه كما لو كان أصغر إخوتها. كانت جابي تأخذه معها أينما ذهبت، وكانت تأمره وهو ينفّذ كلّ ما كانت تقوله فوراً، وبدون تردُّد. ذات يوم، لعلها تتذكّر ذلك، قالت له: «تي كوكو، اسرق لأجلي فاكهة المانجا». تسلّق الجدار العالي لضيعة ڤالانس الواقعة على سهول ولهيمس، وأحضر لها المانجا. كانت الكلاب قد مزقت سرواله، وساقه مدماة، لكن وجهه كانَ مضيئاً وعينيه تلمعان مثل شقّين سوداوين. كان ذلك في سن الثانية عشرة من عمر جابي التي لم تعش من قبل سنةً حرّةً مثلما عاشتها تلك السنة: كان أبوها قد مرض وكان يبقى، طوال النهار، بالمنزل منغلقاً داخل غرفته، بينما كانت جابي

تجوب طرقات المناطق الخمسة عشر.

ثم، فجأة، بتأثير من قسوة البنات المقلقة، لم تعد جابي تريد لقاء تي كوكو. وهو لم يكن يفهم ما حدث. كان يأتي كل يوم لينتظرها في الشارع، مبتعدا قليلاً كأنّ به خجلاً. وكانت جابي تتجنبه، تمرّ من وراء، تتحايل وتهرب. وكانت ترافقها فتاة غريبة الأطوار هي أنانتا، هندية ترتدي سارياً ورديّ اللّون، قابلتها جابي عندما كانت تستحمّ في النهر. الآن، صارت هي صديقتها، ومعها تذهب جابي لتستحمّ بالقرب من الشلاّل على امتداد سنة كاملة، عاشت معها يوماً بيوم، فكانتا تذهبان إلى النهر، وتسيران على الطريق محتميتين تحت نفس المظلّة السوداء. برفقه أنانتا، وضعت جابي وروداً على معبد الإلاهة لاكشمي في تجويفة شجرة «بيبل». معاً، كانتا تسيران في الطرقات حتى النّهر، وكانتا تتحدثان وتضحكان. وهو لم يعد يوجد بالنسبة لها. دام هذا الحال خمس سنوات ظلّ تي كوكو، خلالها، في الظّل مؤملاً عودة مستحيلة. الجميع كان يعلم بما حدث ؛ وأصدقاؤه كانوا يسخرون منه ويدبّرون له الحيل الخبيثة. وكانت جابي قد انقطعت عن مكالمته. وعندما كانت تمرّ به، وهي مع الهندية ذات الساري الوردي –ولم تكن أبداً صدفة– في طريقها إلى المدرسة أو في أزقّة كيربيّب، لم تكن تدير رأسها ؛ بل كانت تفعل ما هو أسوأ: كانت تنظر إليه واللّون الأزرق لقزحيتها شفّاف باللامبالاة.

لم يعد وجه تي كوكو عريضاً كما كان، ولم تعد عيناه نجلاوين ولامعتين كما في السابق. صار مراهقا حزيناً، له جسم هزيل ورأس كبير، ومشية خلاسي فقيرة. كان يشتغل في دكان النّسيج الذي يملكه أبوه بكيربيّب.

عندما مات والد جابي، ظنّ تي كوكو بأن الأمور ستتغيّر. كان ذلك بعد المشهد المهول للدّفن. فقد اتّكأت عليه جابي ووجهها منتفخ بأتمّه من الكآبة. عندئذ أحس من جديد رائحة شعرها المفرطة العذوبة وحرارة جسدها. كانت تستند إلى كتفه وتبكي. كانت تتكلم بصوت غريب بلغة المستعمرات (الكريول) مثلما كانت تفعل قديماً عندما يتوهان وسط حقول قصب السكّر المحرقة، في الصّيف، بجانب المناطق الخمسة عشر ؛ وكان صوتها غريباً يكاد يكون فرحاً وكأنها قد استعادت روحها التي كانت لها من قبل. ولم يستطع تي كوكو أن يقول شيئاً. كان قلبه ينبض لدرجة الإيلام. كان أكثر شقاءً منها، ربما لأنه خمّن بأنها كانت المرّة الأخيرة.

بعد مرور شهر، رحلت جابي إلى أوربا.

❖

على هذا النحو أراها، عندما وصلتْ إلى بوردو، خلال شهر مارس ١٩٢٩. كانت في الثامنة عشرة ولم تكن تعرف شيئاً عن تلك البلاد. كل شيء كان سيبدأ بالنسبة لها. كانت طموحة، متأجّجة، وكانت فاتنة الجمال، طويلة، مسمرة الجلد مثل الكريول مع كتلة شعر أسود يتضادّ مع لون عينيها الأزرق.

بعد موت أبيها، لم يبق لها شيء. كانت أمها قد ماتتْ عندما ولدتها، وخالتها إيما التي استقبلتها في كريبب سرعان ما اقتنعت بأنّ على جابي أن ترحل إلى أوربا. لم يعد هناك مكان لجابي في تلك الجزيرة. كانت تكره كلّ ما يذكّرها بطفولتها: الفقر، الوحدة، المرض. كانت تكره حرارة البحيرات المالحة الثقيلة، والنابتة المكتسحة للحدائق، وتموّج الهنديات وهنّ يرتدين الساري. وما كانت تكرهه أكثر من أيّ شيء آخر، هو الحمّى والأعاصير. فيما بعد، عندما كانت جابي تتكلم عن ذلك، فإنها كانت تخلط بينهما من خلال نفس ارتعاشة الفزع، فتجمع بين ثقل الهواء والصمت الذي يسبق تدفّق الريح والمطر، وبين الاضطراب البارد الذي يغمر جسدها قبل صعود الحمّى.

كانت جابي قد صعدت إلى الباخرة «بريطانيا» ولم تغادر مقصورتها إلاّ عندما تأكدت بأن الجزيرة لم تعد سوى ضبابة غائمة زرقاء معلقة بالأفق، في مكان ما بالشرق، هناك حيث كان الليل يبدأ.

أمضت جابي، على متن «بريطانيا» شهراً عجيباً مستسلمة لرفاهية ولامبالاة الصالون الفخمة ولجسور الدرجة الأولى المضيئة، متملّية بغروب الشمس في شواطئ إفريقيا وبلمعان القمر على البحر عند خطّ الاستواء. كانت تهرب من مقصورة الدرجة الثالثة ومن مراقبة العجوزين السليطين اللتين أوصتهما خالتها برعايتها، لتهب لزيارة الدرجة الأولى بفضل تواطؤ نقيب بحري يرتدي البدلة البيضاء.

هكذا أتصورها، بالغة الجمال، جذابة، ترتدي فستانها الخفيف من القطن الأزرق ذي الياقة البيضاء، الذي زينته بحزام اشترته، خلسة، من بازاربور- لويس، وشعرها الأسود في شكل عقيصة وقد وضعت فوقه قبعة من القشّ متّسعة الأطراف. إنها تتحدث مع جميع الركّاب داخل الصالون التي تترجّح ببطء، أو إنها تجلس على كرسيّ طويل ناظرة إلى المخور التي تشقها السفينة، مستنشقةً الهواء العليل في نهاية الزوال. لعلّها كانت تحلم بما ستكون عليه حياتها في تلك المدينة الغامضة، بوردو، التي لا تعرف عنها شيئاً، تحلم بما كان ينتظرها، هنرييت ابنة عمّ أمها، وبباريس وحقل مارس (الحقيقي)، والمسرح، والأوبرا، والمتاجر الكبرى، والسفر بالقطار إلى نهاية العالم.

على هذا النحو أريد أن أتخيّلها، مرّة أخرى، مثلما كانت عندما نزلت من فتحة السفينة

«بريطانيا» وسط برْد الشتاء الفرنسي، حاملةً معها ضَوْءَ جزيرتها وعذوبتها، اللّون الأزرق السحريّ لبحر الهند ولمعان الزّبد على الأرصفة، وحاملة الغابات وصفائح القصب المتلألئة وأغاريد الطّيور. لا شكّ أن كل ذلك كان موجوداً في دخيلتها مثل لطافة تعشي كل الرجال. ومن ثمّ فإن الحياة كانت، بالنسبة لها، احتفالاً ووعداً. وهذا هو ما كان الآخرون يبحثون عنه لديها ويريدون أن يقرؤوه على محيّاها: الشباب وكأنه خالد، البهجة، حرّية الكريول التي تتراءى في صوتها وفي نبرتها العذبة. كانت تعرف ذلك وكانت تتسلّى بممارسة هذه الفتنة. كانت تغني، عن طيب خاطر، أغاني الكريول وهي تعزف بنفسها على البيانو، في صالونات بوردو حيث كانت تدعى. والذين عرفوها في تلك الفترة لم ينسوا صوتها، عندما كانت تغنّي تلك الأغاني التي لا تخلو من حزن والتي كانت تضبط إيقاعها برجليها العاريتين وهي ترقص، أحياناً، مقلّدة تخلّع نساء بلادها ونبرتهنّ في تلك اللغة الغريبة حيث تغدو الكلمات أخرى.

خلال تلك السنوات قابلت جانْ وتمّت خطبتهما. كان هو بالأحرى، شاباً منغلقاً له وجه فتاة ولون جدّ فاتح واسم مكوّن من مقطع لفظي واحد «برا» Prat، لم يكن يناسب طبيعته الخجولة. كان بصدد إنهاء إجازة الحقوق في باريس ويريد أن يصبح محامياً. ولكن عائلته كانت قد اختارت له مستقبلاً آخر إذ كانت تريده أن يدير مصنع حنفيات الماء والسدّادات الذي ورثه بعد موت أبيه. في ذلك الوقت قابل جابي كيرڤين خلال حفل راقص ببوردو، حيث دعيت هي من لدن ابن عمها شارل، ابن هنريت، وهو طامح للفوز بيدها غير أنه عديم الطّعم، ما جعلها تكرهه وتشكّ في أنه يفضّل صحبة الشّباب على مرافقة النّساء.

كان هو الحفل الراقص الكبير الذي تحضره، لأول مرّة، جابي ؛ وخلاله التقتْ من جديد بما عرفته من انبهار وافتتان على جسر الدرجة الأولى للباخرة «بريطانيا»، داخل القاعة الكبيرة لمدرسة العلوم المضاءة بثريّات الكريستال، كانت جابي تدوّم راقصةً في فستانها الخفيف، ووجهها وكتفاها يتلألآن بإشعاعات المدار الاستوائي. وعلى شعرها الأسود، وردة خبيزة تنشر بقعةً عنيفة، تقطر شهوانية.

لقد فُتن جانْ. بعد شهر، كانا مخطوبيْن، وبعد أقلّ من ستة أشهر على الحفل الراقص، تزوّجا في باريس ولم يشهد على زواجهما سوى صديق لجان في الكلّية وموظف ببلديّة المقاطعة الثانية عشر، ما داما سيسكنان في شقّة جان الصغيرة وراء محطة ليونْ. كانت جابي قاصرةً فأرسلت لها خالتها إيما، بدون تردّد، الإذْن بالزواج. كانت عائلة جان برا واسعة الثروة فلم ترض على زواج ابنها من فتاة الكريول الفقيرة التي تتكلّم وهي تغنّي، والتي كان لها شعر جدّ أسود وجلد جدّ كامد. وبدون أن تصرح بذلك، كانت العائلة تلمح إلى وجود اختلاط بين الدم الأسود والدّم الهندي عند آل كيرڤين، ومن ثمّ تلك الجمّة من الشعر الذي ينزل إلى الكليتين عندما تمشّط جابي شعرها، وميلها إلى شكّ ورود فاقعة اللّون ذات رائحة مسكرة. ولم يكن جانْ ينصت إلى الاغتياب الذي تردّده أخواته، فقد كان عاشقاً متيّماً. كانت جابي قد

دخلت إلى حياته مثل سراب، مثل انبهار، حاملة معها لَطافَةَ وقوّة نبتة استوائية وكل ما كان يعرفه قد تحوّل كأنما تحت تأثير سحر.

وهذا أيضاً ما كانت تقوله أخواته وأُمّه، بأن جابي قد سَحَرَته. لقد كان خاضعاً لها تماماً. وبدلاً من أن يتابع دراسته للحقوق، كانَ جان يخرج كل مساء. كانا يتردّدان على المسرح، والكونسرتات، والمراقص. وبعد فترة قصيرة من زواجها، اقترض جان مبلغاً لشراء سيارة. انسياق لسحر موديل مكلف، دودج بيضاء حسور الغطاء، قوية وسريعة. ولكي يتمكّن من أداء ديونه ونفقات شقّته الجَديدة، طالب جان بنصيبه مَن الميراث. تمّ التّوزيع في مناخ عاصف، لأنّ عائلة برا، عن حق أو عن باطل، كانَت ترى بأن جابي هي وحدها المسؤولة وأنها متآمرة، قررت أن تعمل على إفلاس جان. لذلك قررت العائلة أن تغلق أبوابها في وجههما. كان جان قد تكلّف بمصنع الحنفيات. وكان يذهب إلى بوردو مرّة في الشهر ويزور أُمّه. ما من أحد كان يريد أن يسمع من يتكلّم «عنها». كانوا يتحدثون عن المال وعن أرباح المصنع.

عند نهاية كل أسبوع، كان جان وجابي يغادران باريس على متن سيارة الدوج. كانا يجوبان طريق النورماندي وهما ينطلقان بسرعة مفرطة. كانت جابي هي التي تسوق. كانت تضع نظارة صغيرة للسبّاق ومعاطف من الجلد. كانا يزوران لابول، كانكاب، تورڤيل دوڤيل، بروتاني، بيروس –كيرك، بيك –ميل. كان الصيف يلمع على البحر من خلال أشجار الصنوبر. وكانت اللّيالي رائعة. كانت جابي تنصت إلى نقيق الضفادع وتنتشي برائحة سماد الغمون. وكثيراً ما كانت تخرج من غرفة بيتّ الصيادين الصغير الذي أجّراه، وتتوه وسط اللّيل. وكان جان يستيقظ فزوعاً كأنّما أحس أنه وحيد في الفراش. وكانت النافذة المفتوحة تسمح بمرور الريح وصرير الأمواج على التلال. كان يشعر بنوع من الخوف يصعد داخله، كأنه طفل ضائع، وهذا ما كانت تقوله له أخواته، قديماً، عندما كان يبكي. كان يجري عبر البراح وينادي: «جابي! جابي!...» كان هناك ضوضاء الأمواج ورائحة الغمون، ونقيق الضفادع في المستنقعات على التّلال، وتحت ضوء القمر،كانت جابي تنتظره.كانت ترتعش وسط ريح البحر. «تعال...».

يتحاضن الجسدان ؛ وعلى الرمل البارد، الجلد ناعم، دافيء، متوفز. كان ينظر إلى وجهها يلمع، وإلى عينيها المضيئتين وإلى جمّة شَعرها الأسود المنكوش. كانا في تجويفة التّلّ والريح تهبّ مصفّرة عبر أوراق الشوك. «انتظري... أليس هناك أحد؟» كانت تضحك في صمت وتجرّه إلى الرّمل وإلى الأوراق الشائكة. كان جلدها في لون القمر وعيناها من لون البحر، وشعرها في مثل جمال الليل. كان ينصت إلى نفسه يصير متهدّجاً وهو يتمتم: «أحبك، أحبك». كان يردد هذه الكلمات وكأنها تقتاده إلى أعمق أعماقها، ماحيةً بقية العالم. البحر، التّلال، الليل، أزيز الريح والأمواج، كلّها هي، لم يكن موجوداً سواها. كانت

جابي تحمله في ثناياها وكان هو ينزلق داخلها مثل قاربٍ على الماء، وكأنْ ليست هناك نهاية، ليس هناك موت، وكأن كل شيء سيدوم إلى لأبد.

بعد المضاجعة، كانا يظلان ممدَّدين على الرمل وقد غفَيا وعيْناهما منفتحتان قليلاً على الّليل. ثم إن جابي شعرت بالبرد فارتدت ملابسها بسرعة. كانت جالسة والريح تحرك شعرها «أحس بالجوع» وأضاء وجهها بنور القمر. كانت يدها دافئة وقوية وكانت تضمُّ يد جان وتجرُّه. عادا إلى غرفة بيت الصيادين وناما إلى الفجر. داخل الغرفة، كان الهواء يكاد يكون خانقا وكانت هناك رائحة أزهار الخلنج.

كانت هناك ليالٍ أُخرى. كلُّ تلك اللّيالي بلا نوم، خلال الصيف. والطرق تحت ضوء القمر. وكانت جابي تحبّ أن تسوق بدون أن تضيء لمبات السيارة لتتمكّن من أن ترى النجوم. وكانت الدودج تنساب بأقصى سرعة على الطرقات المحفرة، على امتداد البحر، والعجلات تنطُّ على التلعْ وعلى الأغصان. بين يديّ جابي، كانت الدودج أكثر من مجرد سيارة. كانت سفينه تخترق البحار، وتعبر اللّيل. إلى جانبها، متدثّراً بمعطفه الجلدي، كان جان ينظر إلى أضواء القرى تتراقص في البعيد، بادية ومختفية حسب مشيئة التّلال وكان يفكر في موانئ ضائعة على شاطيء أجنبيّ.

كانا، أحياناً، يركبان السيارة طوال الليل، وعند الفجر وقد هدَّهما التّعب، كانا ينامان في غرفة مأوى يعثران عليه صدفةً وبدون حتى أن يسألا عن المكان الذي بلغاه. وكانت لهما مغامرات. كانا يغوصان في الرمال أو يضيعان. وعند مدخل غابة بروسلياند، كسّرا زنبركاً فتحتّم عليهما أن ينتظرا إلى أن صنع لهما حدّاد صفائح جديدة. وفي فوجيرس، عند نهاية الصيف، فاجأتهما عاصفة مروّعة وانخدشت السماء الليلية بالبرق وسقطت حبّات بَرَد ضخمة كأنها أحجار محدثة ضجيجاً جَهنميّاً. وغطاء السيارة انثقب مسرّباً سيلا مثلجاً نجح جانْ في أن يحوّله بفضل معطفه الجلدي الذي ثناه في شكل مزراب. إحدى حبّات البَرَد كسّرت مصباح السيارة، والمياه المتدفّقة أحاطت بالدودج وكأنها سفينة حقيقية. أمضى جان وجابي كلّ اللّيل متضامّين يحضن أحدهما الآخر، بدون حركة وسط العاصفة. ما من شيء بدا لجان أكثر رعباً وجمالاً من تلك الليلة القارسة البرد المعشية ببروقها، ومن أنفاس زوجته العذبة الّتي نامت ووجهها مختبئ في تجويفة كتفه.

❖

هي مَنْ أريد أن أرى مرةً أخرى. جابي واقفة على جسر باخرة «بريطانيا» مستندة إلى الحاجز ناظرة إلى المخر الذي يتباعد على البحر بدون نهاية. كانت تحمل معها الشّرارة

المشعّة على حافة أوراق قصب السكر، والغَسق الذي يبدأ في الشرق فوق مستنقع فاكواس والعواصف في خليج «النّهر الأسود». حتّى بعد أن قضت كلّ تلك السنين بعيدة عن الجزيرة، فإنها تحتفظ بذلك الضّوء داخلها، شيء متلألئ، راقص في نظرتها وعلى جلدها وشعرها لعلّه سماء الحمّى، خلال موسم الأمطار عندما تشبه السحب دخان الحرائق. كانت تلك هي ذكراها الأقدم، حينما فاجأهما الإعصار في الكوخ الخشبي على ضفة «النّهر الأسود» وتعاقبت الأمواج الملفوفة مزمجرة على الشاطئ كأنها تريد أن تفترس الأرض. كان هناك أبوها وكانت تسمع صوته وهو يصيح «أتوسل إليكم أن تبتعدوا عن الباب!». لبدت محتمية بامرأة لم تعد تتذكّر حتى اسمها. كانت تسمع صوت تلك المرأة وهي تصلي ولم تنس أبداً الكلمات اللاتينية التي كانت تتلوها.

كان كل ذلك موجوداً في داخلها، عندئذ: خفّة الضوء، والخوف المختبئ وراء الأشياء، خوف يحجب النّظرة. أحياناً، كان جان يسبر أغوارها: «ماذا هناك؟ بأيّ شيء تحسّين؟». كان يريد أن يفهم وأن يعرف مصدر تلك الغمامة التي تعلو عينيها عندما يصبح بوبؤها، فجأة، معتماً، باهتاً. «لا أدري. اتركني، سيمرّ حالاً». وكان صوت جابي يزيد فزع جان. «لكن، ما بك؟ يداك باردتان وشفتاك ابيضّتا تماماً». كانت ترتعش، فتدخل إلى الفراش تحت الأغطية، وتطلب من جان أن يغلق مصاريع النوافذ وأن يضع الستائر. في الخارج، كان الصيف يمرّ سريعاً. كانت السحب الخفية تنزلق على سماء بيك ميل.

أتى جان إلى بوردو حتى يتمكّن من الاهتمام بالمصنع. كانت جابي تذبل، وطبيب عائلة برا، العجوز المسمّى لاجاربيت، شخّص داءها في الملاريا. إلاّ أن دواء الكينين لم يحسّن حالتها. كانت أزماتها تستمر، أحياناً، عدّة أسابيع. كانت جابي تظل خائرة القوى فوق سريرها ونظرتها الفارغة متّجهة نحو النافذة كأنما تترصّد مرور السحاب أوتحليق الأطيار.

قرر جان أن يأخذ جابي إلى الجنوب. رحَلا ذات يوم جميل من ربيع سنة ١٩٣٨، ممتطيين الدّودج البيضاء.

من جديد، أحست جابي بنشوة الحركة. كانت السيارة تنطلق بأقصى سرعة على الطرقات المقفرة خلال فصل الشتاء، بين الأشجار العارية ماتزال، والتي كانت تصدم الضّباب. كل اسم لمدينة أو لقرية كان مغامرة: ليبورن، كاستيون، كاردون، مونزابيي، كاهور، كوساد، ألبي. كانت هي المرّة الأولى التي تتّجه فيها جابي نحو البحر الأبيض المتوسط. من جديد، كانت تحس بنفسها حرّة. كانت جميلة، مشعة رغم شحوب أيام المرض. كانت هي التي تقود السيارة. من حين لآخر، كان جان ينظر إليها، إلى وجهها المضاء بشمس الصباح وإلى شعرها المضفور في عقيصة تحت القبّعة المخملية. عندما كانت تقود، كان جان يحبّ ذلك الطّابع الجدّي الذي تأخذه، ونظرتها المركّزة على الطريق حيث تجري أشجار الحور. كان يسمّيها «أمازون»، وكان يحب أن تحمله السيارة، وهي بين يدي جابي، إلى تلك الدّوامة من

السرعة التي كانت تبدو وكأنها لن تتوقف أبداً.

اكتشفت جابي جمال البحر المتوسط في مدينة سانسير -ليليك، حيث أجّرا بيتاً أمام البحر طوال كلّ صيف ١٩٣٨. أبداً لم يحسّ جان بمثل ذلك التوقّد وبمثل تلك السعادة. كان البيت صغيراً وقديماً تسكنه الوزغات. وكانت جابي، بعد الظهر، تغلق المصاريع الزرقاء ثم كانا يتمدّدان على الفراش، عاريين فوق الملاءات البيضاء، لينصتا إلى جوقة الزيزان. في العراء، كانت أشجار الصنوبر تطقطق بسبب الحرارة، وكانت هناك رائحة ماء النباتات والصمغ قوية مثل رائحة البخور. بعد المضاجعة، كانت جابي تحلم وعيناها مفتوحتان وهي تتنفس ببطء. ربما كانت تفكر في ثقل الهواء، قديماً، بفوكواس، وفي الخوف الذي كان يكبر داخلها عندما كانت تجري إلى الخارج بحثاً عن نذر العاصفة.

الآن، كل شيء كان مختلفاً، ومع ذلك كانت تحس نفس القلق ونفس الإنذار اللّذين كانا يضغطان حلقها. لعلّها كانت تقول في نفسها: «أنا سعيدة» ولم تكن تريد أن تفكر، خاصة، في المستقبل. لم تكن تريد أن تنصت عندما كان جان يتحدث عن الحرب.

الآن، كان هناك ذلك الطفل الذي بدأ يملأ بطنها وينفخ ثدييها. لم تخبر جان فوراً، وانتظرت شهراً. كانت تخاف، لو تكلّمت، أن تزعزع ذلك التوزان الهشّ. على هذا النّحو تصرّفت دائماً، بالنّسبة لكل الأشياء: ألاّتبادر بالقول، بل تنتظر.

كان على جان أن يعود إلى بوردو، من أجل الصفقات. وكانت تجارة الحنفيات والسدّادات في أسوأ حال، وكانت هناك إضرابات. رغم ذلك، فإن جان أحبّ الأفكار الجديدة وكان معجباً بالزعيم الاشتراكي بلوم. وكانت أمّه تقول بأنّ ذلك بتأثير من جابي التي أوحت له بتلك الأفكار السيئة. لكن جابي لم تكن تتكلّم أبداً في السياسة. فقط عندما قرر جان تطبيق أسبوع الأربعين ساعةً بالنسبة للعمّال، قالت جابي: «هذا حسن». لم تكن تلك أفكاراً وإنما كانت تحكم على كلّ شيء بقلبها. كان العالم، في نظرها، واضحاً بدون هموم. وفي المرّة الوحيدة التي زارت فيها المصنع، قالت لجان: «المساكين، هناك ضوضاء كبيرة» فوضع جان حواجز، وغلّف المحرّكات بغطاء ووزّع على العمّال وقايةً للآذان. كانت جابي تعرف كلّ شيء بالغريزة، ولم تكن تخطئ. الجميع في المصنع كانوا يحبّونها، إلاّ أنها لم تكن تستطيع البقاء، وكان يتحتّم عليها دائماً أن تذهب وأن تهتمّ بشيء آخر.

في فصل الشتاء ذاك، ذهبا ليستقرّا بنيس حيث كانت تسكن كولومب، عمّة جان والتي كان يحبها كثيراً. وقد عثرت لهما العمّة على هذا المنزل الأحمر الصغير فوق التّلال، المختبئ وسط حديقة مليئة بالنّخيل وأشجار الصبر، وله سطح ذو أعمدة دربزين فيروزية اللّون، منه يمكن مشاهدة البحر بأكمله من رأس أنتيب إلى رأس آي.

كانت تلك السنة هي أجمل وأطول سنة عاشتها جابي في حياتها. وكان لديها، من بين الأشياء التي أهديت لها عند زواجها، ساعة صغيرة جميلة من الزّجاج والنحاس، لها غشاء

جلدي وميناء مزخرف حيث يمكن أن نقرأ، ليس فقط الساعات والثواني، بل أيضاً أسماء الشهور والأيام والأسبوع ووجوه القمر. وفي كل لحظة كان نظر جابي يتوجه إلى تلك الساعة كما لو أنها كانت تحاول أن تقرأ الحركة المنتظمة لسعادتها.

لم تعد حالتها تسمح لها بأكثر من نزهات قصيرة، بخطوات صغيرة ويداها تسندان بطنها المتسع. كانت جولاتها تقتصر على السير في ممر الحصى الذي كان يقود إلى المرصد حيث كانت تستند ووركها ملتصق بالدربزين، لتتطلع، حالمةً، إلى المدينة المضببة.

كانت الريح الباردة تهب من الجبال المكسوة بالثلج، غير أن النخيل كان يستمر في الصرير داخل الحديقة، والشمس كانت تلمع على مخالب الصبر. وكانت جابي تنصت إلى تغريد الحمام المختبئ، مثلما تنصت، قديماً، في المحيط الرمادي لقصب السكر. كان الحال كما لو أن الزمن لم يعد موجوداً، أو بالأحرى، كما لو أن الزمن لم تعد له أهمية، ولم يعد متلهفاً كأنه كف عن الهروب والجريان. كانت جابي تنتظر، الآن، لمدة ساعات بدون أن تتحرك أو أن تتكلم.

«ما بك؟ هل أنت مريضة؟» كان يسأل جان. لم يعد يتعرف عليها هي التي لم تكن تستطيع، من قبل، أن تظل في مكانها. هو، على العكس، صار متهيجاً، قلقاً. كان يسافر باستمرار بين نيس وبوردو في قطار بعد الظهر، أو أنه كان يذهب إلى باريس من أجل مشاغله، لبيع ممتلكات أو يستثمر مالاً. السياسة، الأزمة الاقتصادية، الحرب، كل شيء كان يكدّر مزاجه. وهي، كانت تبقى جالسة تحت الشمس على كرسي الأكاجو وهو الذكرى الوحيدة من أبيها والذي أرسلته إليها إيما بالباخرة. كان نظرها يضيع على البحر. عندما كانت تحس بالبرد، كانت تجر الكرسي إلى قاعة الأكل الصغيرة المظللة بالقصب القديم، وتنهمك في فحص ميناء الساعة المزخرف حيث عقرب الثواني ينطط بدون توقف، متسلية، أحياناً، بتشغيل مصلصلة الساعة الدقاقة.

«لاشيء، أنا على أحسن مايرام، هذا كل ما في الأمر».

كانت تلتصق بجان مجانبة بسبب بطنها. كانت سخنة تماماً ومنتفخة. وكان هو ينظر، مفزوعاً، إلى جسدها العاري البالغ البياض، وإلى النهدين بحلمتيهما البنفسجيتين، وإلى البطن المتوتر كأنه يقطينة ناضجة، يلمع مثل كوكب. كانت تشتهيه فكانت تجذبه نحوها، وكان هو يحس إشعاع جلدها وحياتها، وهذا ما كان يخضه ويجعله يكاد يرتعش.

«هل تحس كم أنا سخنة؟ تعال، ضع يدك هنا، ستحس، إنه يركل!».

من أجل ذلك لم يعد الزمان موجوداً، بسبب الحياة التي كانت تتشكل وتشع. كانت

العمّة كولومب تأتي كلّ يوم عندما لم يكن جان هناك. كانت هي الوحيدة التي قبلتْ زوجة جان. وكانت تناديها «جميلتي». وكانت لها لكْنة غسقونية يحبّها جان كثيراً.

كانت تظل جالسةً إلى جانبها بدون أن تتكلم. كانت تشاطر جابي حلمها وعذوبتها، وكانت تأخذ قليلا من حرارتها. لعلها كانت تتذكّر، فقد كانت لها، قديماً، ابنة ؛ منذ أمد طويل، ربّما منذ خمسين سنة، لكنها كانت ماتزال قادرة على أن تحلم. وبعد شهر من الولادة ماتت ابنتها. قالت ذلك مرة لجابي، ولم تعد لتتكلم عنه أبداً. بكت جابي فطمأنتها كولومب قائلة: «لكن ذلك منذ أمد طويل. الآن، اختلف الأمر، لم يعد ذلك يحدث».

عندما حلّ الربيع، أُعلنَتْ التّعبئة العامة بسبب الحرب. صعد جان برّا إلى قطار متجه نحو الشمال. كانت جابي متعبة فلم ترافقه إلى محطة القطار. بقيَتْ وحدها في الڤيلا بدون أنْ تبكي. استقرّت العمة كولومب معها بالمنزل، وفي تلك الأثناء، بعد أسبوع ونصف، أهلّ المولود على العالم. كان طفلاً وصل بسهولة إلى عالم غارق في الفوضى.

ذهبت العمّة كولومب إلى البلدية لتُصرّح بمولد الطفل. كانت جابي تُفضّل أن تُطلق عليه لقب: إنييكو بسبب موسيقى مقاطعه. وفي البلدية، رفض الموظفون طلبها فقبلَت العمّة كولومب أنَ يسجلوا الطفل تحت اسم إنياس. بكت جابي كثيراً لذلك، ثم قرّرت أن تضحك منه، وستدعو طفلها إيني بكلّ بساطة.

مرّت الشهور والسنوات مبْعدةً السعادة بكيفية لا تراجع فيها. كانت هناك الهدنة، والاحتلال الإيطالي ؛ وكان هناكَ استعراض الناس في شوارع نيس مطالبين بطرد اليهود. وكان هناك الإيطاليون في مدن التّلال، والجستابو الألماني في فندق الأرميتاج. وكانت هناك بطاقات تقنين التموين، والحليب المخلوط بالماء، والخبز الأسود واللّحم الفاسد. سقط إيني مريضاً وغدا وجهه الجميل شاحباً مشقّقاً ومجعّداً مثل جلد عجوز.

كانت جابي تأكل القشور والفواكه التي تشحذها في السوق. هي التي كانت من قبل ضاحكة بدون هم، أصبحت معتمة، قلقة. وفي الليل، لم تكن تستطيع النوم. منغلقة داخل الڤيلا، وراء المصاريع المحشوة بالكرتون والورق الأزرق، بسبب منع التجوّل، كانت تنصت إلى الضوضاء مرتعدة حينما يصرّ حصى الممرات تحت أقدام قطّة مطاردة.

كانت الأنباء تأتي من الشمال، وكان الرجال يعودون من الحرب. لقد هربوا من المعسكرات وساروا عبر الحقول والجبال طوال أشهر. كانوا يصلون عبر سويسرا عن طريق أودية الساڤوا. بعضهم احترق في الجزائر والمغرب. البعض الآخر كانوا قد رجعوا إلى عائلاتهم والتقوا، من جديد، بأزقّتهم وبيوتهم. كانوا يبعثون رسائل بواسطة القسس وسوّاق السيارات.

لكن جانْ لم يعُدْ. منذ اليوم الذي رحل فيه إلى الشمال لم يرسل رسالة واحدة. وظلّتْ عائلة برا دائما مثلما كانت، معادية، مغلقة. لم تكن تريد أن تعرف شيئاً عن جابي ولا عن ابنها. إلاّ أنها عن طريق العمّة كولومب، علمت جابي أنّهم لم يتلقوا أخباراً من جان. لقد

ذهب إلى الحرب، ولقد افتُرِسَ واختفى، ولم يبْقَ شيء منه.

حاولت جابي أن تَستخبر عند النّاس الذين عادوا من جبهة القتال، وسألت أيضاً القُسُس، لكن لا أَحد كان يعلم شيئاً. لا أحد رأى جان. كانوا يحكونَ عن الجنود المجرَّدين مِنْ أَسلحتهم، وعن الجنرالات الذين اقتادهم رجال الدَّرك بعد أنْ وضعوا الأَصفاد على أيديهم، وعن طوابير المدنيِّين الذين كانوا يهربون على طِول الطريق، حاملين متاعهم على عربات أطفال مدفوعة. كان الحال كما لو أَن الناس لم تعد لهم أسماء، كما لو أَنهم جميعاً فقدوا الذَّاكرة.

كانت جابي تنتظر في البيت ذي المصاريع المغلَقة، داخل الحديقة التي اكتسحتْها الأَعشاب الهوْجاء. وفي الأيام التي لم تكن تجيء فيها العمَّة كولومب، لم تكن جابي تَرتدي ثيابها. كانت تبقى مرتديةً المبذَل، جالسة على متَّكإِ الأكاجو، بينما إينِي يلعب تحت شمس الشّتاء الشاحبة.

تمّ، في ١٩٤٣، رحيل الجيش الخامس الإيطالي، والتمركز التّدريجي للجنود الألمانيين. ذات يوم، حضر الألمانيون ليأخذوا عجلات سيارة الدُّودج التي كانت مركونة دائماً في ممر الحديقة المركزي. ثم، ذات صباح، ظهرت على عمود الباب الكبير علامة غريبة رسمت بالطباشير تمثّل سهمين. لم تنتبه جابي إليها، ظانّةً أن أطفالاً قد رسموها ليتَسلَّوا. لكن العمّة كولومب صارت شاحبة ومتهيجة: «هل تعرفين ماذا تعني تلك العلامة؟ أنّ بيتك قد صودر. يتحتم عليك أن تغادريه». وحسب العمّة، فإن مالك البيت، السيد جاندر، هو الذي وشَى بجابي لأنها كانت قد توقّفت عن أداء الإيجار.

خلال الأيام التالية، ظلّت جابي منهكةً القُوَى، قاعدة على المتّكإ أمام الباب بدون أن تَجسر على الخروج. كان إيني يلعب، غير مبال، في ممرات الحديقة، وكان يتسلّى بتقليد صرخات القطط نصف المتوحشة التي كانت تتحرك وسط أجمات الأقنثة.

كانت العمة كولومب هي التي تتكلّف بكلّ شيء. وجدتْ شقة صغيرة تحت السقوف غير بعيد عن منزلها، بزقاق رين ــ جان. وذات يوم، جاء ضابط من القيادة الألمانية مصحوباً برجل درك فرنسي ليخبراها بالطّرد. كان أمامها أربع وعشرون ساعة لترحل. وكان صباحاً جميلاً، مشمساً، من شهر دَيسمبر، يوم غادرت جابي بيت التّلال. على عربة نقل خشبية، كدست بسرعة الأثاث والثياب ومواعين المطبخ. التي كانت تتمايل على إيقاع خطوات الحصان. وكان إيني جالساً على ركبتيها وشعره الأشقر يلمع تحت الشمس. كان يضحك مقهقهاً.

كان إينِي لا يتكلم. ولأَمد طويل، كانت جابي تقنع نفسها بأن لا شيء هناك وأن

الأمر مجرّد تأخّر في النّطق. وكانت العمّة كولومب مشغولة البال جرّاء ذلك: «عليك أن تعرضيه على طبيب اختصاصي» ؛ فكانت جابي تغضب. «ليس به شيء، ليس مريضاً!». كانت تظن بأن قلبه ضعيف وبأنه خجول. كان يحاكي ضوضاء الحيوانات، وكان يضحك بسهولة.

لم تغفر جابي للعمّة كولومب ما قالته عن ابنها، ولم تعد تحبُّ أن تراها. لم تكن ترى أحداً. الآن، في السّقيفة المجاورة، كان يعيش رجل اسمه سكيلاريو، مشعوذ يزعم أنه مطبب. تنصتت على قلب الولد وقال: «كم عمره؟ عشر سنوات؟ لكن يا سيدتي، هل تعلمين أن له قلب طفل في سنّ الثالثة؟». كانت كلمات سكيلاريو، بالنسبة لجابي، اكتشافاً. من أجل ذلك، إذن، لم يكن إبني يتكلم، فله قلب طفل في الثالثة، وعمره، إذن، ثلاث سنوات!

كان جدّ جميل عندما كان صغيرا بوجهه الأملس وجلده الرقيق ذي اللّون الفاتح، وعينيه المائلتين قليلا الزرقاوين، وشعره الأشقر. كان يشبه أباه كثيراً، ولكن جابي لم تكن تريد حتّى أن تفكر في اسم ذلك الغائب: «هو» لم يوجد أبداً بالنسبة لها.

بعد الحرب، عندما قدّمت جابي طلباً للحصول على معاش، رفض الجيش طلبها. هل كان باستطاعتها أن تبرهن على موت زوجها خلال الحرب؟ كانت هناك أسباب تدعوهم لأن يشكّوا في أنه فرّ من الجيش. عند إعلان التعبئة العامّة. لم يتقدّم أبداً إلى مركز تسجيله، ولا أحد سمع عنه أخباراً. لقد أخذ الأمر بالمرور ورحل، بدون لباس عسكري وبدون بندقية. على أن كثيراً من الجنود لم يتسلموا بنادق. فهل كان باستطاعتها أن تؤكد موته؟ كثير من الناس، عند التعبئة، تركوا كلّ شيء من أجل ألاّ يذهبوا إلى الجبهة. لذلك لابدّ من متابعة البحث وتجميع الوقائع. سيخبرونها بما جدّ، وفي انتظار ذلك لم يعد لجابي ما تتعيش منه.

أغلقت الأبواب على نفسها من جديد، لم تعد تريد أن تعرف شيئاً، خاصة عن عائلة زوجها. على أن العائلة كانت قد أنكرتها، وصفقة الجنفيات أفلست بدون أن يتم أي توزيع للحقوق. لم يكف ثمن بيع حظائر المصنع لسدّ الدّيون. والأم برا ماتت بسبب أزمة قلبية، والأبناء والبنات تشتّتوا، ورحلوا إلى مناطق متعدّدة من العالم: إلى أنجلترا والأرجنتين والبرازيل، ليصبحوا مهربين وفرساناً في الصناعة. تزوجت سولانج، البكر، من متعاون كان جاسوسا للنازيين وأعدم برصاص المسدّس داخل مطعم لوتسيا ؛ فأصبحت هي نصف مجنونة، وكانت تتّهم جابي بأنها وراء اغتيال زوجها وأنها قد دفنته في حديقة ڤيلا التّلال.

لم تعد جابي تملك شيئاً. تدريجياً، باعت كلّ الأشياء التي كانت في حوزتها، وكذلك تذكارات الماضي التي ترجع إلى فترة زواجها وإلى السنوات السعيدة: الأثاث المرصّع، الصناديق، الصحون المزخرفة، الفضّيات. باعت حليها كلّه. كانت تذهب عند تاجر سقطي أرميني، يدعى أمدوني، مرفوقةً بابنها. وكانت يداها تخرجان من حقيبتها وقد لفّتها في منديل وكأنها مسروقة، خاتم الياقوت الأزرق، اللاّزورد، الذي كانت خالتها إيما قد أعطتها

إياها قبل رحيلها، والذي كان قد جلَبَه من الهند الجدُّ كورنتان في فترة القَرْصَنَة.

وكان لَوْن عيني إيني في مثل لَوْن الياقوت. نظر أمدوني، السَّقطي، طويلاً إلى الخاتم ثم قال: «إذا لم تكوني مضطَرة، يا سيدتي، إلى بيعه، احتفظي به، فأنا لَن أستطيع أبداً أن أعطيك ما يساوي قيمته». هزت جابي كتفيها: «إذا كنت لا تستطيع أن تعطيني قيمته، فاعطني ما تريد». وبثمن الخاتم دفعت جابي مستحقات الإيجار المتأخرة، وديون البقال، واشترت ثياباً جديدة لإيني ووضعت قليلاً من المال في البنك.

لكن النقود كانت تتبخّر من بين أصابعها. كان المشعوذ سكيلاريو يأتي عندها في كلّ حين زاعماً أنّ عليه أن يطبع كتاباً سيكشف للعالم أسراره وقدراته. وكانت جابي التي تعلمت الارتياب في كل شيء، تستقبل بحماس ذلك الرجل الثرثار، المحتال، الضخم الجثة الذي كان يعرف كيف يبرر بؤسه. كانت تعطية النقود وتعهد له ببيع حليها وأشيائها. لوحات وكتب كانت تختفي ؛ الساعة الدقّاقة الجميلة، هدية زواجها، التي طالما تطلّعت إليها وهي تنتظر مجيء إيني إلى العالم، عرفت نفس المصير. منذ موت العمة كولومب، لم يعد هناك من يتوسط بين جابي والعالم. وكان سكيلاريو يعرف ذلك فصار أكثر إلحاحاً وأكثر جرأة. الآن حجاب يغشي عيني جابي وكأنه ضبابة على أزرق قزحيتيها. شيئاً فشيئاً، بدأت حواشي الأشياء تتلاشى. لم تعد تميّز ملامح الوجوه. وعندما كانت تخرج إلى الشارع، كانت تتقدم بخطوات صغيرة، ملتصقة بإيني وذراعاها تحيطان بكتفيه.

كان سكيلاريو مجنوناً. داخل الغرفة التي تعيش فيها جابي، كان ينشد بأعلى صوت أشعاراً وخطباً فلسفية. وكان إيني يخافه غريزياً. ومثل القطط التي كانت، عند دخول أجنبيّ، تختفي تحت الأثاث، فإن إيني كان يختبىء حيث يستطيع تحت الطاولات وداخل خزانة المكنسات أو وراء الستائر. وبالنسبة لسكيلاريو، صار ذلك بمثابة لعبة قاسية. كان ينطلق للبحث عن الولد، متظاهراً بالعمى، ضارباً الأثاث والكراسي بعكازه، صائحاً بصوته المفخم للحروف: «سأعثر عليك! سأفترسك!». كان إيني مرعوباً، ومن مخبئه، وقلبه ينبض بشدة، كان ينظر بعينين ثابتتين إلى حذاء سكلاريو الذي كان يجعل أرضية الغرفة تطقطق تحت وطإ خطاه.

لم تكن جابي تفهم. من خلال ضبابة عينيها، كانت ترى طيف الرجل الضخم منحنياً على إيني. وكانت تسمع الصرخات والزمجرة ؛ عندما ينتهي الأمر، كان إيني يأتي ليتلبّد لصق جسدها، فكانت تحسُّ بقلبه النابض بسرعة مثل قلب حيوان مهتاج. «اتركه! لقد أخفته». فكان سكلاريو يتراجع ويتظاهر بأنه نادم على ما فعل، وينسحب ليعود إلى سقيفته. لكن إيني لم يكن يحوّل عنه عينيه. وكانت قزحيتاه الصافيتان بلون اللازورد، تظلاّن مثبتتين على الباب، أمداً طويلاً بعد اختفاء الرجل.

في فصل الربيع، مرضتْ جابي. أوّل الأمر، لم يكن سوى زكام، بل زكام أسيوي كما شخّصه سكيلاريو؛ أو لعلّها هجمة ملاريا. كانت جابي مشتعلة، تحس بالألم في الظهر وفي أعضاء الجسد، فكانت تبقى ممدة على الفراش ناظرة إلى إيني وهو يلعب بالقرب منها، داخل دارة صغيرة. ولم تفد الأعشاب المغلية والضمادات المنقوعة بالخلّ التي كان يقدمها لها سكيلاريو، سوى في إثارة القيء وآلام الرأس. كانت جابي تتألّم لدرجة تجعلها تتقرفص تحت الأغطية ويداها تضغطان على جمجمتها. لم تعد تفتح النوافذ. كان فظيعاً ذلك الضوء الربيعي الذي كان يتسللّ عبر المصاريع ومعه تغريدات النغر الذي تملكه العجوز ميللر، والصرخات للسمامات المحلّقة في السماء. كان إيني يظل ثابتاً، جالساً على الأرض قرب الفراش، مترصّداً مجيء جلّاده.

ذات يوم، بعد الظّهر رغم كلّ شيء، خرجت جابي من غفْلتها. كانت الحمّى هي التي منحتها قوىً وأسعفتها على الفهم. كانت شاحبة ونحيلة، عيناها ملتهبتان، وشفتاها مزرقّتان من البرد. «سأموت». كانت تقول ذلك ببطء، وكانت فكرة باردة وباعثة على النشوة في آنٍ؛ هي التي اضطرّتها إلى النّهوض من الفراش. فجأةً، رآها سكيلاريو أمامه، منتصبةً وقوية وهي مرتدية منامتها، وشعرها الرمادي متشابك من الحمّى، وبالأخص تلك النظرة التي كانت تحرق سكيلاريو وهو في الظلّ. ترك إيني الذي كان نصف جسده يوجد تحته، وأخذ يتراجع. ظن، للحظة، أنها استرجعت بصرها. «لم أكن أريد أن... لم أكن أعلم...». كان خائفاً وكان يحاول أن يربح الوقت ليبلغ الباب. كانت نظرة جابي الزرقاء تلمع كأنها سلاح. «اذهب! اخرج من هنا، لا تعد أبداً!». كانت تضمّ إيني إليها. كانت تصرخ، الآن، وهذا الصوت الصادر عن جسم قضمه المرض، كان يرعش الرجل ويرغمه على الهروب «اذهب! اذهب! لا تعد أبداً». وعندما تأكدت بأن سكيلاريو قد ذهب، اتكأت على إيني ثم عادت إلى الفراش. كانت فكرة الموت تبطئ من حركة جسدها وتجعله غريباً عنها. أخذت يدَ إيني وضغطت عليها أمداً طويلاً.

إن الجوع هو الذي أنقذ جابي. بعد أن أكل إيني كلّ البسكويت وبقايا الخبز، ذهب لينقر على باب السيدة ميللر. جاءت العجوز معه إلى الشقة وعندما دخلت رأت، في نظرة واحدة، الوسخ، والإهمال والغسيل الملوّث، وجابي على الفراش تامّة البياض، وعيناها بلون الدّم. «يا إلا هي...» هذا ما استطاعت أن تتلفّظ به العجوز. ورغم سنّها، خرجتْ لتتلفن. أمر الطبيب بنقل جابي فوراً إلى المستشفى قائلاً: «إنها مصابة بالتهاب السحايا في الدماغ الشوكي» وأضاف: «لا أمل في نجاتها. منْ سيتكفل بالولد؟». أخذت السيدة ميللر إيني إلى بيتها في انتظار أن تجد له مكانا بإحدى المؤسسات.

كان مرض جابي طويلاً وصعباً، وأخيراً شفيتْ إلاّ أنها فقدتْ بصرها تماماً. رجعتْ إلى شقتّها تحت السقوف بعض الوقت، ثم استطاعت، بفضل نقود المعاش الذي وصلها أخيراً بما

يشبه المعجزة، أن تؤجّر غرفة صغيرة في كارميل بمنزل قديم تضيئه الشمس، منزل يشبه ذاك الذي ولد فيه ابنها إيني.

❖

عندما دخل إيني، أول مرّة، إلى بيت العجوز ميللر، تكلّم لأول مرّة في حياته. في شقّتها الصغيرة، المعتمة، توجد نافذة تطل على الساحة وكانت مزينة بخزامى حمراء تضيئها الشمس. مشى إيني حتى بلغ النافذة ولامس الزجاجية «ضوء». كانت تلك هي كلماته الأولى.

أدركت المرأة العجوز أن شيئاً معجزاً قد حدث. أدخلت إيني إلى مؤسسة متخصصة ثم بعد ذلك التحق بالمدرسة. وفي أقلّ من شهر تدارك التأخير. تعلّم القراءة والكتابة والحساب. وكان شغوفاً بالعلوم الطبيعية وبالفيزياء. وجاء حظه الثاني من خلال أستاذ العلوم الطبيعية السيد شارل بهر الذي اعتنق البوذية وتعلّق بهذا الولد الذي يكاد يكون متوحشاً. وفي كل يوم خميس وأحد، كانا يذهبان في نزهات عبر التّلال، بحثاً عن أعشاش الطيور وعن الأحفورات، والنباتات وأفراخ الضفادع.

الآن، بفضل نقود المعاش التي تصل بانتظام، لم تعد جابي تشغل بالها بالمستقبل وبتكاليف تربية إيني. وعندما جاء مبعوث بنك بركليس لزيارتها في غرفتها الصغيرة بكارميل حيث كانت ترتاح، تحرّكت ومدّت يديها نحوه لتلمس وجهه وجبهته وعينيه. أحس موظف البنك بالحرج وشعر بما يقرب من الخوف.

«أخيراً! كان لابدّ من كل هذا الوقت!». قالت جابي ذلك بدون مرارة، بل بنوع من التّسلية. ساعدها الموظف على توقيع أوراق وهو يمسك بيدها، ثم انصرف متعجلاً. لم يقل لها حقيقة مصدر ذلك المعاش. ومن الممكن أنها لم تعرف حقيقته أبداً.

الآن، وهي جالسة على متّكإ الأكاجو، الذكرى الوحيدة المتبقية لها من الجزيرة، فإنها جميلة دائماً في سنّ السادسة والخمسين، بالغة الأناقة، وبشعرها الكثيف ذي السواد الفاحم حيث تتسلّل بعض الخيوط الفضيّة وبتلك الضفيرة التي تضعها على الكتف اليمنى مثلما كانت تفعل قديماً عندما كانت تذهب للسباحة في النهر، مع صديقتها أنانتا. وجهها ذو الجفنين المغلقين جدّ متناسق، لكنّها ليست لامبالية ولا بعيدة. كل الناس مرّوا، وعاصفة الحياة قد شتتتهم، والحرب قد أحالتهم إلى رماد. كان هناك ذلك الاشتعال، عندما مرضت جابي، وكل شيء اختفى في تلك الحرقة. الآن، السلام في داخلها، والألم قد هذّب وجهها مثل صفحة ماء.

سكنتها الرغبة في أن تعود إلى هناك، إلى موطنها، داخل جزيرتها بقاكواس. رغبة جدّ قوية، مستمرّة، هي نفسها لم تفهمها. بعد المرض الفظيع، كانت جابي داخل هذه الغرفة بكارميل، وحيدة، منهكة القوى. وكانت تبقى، في سريرها، ثابتة لا تتحرك كما لو أنّ ذراعيها وساقيها قد تكسّرت. كانت تظل ثابتة يرافقها فقط هذا الضوء الغائم أمام عينيها، مثلما كانت في القديم، حيث تنظر إلى النّهار يطلع من خلل النّاموسية.

عند الفجر، حضر شيء، اقترب. كانت جابي تدق أبواب الموت، وكانت تسمع الضوضاء، ضوضاء هي، في آن، جدّ عذبة وجدّ عنيفة كانت تصل من الطّرف الآخر للعالم، مثل رفيف ثوب متواصل يكبر داخلها ويوقظ ذاكرتها. أخذت ترتعد، وكانت تفتح فمها لتنادي لكن، كما في الأحلام السيّئة، لم يكن أيّ صوت يخرج من حلقها. كانت الضوضاء تكبر، والآن تتعرّف عليها. إنها ضوضاء المطر الذي يصل، كما في القديم، إلى منزل أبيها. اللّمسة الخفيفة والملحة للقطرات على سقوف الزّنك، وخرير المزاريب، والأنهر التي تجري مجتمعة إلى أن تصل إلى البركة الكبيرة الملطّخة بالدّم.

تذكرت حينئذ، عندما كان المطر يصل إلى ڤاكواس، أنها كانت تعرف ذلك أمداً طويلاً قبل وقوعه. كأن كلّ شيء يغدو معتما، وكانت هناك غيمة داكنة تخيّم على الأرض وعلى حقول قصب السكّر حتّى رؤوس الجبال. وكان هناك ذلك البرد داخل جسدها وتلك الارتعاشة الطويلة.

لم تظنّ أنها ستتعرّف، ذات يوم، على ما أحسّتْ به، على ذاك المطر الذي ينزل من السماء مثل شيء حيّ، وينزلق على منحنى السقوف ويقتلع أوراق الأشجار، وينقر زجاج البيت المهتزّ. كما في القديم، كانت تشمّ رائحة أمّها التي لم تعرفها، ممتزجة خلسةً برائحة الأرض وبالأوراق العطنة، وبرائحة الجوافة والمانجا، ورائحة البابايا الحرّيفة المفتوحة وفوق طاولة المطبخ وبرائحة رجل الغزل اللّيلي المسكرة.

الآن أمامها، وسط الضوء الضّبابي، كان هناك طيف واقف ينظر إليها: مرتدية فستاناً خفيفاً، ثوب السّاري، بشعرها الأسود المتساقط على كتفيها، وبتلك النظرة الزرقاء المحرقة المنبعثة من وجه معتم. كانت جابي تظل مسمّرةً على لحافها عاجزة عن الحركة، بينما الطيف العجيب ينظر إليها ويعاينها، ثم فجأةً، استدار الشبح وامّحى الطيف. لم يبق سوى ضوء النهار الذي يتناقص مع الصباح. عندئذ، قررت جابي العودة إلى موطنها، مهما كان الثّمن، لتلتقي أنانتّا صديقتها.

❖

هل كانت السماء ما تزال تمطر، عندما ألقت المرساة آخر باخرة لشركة ستمشيب الهندية، على طريق بومباي، وعندما قادت القوارب الركاب إلى رصيف الميناء؟ كان يوم جمعة بتاريخ ٢٤ فبراير ١٩٦٧، والبدر ينزلق بطريقة عجيبة بين السحب متغلغلاً داخل ظلمة الليل الزاحفة. كانت قد مرت بالضبط ثمان وثلاثون سنة على الفتاة ذات الشعر الأسود والعينين الزرقاوين المرتدية لفستانها الخفيف وقبعة القش الغريبة، المحتمية تحت مظلتها وهي تصعد إلى الباخرة «بريطانيا».

وكان إيني يعنى بجابي ويقودها، فهو الآن، رجل وقامته أطول منها. وهي التي تخبئ وجهها في صدره عندما تتعب أو تحس بالخوف.

كانت جابي تحس بقلبها ينبض قوياً داخل صدرها، فيما هي تسير على الرصيف مستندة إلى ذراع إيني. كانت تسمع هرج الناس المستقبلين للركاب وتحاول، بكل قواها، التعرف على الأصوات والضوضاء. كانت هناك رائحة فاكهة عطنة وبقايا سوق ذلك اليوم تحت المطر، والعذوبة الدافئة لظلال الأشجار الكبيرة. «انظر إلى هنا، في هذا المكان توجد أشجار الولاية، هل تراها؟» ضغط إيني على يديها وهمس: «نعم، أراها، إنها فارعة وقوية...». كان الحشد يفسح لهما الطريق، وكانا يمران مثل طيفين. كان الأولاد يجرون ويصرخون، وكان هناك ضجيج للموسيقى وروائح للسمك المقلي وللزيت.

داخل غرفة الفندق -البنسيون، بالقرب من الميناء، كانت جابي تجلس على كرسي القش أمام النافذة المفتوحة لتنصت إلى هرج ومرج الشارع. كانت هناك كلاكسونات السيارات، ووقع الخطى الجارية على الأرصفة.

«انظر، إيني، لماذا يوجد أناس كثيرون في الشارع؟ لماذا يصرخون هكذا؟» أحست بالخوف، فجأة. أغلقت النافذة من جديد. منذ أمد طويل وهي تنتظر هذه اللحظة، والآن يخيل إليها أن كل شيء يهرب منها. «ليس هذا أمراً ذا بال، يا أمي. إنهم يتظاهرون من أجل الاستقلال».

ولم تكن جابي تفهم. كانت تظن أنها ستبقى خارج البيت إلى أن يخيم الليل، مثلما كانت تفعل قديماً، لتشم الروائح وتسمع نقرات المطر على السقوف... والآن، تستشعر قلقاً بهيماً كما الحال قبل هبوب العاصفة.

«لكن، ماذا يريدون؟ سيحرقون كل شيء!». كانت تتذكر الحرائق في الحقول، والسماء التي كانت تحمر إلى حدود سهول «ولهيلمز».

ما كانت تريده، هو أن ترى أنانتا. لكن بعد كل هذه السنوات، من يستطيع أن يدلها على ما صارت إليه؟ لم تكن جابي تعرف حتى اسمها. وسيارة الأجرة التي كانت تتسلق

طريق السكّر لتبلغ مدينة ڤاكواس، تعطّلتْ مرّتين وأخيراً توقفت السيارة أمام مفترق طرق حيث توجد سوق للخضر والأسماك الجافّة. تحدّث السائق طويلاً مع الباعة ثم عاد إليها وهو يهزّ كتفيه. لا أحَد كان يعرف أنانتا، ولا أثر يدلّ عليها. ترك جابي وإيني بأحد فنادق كريبب. أحسّت جابي أن شجاعتها تتخلّى عنها. يا له من جنون أن نبحث عن أحد بعد مرور حياة بأكملها. عند الليل، تركت نفسها تنساق إلى الخارج، إلى محيط قصب السكّر الرمادي تحت السماء المحمّلة بلغيوم. كانت حبّات الإجاص تتدحرج مثل أسرب أوراق الشجر تدفعهاالريح. وعلى برك الماء تَرتعد مويجات. تتذكر جابي، الآن، الأغنية التي كانت أنانتا تغنيها عندما كانتا تَذهبان للاستحمام في النّهر:

«في الغابة حمامات

لاداعِيَ لأن أصل إلى البرْكَة

لأنني فرحة وجميلة

أيّوه! أيّوه!»

طوال سنة كاملة، عاشتا سويةً يوماً عد يوم. وآنذاك، لم يكن هناك مستقبل. ما منْ شيءْ كانت له أهمية سوى الذهاب للنزهة عبر الحقول، بعد الخروج من المدرسة، على امتداد الطرقات الملتهبة، والاستحمام في النّهر وقد تركتا شعرهما يتموّج من خلَل التيّار.

جاء تي-كوكو. كيف عرف برجوع جابي؟ لعلّه طومبسون، وكيل بنك باركلي، الذي أخبره بسبب المعاش. دخل تي كوكو إلى الفندق ورآها. كانت جالسة على كرسيّ من أسَل الهند، وأمامها على الطاولة الصغيرة، براد شاي يتصاعد بخاره. نظر لحظة طويلة إلى لمعان شعرها الأسود وإلى وجهها الأملس ذي العينين المغلقتين. وفي لحظة معيّنة، استدارت نحوه لتحس حضوره. كانت عيناها ما تزالان زرقاوين، إلاّ أنهما كانتا تنظران جانبياً بدون أن تريا.

«الآنسة كيرفيرن؟»

ارتعشت جابي وهي تسمع اسمها. لقد تعرّفت، فوراً، على صوته.

«تي-كوكو!»

مشتْ نحوه واقفةً، وبسرعة جعلتْها تُسقط الأريكةَ. ضغطتْ براحة يديها على وجه تي-كوكو،ورسمت حواشي أنفه وفمه وأذنيه، ومرّرت يدها داخل شَعره المجعّد. ومشيا، معاً، في صالون الفندق إلى الأريكة.

«لم تتغيّر!»

كانت تضحك وتتكلّم بدون توقّف. وكان تي-كوكو، كما في القديم، لا يعرف ما يجب أن يقوله. وصل إيني بعد ذلك بقليل. نظر بفضول إلى ذلك الرجل الصغير، السمين، ذي البشرة الفاحمة والرأس الكبيره بإفراط.

علمت جابي، عن طريق تي-كوكو، أن صديقتها أنانتا قد ذهبت لتعيش في حيّ فقير بمدينة ڤاكواس، من جهة الكهف. كانت تشتغل بمزرعة شاي. لكنّه لم يتلقّ أخبارها منذ أمد طويل. لم ترد جابي أن يرافقها تي-كوكو في بحثها عن صديقتها. وذات يوم جميل، مشرق الضوء، كانت جابي تسير وهي مستندة إلى ذراع ابنها إيني. كانت تطلب منه أن يقول لها ما يشاهده، إلاّ أن ذلك كان لمداراة خشيتها. وكان هو يحكي لها عن الحدائق المزهرة والأكواخ الخشبية الصغيرة بسقوفها الحديدية ؛ ويخبرها عن النساء السائرات على الطريق، حاملات معازقهنّ فوق رؤوسهن بتوازن، والأطفال يجرون وهم يكادون أن يكونوا عراة. في شوارع القرى، كانت أجهزة الراديو مفتوحة والناس يتكلمون بصوت مرتفع، وجماعات من الرجال عند مفترق الطرق. فكانت جابي تحسّ بالقلق وتضغط على ذراع إيني: «لنعد إلى الفندق». كان هناك شيء لم تعد تفهمه ويجعلها أجنبية.

«هذا غير مهمّ، يا أمي، إنما ذلك بسبب الاستقلال».

طوال الليل، كانت السيارات تزمّر ؛ وكان هناك أناس يصرخون ويغنّون. كانت أصداء الموسيقى تسمع من بعيد، عند مفترق الطرقات. وكانت جابي تمسك بيدي إيني وترتعد.

«هذه بلادك، الآن»، كان يقول لها إيني.

«هل أملك بلاداً؟ تجيبه جابي.

كل يوم وكل صباح، كانت تجوب أزقّة الأحياء الفقيرة، مستندة إلى إيني. في أول الأمر، كان الأولاد يخافون. الآن، يتبعون جابي وإيني بدون أن يسخروا منهما، لكن مع وقاحة. كانوا يقتربون لينظروا جيداً إلى ذلك الولد الطويل الأشقر ذي الوجه الأملس، وإلى تلك المرأة ذات الشعر الأسود الطويل والتي كانت تنظر إلى بعيد مثل العميان. كانوا يعرفون عمّن يبحثان فكانوا يجرون أمامهما في الأزقة وهم يصرخون باسم: «أنانتا! أنانتا!»

ذات يوم، بينما كان إيني يتكلم مع البقّال الصّيني، تلقّى خبراً فظيعاً: أنانتا ماتت مباشرة بعد الحرب. لم تقدر على الاستمرار في الحياة بعد الفقر والحرمان. أبناؤها تكفّلت بهم أسرة زوجها، لكن الصّيني لا يعرف إلى أين ذهبوا. لعلهم رحلوا إلى الهند، أو إلى إنجلترا. لم يرد إيني أن ينقل الخبر إلى جابي، فاستمر في سلوكه كما لو أن أنانتا حيّة، وكما لو أنّهما سيعثران عليها ذات يوم.

في عام ١٩٦٧، خلال الشتاء الجنوبي، ذهب إيني وأمه ليعيشا بإقامة مؤقتة، داخل كوخ قرمزيّ اللّون، مصنوع من الأغصان بأعلى جرف في كريسكري، من ناحية سوياك. كان تي-كوكو هو الذي هيّأ كل شيء. ذلك أنه لم يعد من مكان في ڤاكواس لجابي كيفرڤيرن ؛ فمنزل الأسرة القديم قد تهدّم بعد الحرب وموت العمّة إيما، إذ لم يعد هناك من يطارد الأيائل. قسّمت مساحة الأرض بين الدّائنين، والآن شيّدت عمارة صغيرة من الإسمنت مكان البيت القديم. كانت طريق السكّر تمرّ بمحاذاة النّوافذ، أمام حوض زهور حيث ينبت الكلأ الأزعن.

جميع الناس الذين كانوا يعرفون عائلة كيرڤيرن، وبورجوازيو ڤاكواس وكيريبيب قد ماتوا أو أنهم قد غيّروا سلوكهم. عندما علموا أن جابي قد عادت، جاؤوا لزيارتها بدافع الفضول. وكانت بالنسبة لهم، هي الزوجة التي اختفى زوجها خلال الحرب، ولم يكونوا يعرفون أين، فكانوا يقولون بأنه هرب من الجيش ورحل إلى آخر الدنيا. ذلك أن سمّ الإشاعات التي نشرتها أخوات زوج جابي قد وصلت إلى هنا. ثم كان هناك أيضاً ذلك الدّم المخلوط، وذلك الكافر» الذي يحمل اسماً غريباً. ومن ثم فإن البوارجوازيين ابتعدوا عنها ؛ وكان ذلك، بالنسبة، لجابي، تخفيفاً من أعبائها، لأنها كانت تفضل أن تبقى وحيدة مع ذاكرتها، لتكون مستعدة يوم تعود أنانتا.

في كريسكرس، اكتشف إيني البحر، لا البحر بدون نهاية على المحيط حيث يرتطم صدر السفينة، بل البحر المتوحّش الذي يتكسّر على الجرف ويجري في شكل لفائف طويلة إلى أن يبلغ الشاطئ بين الأرصفة. مع أولاد القرية السّود، تعلّم أن يغطس وعيناه مفتوحتان لينزلق إلى القاع حيث تلمع توتياء البحر البنفسجية. تعلم أن يصطاد مسلّحاً بخطّاف مصنوع من ساق شجرة ومسمار. وعند زوال كل يوم، يعود ليطبخ الأسماك. وخلال فصل واحد، صار شاباً قوياً، جرئياً، جلده قد لوّحته الشمس، وشعره يكاد يكون أبيض بسبب الملح. لكنّه لم يتغيّر. احتفظ بالميل إلى الصّمت والحفاظ على السرّ. استمرّ يتكلّم بيديه وعينيه. وتعلم الأطفال السّود لغته. كان يقلّد صرخات طيور البحر، ونعيق البوم، وصفير المازور. وكان أعزّ أصدقائه، عمر، ابن مريم من جزيرة القمر والتي كانت تعيش داخل كوخ من الخشب، عند مدخل القرية. وهو الذي علّم إيني اكتشاف مخابئ السّمك في تجاويف الصخور والأعشاش.

أمضت جابي فصلاً سعيداً في ذلك الكوخ المنعزل الذي تنقصه الرفاهية، كان الحال، كما في القديم، بالمنزل على التّل، والزمن ينساب ببطء على إيقاع الساعة النحاسية الدّقّاقة، والشمس تسافر من طرف لآخر في السماء، بينما إيني يلعب مع القطط المتوحشة. لم تكن في حاجة إلى أن يكلمها أحد ؛ فكانت تبقي جالسة أمام باب الكوخ فوق كرسي هو بمثابة متكإ. بعد الظهر، بعد أن يعود إيني من الصيد، كان يجلس عند قدميها وكانت هي تلاطف شعره المبلول. كانت تستطيع، وهي تضغط على يده، أن ترى كل ذلك: لمعان البحر، مرور السّحب أمام الشمس، تحليق الغاقات البطيء فوق زبد البحر. أحياناً، تتوقّف سفينة شاحنة عند

الأفق وكأنها أمام جزيرة مُقْفرة. كان الأولاد يجرون على شاطئ السباحة ويُضرمون النار، ويصرخون.

عادت الأمطار. هبّت الرياح القوية من جهة البحر، وكان يَصْدُر عن الأمواج هديرٌ شَبيه ما يصدر عن مصهر الحديد. جاء تي–كوكو ومعه سيّارة ليأخذ جابي وابنها. ولأنهما لا يتوفّران على مكان يذهبان إليه، فقد صحبها إلى بيته. شيء ما تغيّر فيه ؛ صار صوته أجشّ، مبحوحاً. ولأول مرّة، قَلقَتْ عليه: «ما بك؟ هل أنت مريض؟». أجاب تي–كوكو بمزحة: «لا شيء، مجرّد قطّة في حلْقي». كانت المشاغل تعوقه عن معالجة نفسه. كان باستمرار، في مكاتب الاستيراد والتصدير، فقد كان يستورد النسيج من الهند والصين، وكان يتردّد على رجال الأبناك في شارع الأسوار. كان تي–كوكو رجلاً مهماً. سألته جابي بقساوتها الهادئة القديمة: «لماذا لا تتزوّج؟» نظر إلى وجهها الأملس ذي الوجنتين البارزتين، وإلى جبهتها العنيدة، وإلى حمّة شعرها الفاحمة المجدولة في ضفيرة كثيفة، ثم قال: «لأنك لا تريدين أن تتزوجيني».

انفجرتْ ضاحكة:

«أنت، تتزوّج أرملةَ جنديّ مجهول! امرأة عمياء!»

رغم كل شيء، فإن جابي قد تغيّرت. الآن، وقد التحق إيني بالكوليج الملكيّ، فقد صارت أكثر قرباً من تي–كوكو. كانت تبقى معه، بعد الغداء على الشرفة، يتحدثان عن أيام زمان، عن نزهاتهما في «الأقاليم الخمسة عشر» وفي بِركة ڤاكواس. وكانت تشعر بنوع من نفاد الصّبر، كأنه الزمن الضائع قد صار محرقاً.

كان المطر ينزل في نهاية كلّ عشية، وكان يهطل مثل شلاّل أمام الشرفة وعلى السقوف، فيملأ الحديقة. وكانت جابي تنصت إلى الموسيقى، وتفكّر، دوماً في صديقتها أنانتا. كل يوم، برفقه الخادمة العجوز، كانت تجوب الأزقّة الفقيرة جهة الكهف، أو تصل إلى حدّ «موكا» لتتحدث مع النساء العجائز المصابات بالسرطان، ومع الأمهات المهجورات وفتيات في سنّ الخامسة عشرة، حاملات وعاهرات في فنادق الشاطئ الفخمة. استعادت سهولة الكلام القديمة، والضّحكة، والسخرية، وحنان الكريول. كانت نزهاتها وجولاتها ثرثرة لا تنتهي. لعلها كانت، بهذه الطريقة، تلتقي صديقتها أنانتا، في الحلم.

لقد مرّت سنة، الآن، على سفر ابنها إيني إلى لندن، بفضل منْحة دراسية من الكوليج الملكي. ومرةً أخرى، تي–كوكو هو الذي هيّأ كل شيء ؛ ثم مات بهدوء، في الأيام من سنة ١٩٦٨، بدون أن يتعرّف على استقلال بلاده. وعندما ذهب إلى المستشفى، كان يدرك أنه لم يعد. ضغط طويلاً على يدي جابي ليودّعها. لم تنتبه إلى أنها كانت الكلمة الأخيرة. لم يعد قادراً على الكلام، لكنه كتب رسالة يطلب فيها من الأطبّاء ألاّ يقولوا شيئاً لجابي. أنجز وصيته بعناية، مثلما أدار دائما شؤونه، فأورث جميع ممتلكاته لإيني وحق استغلالها لأمه جابي.

وأوصى بأنْ يتولى طومسون، وكيل بنك بركلي، والمتواطىء معه دائماً، تنفيذ وصيّته. وذات صباح، عند الفجر، وجدت ممرّضة بالمستشفى العمومية، تي-كوكو ميّتاً فوق سريره. لم يحاول أن يناديها، وجيرانه في الغرفة لم ينتبهوا لموته. رحل في صمت مثلما دوماً، عاش.

كان الدّفن سريعاً، بدون مأتم. لم يكن تي-كوكو يُريد ذلك. وقد حضرت جابي وحدها مع الخادمة العجوز السوداء. سارت وراء النّعش الخشبي الأصفر حتى النهاية، حتى القبر المحفور في مقبرة فونيكس الصغيرة. كانت هناك رائحة الأرض المبلّلة وأغاريد الطيور في الأجمات. لم تبْكِ جابي، ظلّتْ منتصبة حتّى النّهاية. لكن عندما عادت إلى الغرفة الصغيرة، بمنزل تي-كوكو، أحسّت بألم، بشيء تكسّر داخلها، ببرد لا يقاوم.

لأول مرّة، منذ أمد طويل، عادت الحمّى، تسلّلتْ إلى جسد جابي مثلما يحدث قبل العاصفة. وفي نهاية فبراير، وصلت العاصفة عنيفة، مرعبة كانت ريح الغرب تهبُّ بين الجبال وتتغوّر في سهول ولْهيمز، وتحرث حقول قصب السكّر. وكان البيت الخشبي العتيق يصرُّ مثل باخرة زعزعها البحر. خلال اللّيل، وقعتْ شجرة مجاورة، شجرة أوكالتبوس، دفعةً واحدةً محدثةً جلبةً تشبه الرّعد. وكانت جابي تذرع البيْت الفارغ محمومةً، تهذي، عندما عثرت عليها تيريزا العجوز «إيني؟ أين إيني؟ لماذا لا يجيب! اختبأ مرة أخرى خوفاً من ذلك الخنزير، من ذلك الغول!». حاولت تيريزا أن تطمْئنها: «لا أحد هنا، يا سيدتي جابي، إيني في لندن كما تعلمين ذلك جيداً». لم تكن جابي تنصت إليها: «إيني! أين أنت؟ هل تسمعني، أجبني! لقد ذهب، لا أحد هنا، يمكنك أن تعود! إيني أرجوكَ!».

ثم استسلمتْ للنحيب. منذ أمد طويل لم تبْك، والآن تخرج منها الدّموع كأنّها ماءٌ نافع، كأنّها مطر فوق السقوف وداخلَ الحديقة المغمورة بالفيضان.

في الأخير، نامتْ وقد هدأت آلامها؛ إلاّ أن قواها تدهورت في تلك اللّيلة وقد وجد الطبيب، الذي استدعته تيريزا العجوز، أن نبضها غير منتظم وأن ضغطها جدّ منخفض. لم تكن جابي تريد أنْ يكلموها في شأن المستشفى. كانت تنتصب جالسة على السّرير، ووجهها متوتّر من القلق: «أرجوكم، قولوا لإيني أن يحضر الآن، قولوا له أن يحضر بأسرع ما يمكن».

جاء الجواب على البرقية في مساء الغد، في نفس الوقت تقريباً الذي وصلتْ فيه طائرة إيني. لكن لم تنتبه لما حولها، كانت قد رحلت بعيداً، على طريق قديم ناحية الأقاليم الخمسة عشر، هناك حيث النساء يمشين ببطء وسط حقول قصب السكّر. كان هناك ضوء كثيف، خيالي. وعلى الطريق، كانت جابي ترى الطيْف المرتدي السّاري الوردي؛ بانتظارها. تعرّفتْ على وجه الفتاة، على قوسيْ حاجبيها المكتملين وعلى خطّ جبهتها الناصع والعينين اللاّمعتيْن مثل قطرتيْ ماء. كانت ابتسامة غريبة تطفو على شفتيها، فتقدّمتْ جابي نحوها وأمسكت يدها، ثم سارتا معاً على الطريق إلى أن بلغتا النّهر الذي كان يجري بهدوء بين

الشاطئين المثقلَين بالنباتات. على الماء، كانتا تُلقيان بقوارب من أوراق تُويّج الزّهر، ثم تتوغّلان إلى أن يطفو شعرها حولهما وكأنه طحلب يسبح في النهر. بعد ذلك، تسيران في طريق على الضفّة الأخرى، عبر التّلال الصامتة، وعند نهاية الطريق كانت تنتصب شجرة البَيبَيل حيث تعيش الإلاهة.

بقيَ إيني في الغرفة، بالقرب من أمه، ليل نهار. لم يكن يفهم ما يحدُث. كان يمسك بيدها داخل يده مثلما كان يفعل عندما كان يريدها أن ترى بعينيه. تكلّمتْ مرة واحدة ؛ وكان ذلك خلال المساء الشهير ليوم ١٢ مارس، ولافتات الشّباب تجوب الشوارع احتفالاً بالاستقلال، وهم يرمون المفرقعات، فارتعدت جابي إثر ضوضاء المتفجرات وضغطت يد ابنها. تلفّظت باسمه كاملاً «إينيبيكو»، الاسم الذي حلمت بأن تسميه به قبل أن يهلّ على العالم. ماتت بدون ضجّة عندما كان نائماً على سرير المخيّم، إلى جانبها. ربما كان المطر يهطل على التّلال، المطر البارد المتقطّع الذى يتساقط عند الفجر فيجعل كلّ شيء بعيداً وعابراً.

مع الوحدة، علم إيني بالحقيقة، فوكيل بنك بَرَكْلي هو الذي شرح له كل شيء يتعلق بالميراث وبمعاش جابي. الآن، لم يعد ذلك سرّاً، ولم يعد له أهميّة. إن تي-كوكو لم يغادر أبداً الجزيرة ولم يذهب إلى الحرب، ولم يرد أبداً أن يتزوّج. طوال حياته اهتمّ بمتجر النّسيج في كربيب. ولأنه لم يكن يحتاج للنقود، فقد أصبح جدّ غنيّ. نزوته الوحيدة كانت هي ادّخار الروبيات ثم إرسالها إلى جابي كل ثلاثة أشهر، كما لو كانت معاشاً يصرف لها. لم يقل لها ذلك أبداً، ولم يرد أن تعرف حقيقة الأمر. كان ذلك هو سرّه. لعلّها لم تفهمه أبداً. كان الحال، كما في القديم، عندما كانت تسير على الطريق لتلتحق بأنانتا وتمرّ بجانب تي-كوكو بدون أن تراه متدثرة بتلك القساوة اللاشعورية عند الفتيات المفرطات الجمال.

على شاهدة القبر، بمقبرة فونيكس الصغيرة، نَقَشَ إيني اسميهما مكتفياً بتاريخ الولادة والوفاة. الآن، إنهما يرقدان، أخيراً الواحد إلى جانب الآخر، وإلى الأبد.

❖



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المحتويات

❖







الفرنسي»، بل تغدو الكتابة لديه،
وسيلة للانطلاق والتحرر من القيود
والمواصفات، ووسيلة لاستعادة قوة
الحلم والرؤية الاشتمالية. ومثلما أنه
تعلم قيادة الطيارة ومارسها في التايلاند
وبناما، فإنه يستنتج: «أن الكتابة
والطّيران شيء واحد». هكذا تنتفي
الحدود المصطنعة بين الواقعي
والمتخيل ويمتزج السردي بالوصفي،
والشعري بالنثري، وتستعيد الطبيعة
بعناصرها الأربعة، وبتلاوينها، وظيفة
تنظيم الإيقاع وإضفاء الحياة على
الأحساسيس المكتسبة خلال مسيرة
المغامرة والاكتشاف. يكتب لوكليزيو
باستمرار ولا يستطيع أن يستبعد
المجدي عن اللا مجدي، لأن
الكاتب، في نظره، له هذا الامتياز
المتمثل في تسجيل كل شيء
ليتمكن من أن يصنع منه، أحياناً،
نصاً يقف على قدمين. ليس هناك
نظرة جاهزة ولا انتماء إلى منظومة
وقيم جاهزة. يقول: «لا أستطيع أن
أتقبل فكرة أن أكون منتمياً، كلية،
لعالم أو لآخر... أنا محتاج إلى
اللاتوازن، وإلى بابين».



دار شرقيات للنشر والتوزيع

